

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



جامعة غليزان
RELIZANE UNIVERSITY

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أحمد زبانة - غليزان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

بلاغة خطاب الوصية مقاربة حجاجية لوصية لسان الدين بن الخطيب

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه ل م د في لسانيات الخطاب

إشراف:

أ.د. عثماني عمار

إعداد الطالب:

عبد الهادي عبد القادر

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	المؤسسة	الصفة
أ.د. بوداود براهيمي	أستاذ التعليم العالي	جامعة غليزان	رئيسا
أ.د. عمار عثماني	أستاذ التعليم العالي	جامعة غليزان	مشرفا ومقررا
د. لخضر هامل	أستاذ محاضر (أ)	جامعة غليزان	عضوا مناقشا
د. قندوز هواري	أستاذ محاضر (أ)	جامعة غليزان	عضوا مناقشا
أ.د. فضيلة قوتال	أستاذ التعليم العالي	جامعة تيارت	عضوا مناقشا
أ.د. كريمة زيتوني	أستاذ التعليم العالي	جامعة مستغانم	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: (1446هـ-1447هـ/2025 م -2026م)



شكر وتقدير

الحمد والشكر لله الذي وفّقني على إتمام هذه الدّراسة.
أتقدّم بالشكر الخاصّ إلى أستاذي المشرف "عمار عثمانى" على كلّ ما بذله
من جهد وإخلاص في تقديم المساعدة والعون.
كما أشكر كلّ أساتذة مختبر الدراسات المتعددة التخصصات في تعليم وتعلّم
اللّغات على سعيهم المتواصل في عملية التكوين والتوجيه، وحرصهم الدائم
على تذليل الصعوبات وتخطّي العقبات.
والشكر موصول أيضا إلى كلّ أعضاء الهيئات التدريسية والإدارية بكلّية
الآداب واللغات، جامعة أحمد زبانة، غليزان.

إهداء

إلى الوالدين حفظهما الله...

إلى إخوتي وأخواتي وأصدقائي...

إلى كلِّ مَنْ علَّمَنِي ولو حرفاً...

إلى كلِّ سَنَدٍ لي في الحياة...

لكم جميعاً أهدي هذا العمل.

عبدالقادر

جدول کشف الرّموز

الرمز	دلالاته
ص	الصفحة
ط	الطبعة
د ط	دون طبعة
دت	دون تاريخ
م ن	مصدر/ مرجع نفسه
م س	مصدر/ مرجع سابق
مج	المجلد
ج	الجزء
ع	العدد
م	المثال
ق	القول
تق	تقديم
تن	تنسيق
تح	تحقيق
تر	ترجمة
إش	إشراف
مرا	مراجعة
ح	الحجّة
ن	النتيجة
Ibid	مصدر/ مرجع نفسه

مقدّمة

عندما يستشعر المرء أجله المحتوم وحقه المعلوم، يجد نفسه رهين فوات، أمام لحظة مفصلية في حياته، يُعيد فيها شريط عُمره بدءًا ومُنتهى، بكل نجاحاته وخيباته، لينظر بمنظار المتفكر والمتأمل لِكُنْه الحياة، وَيَسْتَشْفِ بِبصيرته ما وراء الحُجب، حينها يُدرك هذا الإنسان حقيقة الدّنيا الزائلة الفانية، ويفهم حقّ الفهم ما قدّمت يَداه، فتتعمّق لديه المأساة والمعاناة، وتتملّكه الحسرة والرّهبة، وتفيض العيون ندماً وأسفاً على ما فرّط وأضاع.

وضمن هذا المقام المخصوص -مقام الموت- الذي لا مفرّ منه، فإنّ أوّل ما يترأى للإنسان أولاده، فلذات كبده، وقرّات عينه، فينادي عليهم نداء المفارق المودّع، ليُقدّم لهم صفوة خبراته وعصارة تجاربه، حتّى تكون لهم دواءً يقيهم من العِلل، وحصانةً تُصدّ عنهم إكراهات الزمن، ولا يتأتى ذلك إلّا من خلال قلبٍ إيصائي زاهر بالمعرفة النّافعة والحكمة الخالصة.

إنّنا هنا، نعي بالقلب الإيصائي؛ تلك الوصيّة التي ينسج صاحبها خيوطها تحت مظلة النّصح والوعظ والإرشاد -لا الوصيّة الشرعية الفقهية-، لتتغلغل هذه الوصيّة في أعماق نفّس الموصى إليه وذهنه على حدّ سواء، فتعرض عليه مفاتيح الخير والنّفع والاستبصار من ناحية، ومغاليق الشرّ والضّرر والجهالة من ناحية أخرى، وتتركه في مواجهة الحيارين؛ فإمّا سيّر نحو مفتاح المنافع والفضائل، الموصول إلى أبواب النّجاة، وإمّا سيّر نحو فتح مغلاق المضارّ والرّذائل، الموصول إلى أبواب الهلاك.

تساوفاً مع ذات التوجّه، وقّع اختيارنا على وصيّة أندلسية، من أبٍ مُحْتَضر بلغت رُوحه ذروة الضّعف والانكسار، رافعاً راية الاستسلام للمصير المكتوب، بعد أن كابد محن الدّهر، إنّه "لسان الدين بن الخطيب" الوزير الأندلسي، الذي لم يجد في أقول بجمه سوى اللّغة، التي كانت رهانه في التأسيس لوصيّة جامعة كافية لأبنائه، عبّرت عن طموحاته وآماله، فرسّم معالمها، وبَنَى سقّفها، وحدّد أطرها، على منوال التوجيه والإرشاد، وأودعَ فيها فيضاً من القيم والحقائق، ليظهر "ابن الخطيب" من خلالها بمظهر الحكيم الواعظ الذي خبّر الحياة، واستخلص العبر والحكم.

فكانت بذلك وصيته خطابًا غائيًا استشراقيًا، سلكَ مَسْلَكَ الاستمالة والتأثير في الموصى إليهم -أولاده-، قَصَدَ توجيههم إلى الاعتبار والاستجابة العملية لمضمون الوصية، وقد تجلّى ذلك وفق بنية تناظرية تقابلية ذات حدّين: حدّ ترغيبي منشود؛ قوامه الإغراء، وحدّ تنفيري محذور منه؛ قوامه الترهيب.

من هنا ارتأينا أن يكون موضوع بحثنا، موسومًا بـ:

بلاغة خطاب الوصية -مقاربة حجاجية لوصية لسان الدين بن الخطيب-.

كان مسعانا فيه تسليط الضوء على المقاربة الحجاجية لخطاب الوصية، باعتباره جنسًا أدبيًا، له مقوّمات وخصائص وإمكانات بلاغية، تُميّزه عن غيره من الفنون الأدبية، وآثرنا الوقوف على وصية "ابن الخطيب" لأبنائه، كنموذج للدراسة والتحليل، فقاربناها مقاربة حجاجية كَشَفَتْ لنا عن الأنساق البلاغية والأبعاد الحجاجية الإقناعية لهذا الفنّ الأدبي.

✓ أسباب اختيار الموضوع:

دفعتنا عدّة أسباب إلى الخوض في دراسة الوصايا، أهمّها:

- الرغبة في تطوير آليات التحليل الحجاجي وتطبيقها على مختلف الخطابات الأدبية.
- الوصايا سجلّ يحوي تجارب وخبرات حقيقية وصادقة، تصدر -في الغالب- لحظة الإحساس بالموّت، وهي لحظة خالية من التصنّع والرياء، يكون التعبير فيها نابعًا من الرُّوح.
- الوصايا فنّ جالبٌ للخير، دافعٌ للشرّ.
- الوصايا خطاب وعظي توجيهي إرشادي، يروم التغيير والتطلع نحو الأفضل.
- اختيار وصية "لسان الدين بن الخطيب" نموذجًا للدراسة دون غيرها من الوصايا، إمّا كان لاعتبار واحد هو اشتغالها على قيم في شتّى المجالات؛ دينية، أخلاقية، اجتماعية، سياسية، وغيرها.
- قلة الدّراسات التي تناولت موضوع الوصايا من وجهة بلاغية حجاجية، قادتنا إلى اختيار المقاربة الحجاجية على وجه الخصوص.

✓ الدراسات السابقة:

- على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت فنّ الوصايا، إلّا أنّ جلّها كان مدار البحث فيه من ناحية تاريخية أو فنية، باستثناء بعض الدراسات التي اهتمت بالاشتغال الحجاجي، أبرزها:
- "عبد الله البهلول": الوصايا الأدبية إلى نهاية القرن الرابع هجرياً - مقارنة أسلوبية حجاجية - مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، دار محمد علي الحامي، تونس، ط1، 2011م.
- "خالد عبد العزيز التحكائي": بلاغة الوصية مقارنة بلاغية حجاجية، دار الرافدين، بيروت، لبنان، ط1، 2021م.
- "علاء الدين أحمد الغرايبة"، "أمل شفيق العمري": آليات الحجاج اللغوي وشبه المنطقي والبلاغي لوصايا الحكماء في العصر الجاهلي، دار خطوط وظلال للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2021م.
- "عبد الفضيل أدراوي": بلاغة الوصية (وصية علي بن أبي طالب إلى ولده الحسن نموذجاً)، هي دراسة منشورة ضمن الكتاب الجماعي: بلاغة النص التراثي - مقاربات بلاغية حجاجية -، إشراف: محمد مشبال، دار العين، الإسكندرية، مصر، ط1، 2019م.
- "إبراهيم سماني": خطاب الوصية في التراث العربي - مقارنة في بلاغة الحجاج -، هي رسالة ماجستير في الأدب العربي، تخصص: نظرية الأدب والمناهج النقدية المعاصرة، تحت إشراف: الدكتور "بوجمعة عمار"، جامعة جيلالي لباس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية، 2016م-2017م.
- أمّا بالنسبة للدراسات التي تناولت وصية "ابن الخطيب"، فأهمها:
- "بغدادى بشرى": الوصية في الأدب الأندلسي وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده - دراسة حضارية فنية -، هي رسالة ماجستير في الأدب الأندلسي والحضارة المتوسطية، تحت إشراف: الدكتور "كروم بومدين"، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، السنة الجامعية، 2010م-2011م.
- "صفاء حرب": التكثيف الإقناعي في وصية لسان الدين بن الخطيب، مقال منشور بمجلة الجمع القاسمي، أكاديمية القاسمي، فلسطين، العدد: 17، 2022م.

✓ إشكالية الدراسة :

إذا كان خطاب الوصية خطابًا تواصليًا يتوسل فيه الموصي الإقناع والحجاج، بُغية استمالة الموصى ودفعه إلى العمل بمضمون الوصية، فما هي الآليات والتقنيات البلاغية الحجاجية التي يعتمد عليها في سبيل تحقيق تلك الغاية؟ وكيف يتم الكشف عن مظهراتها؟ كما أنّ الاختلاف والتباين بين طرفيّ الإيصاء؛ طرف خبر الدنيا وآخر مُقبلٌ عليها، يدفعنا إلى التساؤل عن نوع الاستراتيجيات الخطابية الموظفة في التوجيه الإيصائي؟

تبعًا لذلك نتوجّه نحو وصية "ابن الخطيب" لنطرح الأسئلة التالية:

- فيم تمثّل المسار الحجاجي الذي بنى عليه "ابن الخطيب" وصيته؟ وماهي أهمّ الاستراتيجيات الخطابية التي استعملها في توجيه أولاده؟

- هل الإمكانيات البلاغية والآليات الحجاجية التداولية التي حازتها وصية "ابن الخطيب" تمكّنت من تحقيق المقصدية الإقناعية؟

✓ هيكل الدراسة:

للإجابة عن الإشكالية المطروحة، عمدنا إلى تبني خطة بحث، قامت على مقدمة، ومدخل، وثلاثة فصول، وخاتمة.

جاء المدخل في شكل "مباحث تمهيدية"، عرضنا فيه بعض المفاهيم كالبلاغة الجديدة، والمقاربة الحجاجية للخطابات، كما وقفنا فيه على حُدود العلاقة بين البلاغة والحجاج، ومن ثمّ فصلنا القول في مفهوم التداولية وأهمّ موضوعاتها.

في حين الفصل الأوّل عنوانه بـ "الحجاج - المنطلقات والنظريات -"، وقسمناه إلى خمسة محاور كبرى؛ غني المحور الأوّل منها بالبحث في ماهية مصطلح الحجاج والمصطلحات المشابهة له، ومحور ثانٍ تتبّعنا فيه الحجاج في الفكر اليوناني بداية بـ "كوراكس" وصولاً إلى "أرسطو"، وانكبّ المحور الثالث على متابعة المصطلح وحضوره في الفكر العربي وأفردنا لذلك نماذج، ثمّ تطرقنا في محورٍ رابعٍ إلى أهمّ نظريات الحجاج الغربية، ورّكّنا القول على نظريات: الحجاج المنطقي، الحجاج البلاغي، الحجاج

اللساني، نظرية المساءلة، في حين انصبَّ المحور الخامس على الإشارة لبعض الجهود العربية الحديثة في مجال الحجاج.

وورد الفصل الثاني بعنوان "خطاب الوصية في الأدب العربي"، وشمل هو الآخر خمسة محاور رئيسة؛ تناولنا في الأول منها مفهوم الوصية، وأركانها، وعلاقتها ببعض المصطلحات المقاربة لها في الدلالة، ثمَّ عمدنا في محورٍ ثانٍ إلى استعراض أنواع الوصايا عبر عصور التراث الأدبي العربي، بدءًا بالعصر الجاهلي وانتهاءً بالعصر الأندلسي، وتضمَّن المحور الثالث من الفصل خصائص الوصية وأهميتها، لنتنقل بعد ذلك إلى محور رابع خُصَّ للحديث عن تفاعل الخطابات وتنوع الاستراتيجيات الخطابية داخل خطاب الوصية، ثمَّ ختمنا الفصل بمحور خامس، بيَّننا فيه البُعد الإقناعي والحجاجي للوصايا.

وبالنسبة للفصل الثالث، فكان عبارة عن "دراسة تطبيقية تحليلية لوصية ابن الخطيب"، وأدرجنا تحته خمسة مباحث أساسية؛ الأول منها قدَّم بإيجاز تعريفًا للوصية وصاحبها على حدِّ سواء، أمَّا المبحث الثاني، سلَّط الضوء على أهمِّ الاستراتيجيات الخطابية التي تضمَّنتها وصية "ابن الخطيب"، في حين المباحث المتبقية -المبحث؛ الثالث، الرابع، الخامس- كانت محاولات إجرائية قاربت الوصية من وجهات مختلفة، هي على التوالي: المقاربة التداولية، والمقاربة الحجاجية، والمقاربة البلاغية.

✓ أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في التعريف بجنس أدبي، هو بمثابة دستور يُنظَّم العلاقات ويُصحَّح الأفعال والسلوكات، وينقل الخبرات من جيل إلى جيل، كيف لا، وبعض صوره حاضرة مُتجلِّية في كتاب الله عزَّ وجلَّ، من خلال وصايا بعض الأنبياء والحكماء لأبنائهم، ابتغاء تحصيل تقوى الله. وإنَّ القيم والمعاني الواعظة المرشدة التي شملتتها وصية "ابن الخطيب" لخير دليل على مكانة وقيمة هذا الفنِّ بين الفنون الأخرى.

✓ أهداف الدراسة:

- تبتغي الدراسة تحقيق جُملة من الأهداف، أبرزها:
- توسيع مجال المقاربة الحجاجية على مستوى التطبيق وتطوير آلياتها.
- إعادة قراءة خطاب الوصية وفق رؤية بلاغية حديثة.
- الكشف عن أهمّ الأبعاد التواصلية والمكوّنات الحجاجية، التي يمتاز بها خطاب الوصية دون غيره من الخطابات.
- بيان الاستراتيجيات الخطابية المعتمدة من طرف الموصي، في سبيل تحقيق غايته الإقناعية.
- الوقوف على الأساليب البلاغية والأبعاد التداولية للوصايا.

✓ المنهج المتبع:

لما كانت الدراسة في فصولها تُزاوج بين التنظير والتطبيق، ارتأينا الاعتماد على المنهج الوصفي الذي استعان بالإجراء والتحليل- في مقارنة الوصية سواء من حيث تتبّع واستعراض مفهوميّ الحجاج والوصية ونشأتهما عبر الحضارات والعصور، أو من حيث الكشف عن التقنيات الحجاجية والأبعاد التداولية والآليات البلاغية.

✓ مكتبة البحث:

اعتمدنا في إنجاز دراستنا على جملة من المصادر والمراجع، التي تنوعت بتنوع المواضيع المطروقة، فمنها ما تعلق بالدرس التداولي، ومنها ما ارتبط بالدرس الحجاجي، وبعضها الآخر كانت له صلة بفنّ الوصايا، ونعرض أهمّ تلك المؤلفات فيما يلي:

• مؤلفات في التداولية:

- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، لمحمد أحمد نخلة.
- التداولية عند العلماء العرب -دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي-، لمسعود صحراوي.

- استراتيجيات الخطاب -مقاربة لغوية تداولية-، لعبد الهادي بن ظافر الشهري.

• مؤلفات في الحجاج:

- أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، وهو مؤلف جماعي أشرف عليه "حمادي صمود".

- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، لمحمد العمري.

- بلاغة الإقناع في المناظرة، لعبد اللطيف عادل.

- الحجاج في البلاغة المعاصرة -بحث في بلاغة النقد المعاصر-، لمحمد سالم الأمين الطلبة.

• مؤلفات في الوصايا:

- الوصايا ومدى تطورها في العصر العباسي الأول، لسهام الفريح.

- أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، لمحمد أمين مصطفى.

- وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي، لرونك توفيق علي النورسي.

ناهيك عن مؤلف عبد الله البهلول (الوصايا الأدبية إلى نهاية القرن الرابع هجرياً)، ومؤلف خالد عبد العزيز التجكاني (بلاغة الوصية مقارنة بلاغية حجاجية) اللذين اعتمدت عليهما كثيراً في الجانب التطبيقي، دون أن أنسى كتاب (جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة) لأحمد زكي صفوت، وكتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-) للمقرئ، اللذين اقتبست منهما عدداً كبيراً من الوصايا، وفي مقدمتهم وصية "ابن الخطيب" عينة الدراسة.

✓ صعوبات الدراسة:

إنّ أيّ بحثٍ لا يخلو من عراقيل تُعيق مسار تَقَدُّمه، وتُواجه صاحبه، ومن بين الصعوبات نذكر؛ تشعبَ موضوعيّ الحجاج والوصية في مجالات معرفية وحقول علمية متنوعة، كان من العسير علينا الإمام بها جميعاً، بالإضافة إلى ندرة الدراسات والبحوث التي تناولت موضوع المقاربة الحجاجية لخطاب الوصية، لكن ورغم ذلك حاولنا تذليل هذه المعوقات بالقدر المستطاع، ونرجو أن نكون قد وفّقنا في ذلك.

ختامًا، لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى أستاذي المشرف الدكتور "عثماني عمار" الذي احتضن هذه الدراسة، رعايةً وتوجيهًا، تصوييًا وتقويمًا، ولولاه لما خرج البحث بهذه الصورة. كما لا يفوتني أن أشكر كل أعضاء لجنة المناقشة على تحمّلهم عناء قراءة البحث وتصحيحه. وأرجو أن أكون قد وفّقت في إعداد هذا العمل، وذاك هو المراد، وإن كان غير ذلك فمن نفسي، وحسبي أنني اجتهدت وأخلصت النية، وإنه ليكتب الإنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غيّر هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أحسن. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الطالب: عبد القادر عبد الهادي

تيارت في: 28 ذو القعدة 1446هـ

الموافق ل: 26 ماي 2025م

مدخل: مباحث تمهيدية

أولاً - بلاغة أم بلاغات؟

ثانياً - البلاغة الجديدة.

ثالثاً - البلاغة والحجاج.

رابعاً - المقاربة الحجاجية للخطابات.

خامساً - التداولية: مفهوما وموضوعاتها.

أولاً - بلاغة أم بلاغات؟

استطاعت البلاغة (Rhetorique)-على حدّ تعبير "رولان بارت" (Roland Barthes)-أن تستيقظ وتكتسح الساحة بقوة أكبر ممّا كانت عليه في عصرها الذهبي (اليوناني والروماني)¹، وحتى في التراث العربي القديم، وأضحت اليوم نشاطاً إنسانياً وطريقة من طرائق التعبير الإنساني تفرض نفسها في مختلف مجالات المعرفة الاجتماعية والسياسية والمهنية والأدبية، وغيرها²، قادرة - البلاغة - على استيعاب مختلف تحولات الثقافة والعلوم الإنسانية، ولكونها «مائلة في كلّ النصوص، بل إنّها مكوّن طبيعي في أشكال التواصل الإنساني، وفي أيّ خطاب يجمع المسافة بين طرفين متباعدين، أو بين ذات متكلمة وأخرى متلقية»³، ولعلّ هذا التوسع والحضور الجليّ للبلاغة واشتغالها في فضاءات معرفية متعددة، وخطابات متنوعة حتّى «أصبح لكلّ خطاب بلاغته»⁴، هو ما دفعنا إلى صياغة العنوان -بلاغة أم بلاغات؟- صياغة استفهامية، سيراً على خطى البلاغي "محمد العمري" حين طرح جملة من الإشكالات: «أين توجد البلاغة؟ هل هناك بلاغة واحدة، أم بلاغات متعددة؟»⁵.

فيكون الجواب عن سؤالنا: بنعم، البلاغة بلاغات، فقد تأرجح مصطلح البلاغة منذ القديم -سواء في الحضارة الغربية أو الحضارة العربية-، بين معانٍ وتوجهات مختلفة؛ فهناك من جعل بؤرة اهتمامه تنصرف إلى الاهتمام ببلاغة المحسنات والتخييل والتعبير الشعري، وهو ما قد أجمع على الاصطلاح عليه بالشعرية (Poiesis)، وهناك من اعتبر البلاغة إنّما هي بلاغة الحجاج

¹ ينظر: رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1994م، ص: 07.

² ينظر: محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة -بحث في بلاغة النقد المعاصر-، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008م، ص: 07. وينظر أيضاً: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نُغيّر - مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج-، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2006م، ص: 17.

³ محمد مشبال، البلاغة والأصول دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي -نموذج ابن جني-، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2007م، ص: 10.

⁴ محمد العمري، الحجاج: مبحث بلاغي، فما البلاغة؟، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته -دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة-، إشراف: حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1431هـ - 2010م، ج1 -حدود وتعريفات-، ص: 22.

⁵ محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2012م، ص: 05.

(Rhétorique Argumentation)؛ التي تهدف إلى استمالة المتلقي والتأثير فيه، فهي قبل كل شيء «عتاد بنائي وتبليغي يتوسل به الخطيب أو القائل عموماً، بغرض فرض رأيه أو موضوعه أو اقتناعه، ولأجل كسب تأييد الآخر والتأثير فيه»¹.

أي؛ إنّ البلاغة بالاستناد إلى هذين الاتجاهين، تُصبح عملاً لوجهين اثنين: الوجه الأول: يتنصل من مهمة الإقناع، ويضمّ كلّ الخطابات التخيلية من شعر وسرد وغيرها، أمّا الوجه الثاني: يستهدف الإقناع وتغيير الأحوال والمقامات، ويضمّ كلّ مكّنات الخطاب التداولي والحجاجي²، كما نجد توجّهاً ثالثاً يجمع بين الاتجاهين السابقين - التخيلي والحجاجي - معاً، يُعرف باسم: البلاغة العامة (Rhétorique Générale)³.

وسنعرض فيما يلي اتّجاهات البلاغة في الثقافتين الغربية والعربية :

أ-البلاغة في الثقافة الغربية:

تتفرع إلى ثلاثة توجهات كبرى، حصرها "محمد العمري" في :

1/التوجه المنطقي:

يُخصّص هذا التوجه لمجال الإقناع وآلياته، برز مع "شايم بيرلمان" (Chaim Perelman)، وآخرين، حيث سعى إلى إعادة إحياء البلاغة الأرسطية وفق صياغة جديدة قوامها الحجاج (Argumentation)⁴، وهو ما اصطلح عليه بالخطابة/ البلاغة الجديدة (La Nouvelle

¹ عبد الكريم ابزاري، في مؤسّسات الخطاب الإقناعي _ من تخوم البلاغة إلى رحابة الحجاج، ضمن كتاب: من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرَّجبة _ قراءات في أعمال الدكتور محمد مشبال، تن: عبد الواحد المرباط وآخرون، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2017م، ص: 33.

² ينظر: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري تطبيقي لدراسة الخطابة العربية _ الخطابة في القرن الأول نموذجاً، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2002م، ص: 06. وينظر أيضاً: محمد الولي، الاستعارة في محطّات يونانية وعربية وغربية، منشورات دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 1426هـ - 2005م، ص: 19. وينظر أيضاً: شايم بيرلمان، الإمبراطورية الخطّابية _ صناعة الخطاب والحجاج، تر: الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2022م، ص: 50.

³ ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 77.

⁴ ينظر: م ن، ص: 67 - 71 .

(Rhétorique) من خلال مُصنّفه المشترك مع "الوسي أولبرخت تيتيكا" (Lucie Olbrechts Tyteca)،
 المعنّون ب: (المصنّف في الحجاج الخطابة الجديدة (Traite de L'argumentation- La Nouvelle
 (Rhétorique)، الذي عرّض فيه أهمّ التقنيات الحجاجية في الخطابات، وسعى من خلاله إلى توسيع
 آفاق البحث البلاغي، الذي لم يُعد مقتصرًا فقط على بلاغة المحسنات، وإنّما أصبح
 إمبراطورية (Émpire) - وقد تمّت الإشارة إلى هذا المصطلح في مؤلّف "بيرلمان" الموسوم بعنوان:
 (الإمبراطورية الخطابية (L'empire Rhétorique) - واسعة تشمل كافة الخطابات.

2/ التوجه الأسلوبي الأدبي: إذ يبحث هذا الاتجاه في صُور الأسلوب (Style) بصفة عامة، ويُمثّل هذا
 الاتجاه (جماعة مي ب: ليج (Groupe Mu de Liège) -، من خلال كتابهم المشترك المعنّون ب:
 (البلاغة المعمّمة¹ (Rhétorique Généralisée) -، والمقصود هاهنا، بالبلاغة المعمّمة: هي تلك البلاغة
 التي تشمل تيارًا واحدًا؛ إمّا التخيل أو الإقناع²، وفي هذا التوجه الأسلوبي، نجد أنها تشمل التخيل.
 3/ التوجه الخطابي (السيمائي/ النصي): يسعى هذا الاتجاه إلى جعل البلاغة علمًا أعلى يشمل
 التخيل والحجاج معًا، ويُمثّل هذا الاتجاه "هنريش بليث" (Henrich Plett)، من خلال كتابه:
 (البلاغة والأسلوبية (Rhétorique et Stylistique) وغيره من الباحثين³. وفي هذا الصدد يرى
 "هنريش بليث" أنّ البلاغة لم تُعد «محصورة في البُعد الجمالي بشكل صارم، بل إنّها لتتزع إلى أن تصبح
 علمًا واسعًا»⁴، والعلم الواسع في تصورنا يشمل جميع الخطابات اللغوية وغير اللغوية، ويزاوج بين
 التخيل والإقناع معًا.

* سنعرض لاحقًا التوجه المنطقي عند "بيرلمان" بالتفصيل.

¹ ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص: 72 - 76.

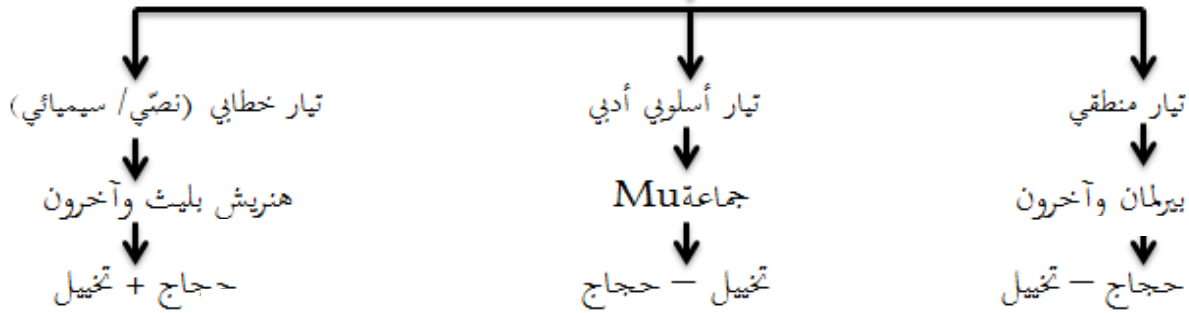
² ينظر: عادل المجداوي، البلاغة العامة والبلاغات الخاصة - بلاغة الجمهور نموذجًا -، تق: عماد عبد اللطيف، دار العين للنشر
 والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1442 هـ - 2021 م ص: 59.

³ ينظر: م س، ص: 77 - 80.

⁴ هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية - نحو نموذج سيميائي لتحليل النص -، تر: محمد العمري، منشورات دراسات سال، الدار
 البيضاء، المغرب، ط1، 1989 م، ص: 15 - 16.

تلك إذن أهم التوجهات الكبرى التي تُمثّل البحث البلاغي في الحضارة الغربية -والتي تمت الإشارة إليها بإيجاز، لأنه من الصعب الخوض في تفاصيل كلّ هذه الاتجاهات-، ونُجملها في :

البلاغة في الثقافة الغربية



المخطط رقم 01: تيارات البلاغة الغربية

ب- البلاغة في الثقافة العربية:

جعل "محمد العمري" في مقابل هذه التيارات الغربية لمفهوم البلاغة، ثلاثة توجهات في تاريخ البلاغة العربية، هي:

1/ تيار البديع: عُرِفَ هذا الاتجاه مع "ابن المعتز" (ت 296هـ)، في كتابه (البديع)، وكذلك "أسامة بن منقذ" (ت 584هـ) في كتابه (البديع في نقد الشعر)، وغيرهم¹، إذ يهتم هذا التيار بالمحسنات البديعية.

2/ تيار البيان*: أهم من مثّل هذا توجه هو "الجاحظ" (ت 255هـ)، من خلال كتابه (البيان والتبيين)²، وهو توجه حجاجي.

3/ تيار البلاغة العامة: عُرِفَ هذا الاتجاه بشكل خاص مع "حازم القرطاجني"* (ت 684هـ)، من خلال كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)³، أي؛ إنّ هذه البلاغة العامة «لا تنفي المحسنات أو

¹ ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 36 - 37.

* ستكون لنا وقفة تفصيلية لتيار البيان مع "الجاحظ" في مبحث لاحق.

² ينظر: م س، ص: 38 - 40.

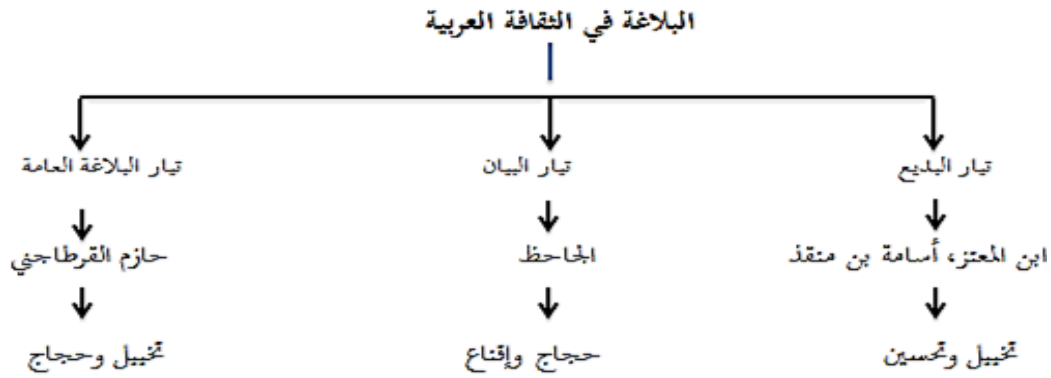
* نعرض لاحقاً هذا التيار بالتفصيل.

³ ينظر: م س، ص: 56-58.

الحجج، ولكنها تستوعبها في أفق بلاغي مخصوص لا يفصل بين التخيل والحجاج، أو بين الإمتاع والإقناع»¹، بمعنى أنها تجمع بينهما في قالب واحد، فكل واحد منهما يُكَمِّل الآخر .

وعلى الرغم من هذا التقسيم الثلاثي الذي حصر فيه "محمد العمري" مفهوم البلاغة العربية عبر تاريخها، إلا أنه في موضع آخر يرى أن هذه التيارات تتفاوت درجة حضورها في البلاغة العربية، كما أنها قد تتداخل وتتشابك فيما بينها، وفي ذلك يقول: «للبلاغة العربية، إذن، مهدان كبيران، أنتجا مسارين كبيرين: مسار البديع يُغذي الشعر، ومسار البيان تُغذي الخطابة، ونظرا للتداخل الكبير بين الشعر و الخطابة في التراث العربي، فقد ظلّ المساران مُتداخِلَيْن ومُلتبِسَيْن»² .

وعليه، يمكن إجمال المفاهيم الكبرى للبلاغة في الثقافة العربية، على النحو التالي :



المخطط رقم 02: تيارات البلاغة العربية

وإذا ما جئنا إلى التقاطعات المعرفية لمفهوم البلاغة بين الثقافتين العربية والغربية - وإن كانت لكل ثقافة خصوصياتها-، فنجملها في الجدول* التالي:

الثقافة الغربية	الثقافة العربية	نوع البلاغة (مجالها)
التوجه المنطقي	تيار البيان	الحجاج والإقناع
التوجه الأسلوبي الأدبي	تيار البديع	التخييل والتحسين
التوجه الخطابي	تيار البلاغة العامة	الحجاج والتخييل

الجدول رقم 01: التقاطعات المعرفية بين تيارات البلاغتين العربية والغربية

¹ محمد مشبال، البلاغة والأصول دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي - نموذج ابن جني، ص: 09.

² محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص: 29.

*الجدول من تصور الباحث؛ قد يشمل الصواب أو الخطأ.

خلاصة لما سبق ذكره، يمكن القول: إنّ هذه البلاغات، وإن تباينت وتنوعت آلياتها وتقنياتها، إلّا أنّها تظل متجاورة ومتتالية، تُكَمِّل بعضها البعض.

ثانياً - البلاغة الجديدة (La Nouvelle Rhétorique):

ظهر هذا المصطلح مع "شايم بيرلمان" من خلال مصنّفه المشترك مع "تيتيكا" - كما أشرنا سابقاً -، حيث نشأت هذه البلاغة في حُضن البلاغة الأرسطية واستمدّت بعض مفاهيمها، لكنّ بحلّة جديدة، فلم تُعَد تقتصر على الصور المجازية أو الخطاب الأدبي فقط¹، وإنّما شملت خطابات غير أدبية أيضاً، كالخطاب السياسي والفلسفي والإعلامي، وغيرها، وركّزت على الأبعاد والتقنيات الحجاجية لتلك الخطابات، فهي إذن؛ بلاغة تهدف إلى «دراسة الأدوات الخطابية التي تسمح ببعث أو زيادة استمالة الأذهان إلى الدعاوى التي تُقدّم للموافقة عليها»²، فالبلاغة الجديدة بهذا المعنى؛ هي بلاغة حجاجية تسعى إلى إثارة النفوس وكسب العقول عبر عرض الحجج³ مهما كان نوع الخطاب، فمثلاً «وصف الخطيب السياسي بالبليغ، ليس المقصود به وصف قدرته التعبيرية والبيانية من حُسن اختيار الألفاظ وابتداع المجازات والتراكيب وخلق الإيقاع وغيرها من مظاهر بيانية التعبير، ولكن المقصود به وصف قدرته على التأثير في مخاطبيه الذين يتوجه إليهم»⁴.

ومنه نستنتج أنّ البلاغة الجديدة ماهي إلّا بلاغة أرسطية جديدة وموسّعة غيّرت جلدّها لتشمل مختلف أنواع الخطاب (Types de Discours)، وهذا ما يُبرهن ويؤكّد على انفتاح البلاغة

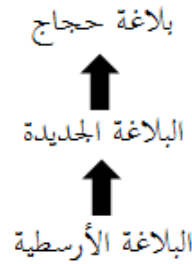
¹ ينظر: توبي لحسن، الحجاج والمواطنة _ من المعرفة الأكاديمية إلى ترسيخ القيم الديمقراطية _، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2014م، ص: 59.

² شايم بيرلمان، لوسي أولبرخت تيتيكا، المصنّف في الحجاج _ الخطابة الجديدة _، تر: محمد الولي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2023م، ص: 47.

³ ينظر: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2014م، ص: 29. وينظر أيضاً: صابر الحباشة، التداولية والحجاج _ مداخل ونصوص _، الناشر: صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2008م، ص: 15.

⁴ محمد مشبال، محاضرات في البلاغة الجديدة، دار الرافدين، بيروت، لبنان، ط1، 2021م، ص: 14 - 15.

وحيويتها، ودوام استمراريتها، لأنّ البلاغة -بصفة عامة- يمكن لها أن «تُغيّر جلدّها، ولكنّها لا تختفي إلّا لتظهر في لباس جديد»¹.



ثالثا- البلاغة والحجاج:

إذا كنّا توصلنا سابقا إلى استنتاج مفاده؛ أنّ البلاغة الجديدة بلاغة حجاج، فإنّنا في هذا المبحث، نقف عند حدود العلاقة التي تجمع بين البلاغة (خاصة البلاغة الجديدة) والحجاج، فهل كلّ بلاغة حجاج؟ أم كلّ حجاج بلاغة؟ وهل يوجد حجاج بدون بلاغة، أو بلاغة دون حجاج؟ أو كما يقول "أوليفي روبول (Oliver Reboul)"، في تساؤله: «هل يُمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟»².

هي أسئلة مكمّن الإجابة عنها، سنحدّده حسب وجهات نظر الباحثين المختلفة في النقاط التالية :

1- علاقة ترادف: تدل هذه العلاقة على أنّ استعمال مصطلح البلاغة يحمل نفس دلالات استعمال مصطلح الحجاج، وكأثّهما واحد، فبعض الباحثين - كما ذكر "فيليب بروتون" (Philippe Breton) و"جيل جوتييه" (Gilles Gauthier)، في كتابهما المشترك (تاريخ نظريات الحجاج) -، يعتقدون أنّ «الحجاج والبلاغة يظهران وكأثّهما مترادفان، بحيث يُمكن إحلال أحدهما مكان الآخر»³، وعلى رأسهم "شايم بيرلمان" الذي اعتبر البلاغة مطابقة لنظرية الحجاج⁴.

¹ محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ و القراءة _دراسات وحوارات_، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2013م، ص: 17.

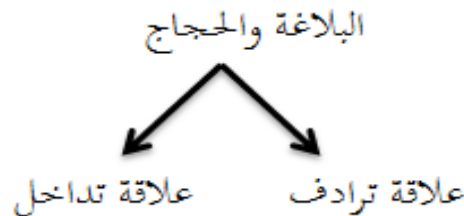
² أوليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟، تر: محمد العمري، ضمن كتابه: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 213.

³ فيليب بروتون، جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناحي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، السعودية، ط1، 1432هـ - 2011م، ص: 15.

⁴ ينظر: محمد سالم الأمين الطلبة، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع: 03، جانفي 2000، ص: 57.

2- علاقة تداخل: قد عُدت العلاقة بينهما من قبيل الحتمي المتداخل، لأنّ أحدهما يُكَمِّل الآخر، فقد يكون «الحجاج هو عمود البلاغة»¹، فتتخذ باعباره أهمّ رافد من روافدها؛ ذلك أنّ المظهر الحجاجي (L'aspect Argumentative) يظلّ من أبرز خصائص الفكر البلاغي، ومن جهة أخرى يُسمح للحجاج بأن يتخذ البلاغة كأداة من الأدوات الحجاجية، فيستعملها المحاجج للتأثير والاستمالة عن طريق الصور البيانية والأساليب الجمالية²، وبعبارة أخرى؛ فإنّ وراء كلّ حجاج بلاغة والعكس صحيح³.

عموما، يمكن القول: إنّ العلاقة بينهما وطيدة يصعب حصرها في ترادف أو تداخل، أو تحديدها بدقّة، لما لهما من خصوصيات وتقاطعات مشتركة، ونُجمل ماسبق ذكره في:



رابعا-المقاربة الحجاجية الخطابية (L'approche Argumentatives des Discours):

لما كانت المقاربة الحجاجية لخطاب الوصايا هي مَسعى بحثنا، ارتأينا في هذا المقام الوقوف على تحديد مفهوم هذا النوع من المقاربات، إذ تُعرّف بأنّها تلك المقاربة «التي تحاول دراسة الملفوظات اللغوية والنصوص والخطابات كيفما كان نوعها في ضوء مجموعة من النظريات الحجاجية والتداولية، من خلال ربط الأقوال المتلفظة بمقامها السياقي والمقصدي والحجاجي»⁴، أي؛ هي مقاربة تدرس

¹ محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 50.

² ينظر: محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة _ بحث في بلاغة النقد المعاصر، ص: 11. وينظر أيضا: مثنى كاظم صادق، أسلوبيّة الحجاج التداولي والبلاغي _ تنظير وتطبيق على السور المكية، دار كلمة للنشر والتوزيع، تونس، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 1436هـ - 2015م، ص: 47.

³ ينظر: حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي _ عناصر استقصاء نظري، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ع: 01، جويلية 2001م، ص: 110.

⁴ جميل حمداوي، بلال داوود، كيف تقارب النص الأدبي في ضوء المقاربة الحجاجية؟، سلسلة دراسات أكاديمية، المركز المتوسطي للدراسات والأبحاث، طنجة، المغرب، ط1، 2023م، ص: 05.

الخطاب - مهما كان نوعه-، وتُحلّله في ضوء الوظائف الحجاجية والتداولية، وغيرها، ضمن سياق معيّن، كما تُركّز على الأبعاد التأثيرية والتبليغية والتواصلية التي يروم المحاطب تحقيقها من خلال خطابه، ذلك أنّ « الخطاب يستمدّ قيمته من قيمة صاحبه، وتأثيره في السامعين من تأثير صورته فيهم»¹، دون أن ننسى أهواء المتلقي وانفعالاته، وكذلك ما يستوعبه الخطاب من صور بلاغية وأسلوبية، بوصفها جزءاً من الحجج، فيتداخل بذلك الحجاج مع البلاغة - كما أشرنا سابقاً-، وهو ما يُعرف بالمقاربة البلاغية الحجاجية.

في هذا الصدد يقول "محمد مشبال": «لا يقتصر التحليل البلاغي في ضوء هذه المقاربات على رصد التقنيات الحجاجية العقلية (اللوجوس) فقط، بل يستوعب أيضاً الحجج التي تعكس صورة المتكلّم وترجم أخلاقه وكفاءاته، على نحو ما تستوعب الحجج التي تعكس صورة المتلقي وترجم أهواءه ونوازعه. وفي خطوة ثالثة قد تلجأ هذه المقاربات إلى تحليل بناء النص لما يضطلع به الترتيب الذي خضع له من وظائف بلاغية كتحليل استهلالات النصوص واختتاماتها. وفي خطوة رابعة ينتقل المحلّل البلاغي إلى تحليل المرحلة الأخيرة من مراحل تشكيل النص في التصور البلاغي القديم، وهي مرحلة الصياغة الأسلوبية، في هذه الخطوة يعتمد المحلّل إلى استخراج الوجوه البلاغية بوصفها جزءاً مندمجاً في النسيج الحجاجي للنص»²، أي؛ إنّ مُحلّل الخطاب في إطار هذه المقاربة، يجمع ويُركّز على كلّ أركان العملية التخاطبية من مخاطب ومخاطب وخطاب، والسياق الذي يحكم ذلك الخطاب، ثمّ ينتقل إلى رصد التقنيات الحجاجية لدى كلّ طرف، ومن ثمّ يعتمد المحلّل إلى استخراج الصور البلاغية والأسلوبية التي استخدمت داخل النسيج الحجاجي للنص (أو الخطاب)، فيقف على مكن حجاجيتها وتأثيرها.

¹ محمد مشبال، في بلاغة الحجاج - نحو مقارنة حجاجية لتحليل الخطابات -، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2017م، ص: 169.

² محمد مشبال، بلاغة النص التراثي - مقارنة بلاغية حجاجية -، (مؤلف جماعي)، إشراف: محمد مشبال، دار العين للنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2013م، ص: 12.

وفي موضع آخر، يرى "محمد مشبال" أنّ تحليل الخطابات والنصوص لا يكاد يخرج عن:¹

- ربط النص بالسياق التواصلّي (الإطار النوعي والغرض البلاغي).
- رصد الحجج (الإيطوس واللوجوس والباطوس).
- رصد الوجوه الأسلوبية وإبراز وظيفتها.

خامسا- التداولية (Pragmatique):

لا ينكر أيّ باحث اليوم، أنّ العَوص في غمار نظرية من النظريات المعاصرة، ليس بالأمر اليسير، لكونه يتطلب البحث في أصول تلك النظرية ونشأتها وموضوعاتها... إلخ، ولما كانت التداولية* من أحدث نظريات الدرس اللساني المعاصر، التي أثارت اهتمام الباحثين الغرب بدرجة خاصة، عكفنا في هذا المبحث إلى الإشارة لمفهوم التداولية وأهمّ موضوعاتها، التي تخدم غرضنا من هذه الدراسة، دون الخوض في استعراض نشأة التداولية وأصولها.

1-رؤيا في المفهوم: قبل التطرق إلى مفهوم التداولية، نشير -بإيجاز- إلى أنّ أصول التداولية ومصادرها التي انبثقت منها متعددة ومتنوعة، أهمّها: (الفلسفة التحليلية² Analytic Philosophy)، التي تُعتبر الحاضن الأساسي والمصدر المعرفي الأول في ظهورها، وفي ذلك يقول "مسعود صحراوي": «الفلسفة التحليلية هي ينبوع المعرفة لأول مفهوم تداولي وهو الأفعال الكلامية»³. أمّا بالنسبة لأول استعمال للمصطلح فقد ظهر مع الفيلسوف "تشارلز موريس" (Charles Morris)، سنة (1938م)، حين اعتبر التداولية جزءاً من السيميائية⁴ (Sémiotique)، فهي -في نظره- تعالج العلاقة بين العلامات

¹ ينظر: م س، ص: 12.

*خصّصنا مبحثاً مستقلاً للتداولية وموضوعاتها، لاعتبار واحد؛ تمثّل في محاولة منّا لتطبيق المقاربة التداولية (L'approche Pragmatique)، على النموذج التطبيقي، دون الاختصار على المقاربة الحجاجية فقط.

² لتعميق النظر في الفلسفة التحليلية، انظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب -دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي-، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص: 17-24.

³ م ن، ص: 17.

⁴ ينظر: آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدّين دغفوس، محمد الشّيباني، مرا: لطفي زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص: 29.

ومستعملي هذه العلامات¹، أي؛ إنَّها لا تقتصر على اللسانيات (Linguistique) فقط، بل تشمل السيميائ أيضا.

وإذا ما عُدنا إلى تحديد مفهوم التداولية، فإنَّ أول إشكال يعترضنا هو تعدد التسميات * العربية المقابلة للمصطلح الأجنبي (Pragmatique)، فقد قيل: البراغماتية، والبراجماتيك، والمقامية، والوظيفية، والذرائعية، والنفعية، وغيرها².

من بين مفاهيمها، نذكر:

أ- هي علم جديد للتواصل يدرس اللغة في مجال الاستعمال.³

ب- هي «دراسة اللغة في سياقاتها الواقعية، لا في حدودها المعجمية، أو تراكيبها النحوية، هي دراسة الكلمات والعبارات والجمل، كما نستعملها، ونفهمها ونقصد بها، في ظروف ومواقف معيّنة»⁴.

بناءً على ما سبق، نستنتج أنَّ المفهوم العام للتداولية ينحصر حول دراسة اللغة أثناء الاستعمال ضمن سياقات معيّنة، ومُثَّل لذلك بـ:

التداولية تدرس ← اللغة ← أثناء الاستعمال ← ضمن السياق.

➤ درجات التداولية:

تنقسم التداولية إلى ثلاث درجات، هي:⁵

¹ ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986م، دط، دت، ص: 08.

* في حين استعمل "طه عبد الرحمن" مصطلح (التداوليات). انظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000م، ص: 28.

² ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009م، ص: 65.

³ ينظر: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة، مصر، دط، 2002م، ص: 14. وينظر أيضا: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب _دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي_، ص: 16.

⁴ بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1431هـ - 2010م، ص: 18.

⁵ ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص: 38.

- تداولية الدرجة الأولى: تتمثل في دراسة الرموز الإشارية، أي؛ العبارات الغامضة نسقيا. وسياق هذه التداولية هو سياق خاص؛ يتمثل في السياق الوجودي أو الإحالي، (حسب سياق التلفظ).
- تداولية الدرجة الثانية: تدرس هذه التداولية الطريقة التي تتصل فيها القضية المعبر عنها بالجملة المنطوقة في مختلف الحالات العامة، والسياق الذي يُؤطر هذه التداولية؛ هو سياق معلومات ومعتقدات مشتركة.
- تداولية الدرجة الثالثة: تتمثل في نظرية أفعال الكلام، والسياق في هذه الدرجة هو الذي يُحدّد ما إذا كان الملفوظ جادًا، وليس مزحًا.

➤ مميزات التداولية:

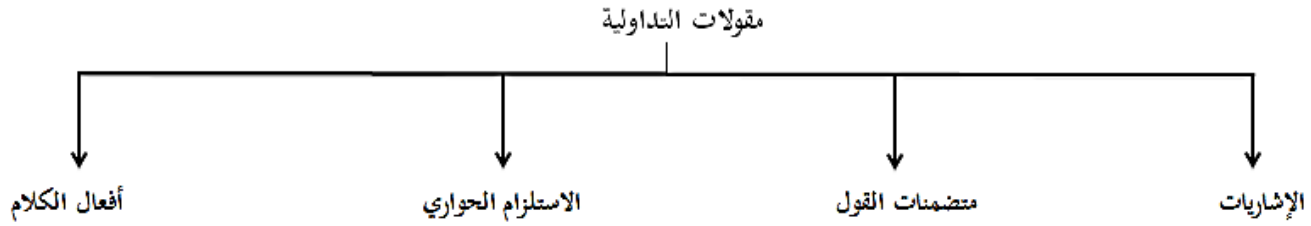
- تتميز التداولية عن غيرها من النظريات المعاصرة بخصائص وسمات جعلتها «علما متناميا، ومجالا رجراجا شديد الانفتاح»¹.
- ومن بين تلك الميزات، نذكر:²
- 1-التداولية هي لسانيات الاستعمال اللغوي، وموضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي.
 - 2- ليس للتداولية وحدات تحليل خاصة بها، ولا موضوعات مترابطة.
 - 3- تدرس اللغة من وجهة وظيفية عامة؛ معرفية (Cognitive)، واجتماعية (Social)، وثقافية (Cultural).
 - 4- تُعدّ نقطة التقاء مجالات العلوم ذات الصلة باللغة، بوصفها وصلة بينها.

2- موضوعات التداولية:

اتّسعت دائرة التداولية لتشمل موضوعات ومقولات ومفاهيم مختلفة في دراستها للغة، أهمها:

¹ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007م، ص: 05.

² ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 14 - 15.



المخطط رقم 03: موضوعات التداولية

2-1- الإشارات (Deixis):

يُمكن اعتبار الإشارات مفهوماً أو مكوناً لسانياً يجمع كلّ العناصر اللغوية التي تُحِيل مباشرة على المقام، وترتبط دلالتها بسياق التلفظ¹ (Contexte Enonciation)، مثل: أسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، والضمائر، وغيرها، ولا معنى أو دلالة لها في العناصر الإشارية في ذاتها، أو بمعزل عن السياق، كما أنّ التلفظ بالخطاب لا يتحقق بدون هذه الأدوات الإشارية. وتُقسّم الإشارات إلى خمسة أنواع*، هي:²

أ- الإشارات الشخصية (Personal Deixis): هي العناصر الإشارية الدالة على المتكلم أو المخاطب أو الغائب، أي الدالة على شخص (Person)، وتشمل جميع الضمائر، كالضمائر الدالة على المتكلم مثل (أنا)، أو المتكلم ومعه غيره، مثل (نحن)، أو الضمائر الدالة على المخاطب مفرداً أو مثنى أو جمعاً، مذكراً أو مؤنثاً، وغير ذلك بكثير، ومرجعها لا يتحدد إلا داخل سياق معيّن تستخدم فيه..

¹ ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1993م، ص: 116. وينظر أيضاً: يوسف السيساوي، الإشارات - مقارنة تداولية -، ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة، تن: حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2014م، ص: 441.

* أمّا "جورج يول" يُقسّم الإشارات إلى ثلاثة أقسام هي: الإشارات الشخصية، الإشارات الزمانية، الإشارات المكانية. ينظر: جورج يول، التداولية، تر: قصي العتايي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1431هـ - 2010م، ص: 27. والحال نفسه مع "باتريك شارودو" و "دومنيك منغنو"، إذ قسّم الإشارات إلى إشارات: شخصية وزمانية ومكانية. ينظر: باتريك شارودو، دومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، مرا: صلاح الدين الشريف، المركز الوطني للترجمة، تونس، منشورات دار سيناترا، تونس، 2008م، ص: 156.

² ينظر: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 17 - 26. وينظر أيضاً: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية -، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص:

ب-الإشارات الزمانية (Temporal Deixis): يرتبط هذا النوع من الإشارات بلحظة التلفظ، أي زمان التكلم الذي يُحدده السياق، فإذا لم يُعرف زمان التكلم الذي قيلت فيه هذه العناصر الإشارية، التبس الأمر على السامع أو القارئ، ومن أمثلتها (أمس، يوم، شهر، ساعة، أسبوع...إلخ).
كقولنا مثلاً :

- يا صديقي سنذهب بعد ساعة إلى الملعب .

إنّ زمن التلفظ بهذا القول وسياقه، هو الذي يُحدّد المقصود، وبه يستطيع المرسل إليه أن يتنبأ بالوقت الذي سيذهبان إليه - المرسل والمرسل إليه- إلى الملعب، فقد تكون لحظة التكلم حينئذ، حدثت قبل ربع ساعة، أو نصف ساعة.

ج- الإشارات المكانية (Spatial Deixis): هي عناصر إشارية إلى أماكن يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع، ذلك أنّ المرسل لا يكاد ينفكّ عن المكان عند تلفظه بالخطاب، وهذا ما يُعطي للإشارات المكانية مشروعية إسهامها في الخطاب، ومن هذه الإشارات؛ (هذا، ذاك، هنا، هناك، ظروف المكان...إلخ)، وكلّها عناصر إشارية يُشار بها إلى مكان لا يتحدد إلّا بمعرفة موقع المتكلم واتجاهه والسياق الذي قيلت فيه. فإذا قلنا مثلاً:

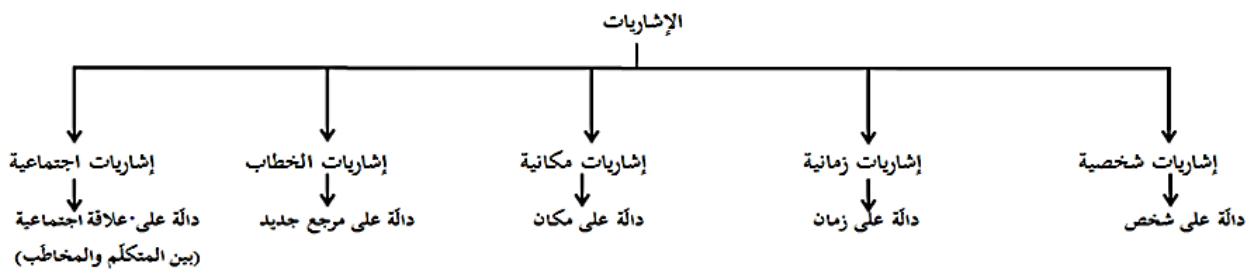
- سأضع الطاولة هنا.

يتضح لنا من الملفوظ، أنّ العنصر الإشاري (هنا)، لا يُمكن تحديده وتفسيره إلّا بمعرفة المكان الذي يقصد المتكلم الإشارة إليه، فقد يكون المتكلم قاصداً: مكان عمله، أو منزله، أو غير ذلك من الأماكن .

د- إشارات الخطاب (Discours Deixis): هذا النوع من الإشارات قد يلتبس بالإحالة إلى سابق أو لاحق، ولذلك أسقطها بعض الباحثين من الإشارات، ولكنّ منهم من ميّز بين النوعين؛ فرأى أنّ الإحالة يتحدّد فيها المرجع بين ضمير الإحالة وما يُحيل إليه، ومثال ذلك (زيد كريم وهو ابن كرام أيضاً)، فالمرجع الذي يعود إليه (زيد والضمير: هو) واحد، أمّا إشارات الخطاب فهي لا تُحيل إلى

ذات المرجع، بل تخلق المرجع، ومن عناصرها (بل، لكن، فضلا عن ذلك، من ثم...)، ومثال ذلك: شخص يروي قصة، ثم يتذكر قصة أخرى تُشير إليها، فإنه يتوقف قائلا: (لكن تلك قصة أخرى)، فالإشارة في هذا الموضع تمثلت في مرجع جديد.

هـ- الإشارات الاجتماعية (Social Deixis): هي ألفاظ وتراكيب تُشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين من حيث هي علاقة ألفة ومودة، مثل: التحيات (صباح الفلّ، صباح العسل...)، أو من حيث هي علاقة رسمية؛ كصيغ التبجيل في مخاطبة من هم أكبر سنًا ومقاما كاستخدام: (الضمير "أنتم" للمفرد المخاطب)، أو كالألقاب، مثل: (فخامة الرئيس، جلالة الملك، فضيلة الشيخ)، كما تشمل أيضا بعض الألفاظ، من قبيل: (السيد، السيّد، حضرتك، سيادتك، سعادتك...).



المخطط رقم 04: أنواع الإشارات

2-2- متضمنات القول (Les Implicites):

هي «مفهوم تداولي إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية، وخفية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره»¹، أي؛ إنّ هذه المتضمنات ترصد وتتبع الجوانب الضمنية للخطابات - غير الظاهرة والمصرّح بها-، والتي لا تُفهم إلّا من خلال سياقات معيّنة كسياق الحال وغيره، وتتشكّل متضمنات القول من عدّة أنماط، أهمها: الافتراض المسبق، والأقوال المضمرة.

¹ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب - دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي-، ص: 30.

أ- الافتراض المسبق (Presupposition): هو ما يفترض المتكلم صحته وصدقه قبل التفوه بالكلام، ويُعامل على أنه علاقة بين قضيتين، فإذا رمزنا للافتراض المسبق بالرمز (<) ، والقضية الأولى (س)، والثانية (ص)؛ فإن العلاقة تكون: س < ص¹.

مثال ذلك: إذا قال رجل لآخر: أغلق النافذة، فالمفترض سلفاً أن النافذة مفتوحة، وأنّ هناك مبرراً يدعو إلى إغلاقها، وأنّ المخاطب قادر على الحركة، وأنّ المتكلم في منزلة الأمر، وكلّ ذلك مرتبط بسياق الحال، وعلاقة المتكلم بالمخاطب².

-إذا طبّقنا القاعدة السابقة (س < ص) على المثال المذكور، يُصبح لدينا:

• (أ): أغلق النافذة (=س) < (ب): النافذة مفتوحة (=ص)

ب- الأقوال المضمرة (Les Sous - Entendus): هي النمط الثاني من متضمنات القول، ترتبط بوضعية الخطاب ومقامه على عكس الافتراض المسبق الذي يُحدّد على أساس معطيات لغوية³، وفي هذا الصدد ترى "أوركيني" (Orecchéoni) أنّ القول المضمّر هو «كتلة المعلومات التي يُمكن للخطاب أن يحتويها، ولكنّ تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث»⁴.

لتوضيح هذا القول، نضرب المثال التالي:

• عمر متهاون بعض الشيء .

نفهم من خلال المثال، قولاً مضمراً مؤداه: عمر كسول، أمّا سياق الحديث، فيمكن تقديره مثلاً؛ بشيءٍ طُلب من عمر فعله، لكنّه تكاسل وتهاون عليه، ولم يُنجزه في وقته.

¹ ينظر: جورج يول، التداولية، تر: قصي العتاي، ص: 51. وينظر أيضاً: هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، الافتراض المسبق بين اللسانيات الحديثة والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2021م، ص: 27.

² ينظر: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 26.

³ ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب _دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي_، ص: 32.

⁴ Catherine Kerbrat- Orecchéoni, L'implicite, Armand Colin, Paris, France, 1986, P:39.

2-3- الاستلزام الحواري (Conversational Implicature):

يُعدّ الاستلزام الحواري* من أهمّ المفاهيم التداولية، التي تعود أصول نشأتها إلى المحاضرات التي ألقاها "بول غرايس" (Paul Graice)، في جامعة (هارفرد، سنة 1967)، بعنوان "المنطق والتخاطب"، ومحاضرات بعنوان "الافتراض المسبق والاقتضاء التخاطبي" سنة (1971)¹. وكانت نقطة الانطلاق عند "جرايس" في تحديده لمفهوم الاستلزام الحواري هي أنّ «الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر ممّا يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون»²، أي؛ إنّ الناس في حواراتهم لا يقصدون دائماً المعاني الظاهرة الصريحة (Explicite Meaning)، بل هناك معاني خفية متضمنة في الأقوال (Inexplicit Meaning)، يسعى المتكلمون إلى إيصالها للسامعين، حينها تنشأ فكرة الاستلزام (Implicature)³.

➤ مبدأ التعاون وقواعده (Cooperative Principle):

هو مبدأ حوارى عام يحكم التواصل الكلامي⁴، بلوره "جرايس" ووضع له قواعد فرعية (Maxims)، هي:⁵

1- قاعدة الكمّ (Quantity): تتعلق بكمية المعلومات التي يجب الالتزام بها في التخاطب، وتتفرع إلى مقولتين:

* تعددت الترجمات العربية للمصطلح، منها : ترجمة "عادل فاخوري" ب: (الاقتضاء). ينظر: عادل فاخوري، الاقتضاء في التداول اللساني، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، مج: 20، ع: 03، 1989م، ص: 141. وترجمة "هشام إبراهيم عبد الله الخليفة" ب: (التلويح أو التعريض). ينظر: هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، نظرية التلويح الحوارية _ بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي _، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، مصر، ط1، 2013م، ص: 08¹ ينظر: صلاح إسماعيل، النظرية القصصية في المعنى عند جرايس، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، الحولية 25، 2005م، ص: 18.

² محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 33.

³ ينظر: م ن، ص: 33.

⁴ ينظر: م ن، ص: 34.

⁵ تمّ الاطلاع في ذلك على: جيوفري ليتش، مبادئ التداولية، تر: عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2013م، ص: 17 - 18. و: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 34. و: مسعود صحرأوي، التداولية عند العلماء العرب، ص: 33 - 34.

• اجعل مشاركتك تُفيد القدر المطلوب من الإخبار، دون زيادة أو نقصان.

• لا تجعل إسهامك أكثر مما هو مطلوب.

2- قاعدة الكيف (Quality): تتفرع إلى مقولتين :

• لا تقل ما تعتقد أنه كاذب.

• لا تقل ما لا تستطيع البرهنة عليه.

3- قاعدة المناسبة أو الملاءمة (Relevance): نصّها:

• اجعل مشاركتك ذات صلة وعلاقة مناسبة بالموضوع.

4- قاعدة الطريقة أو الجهة (Manner): تنصّ على الوضوح في الكلام، وتتفرع إلى قواعد فرعية، هي:

• تجنّب الإبهام في التعبير.

• تجنّب الغموض.

• كنّ موجزا.

• رتّب كلامك .

ومنه نستنتج أنّ هذه القواعد التي أقرّها "جرايس" بمثابة مبادئ عامة تضمن سلامة الخطاب،

وتحقق التعاون بين المتكلّم والمخاطب حتى يصل إلى حوار ناجح وفعل.

ولتوضيح تلك القواعد بشكل جليّ، نضرب المثال التالي:

أ- أين المستندات؟

ب- في المكتب.

من خلال هذا الحوار القصير، يظهر لنا أنّه شمل كافة القواعد السابقة، فإجابة (ب) كانت

إجابة واضحة (قاعدة الطريقة)، واستخدمت من الكلمات القدر الكافي دون زيادة أو نقصان

(قاعدة الكم)، وكانت صادقة في ذلك (قاعدة الكيف)، كما أنّها لم تخرج عن إطار السؤال، وكانت

ذات صلة به (قاعدة المناسبة).

ويرى "جرايس" من جهة أخرى، أنّ انتهاك أو خرق (Flouting) إحدى القواعد السابقة، هو الذي يؤلّد الاستلزام¹، ومن الأمثلة على ذلك، الحوار التالي:²

• في حوار بين رجلين :

أ- ماذا تريد؟

ب- قمّ، واتّجه إلى الباب، وضّع المفتاح في القفل، ثمّ أدِرْه ناحية اليسار ثلاث مرّات، ثمّ ادفع الباب برفق.

فالواضح أنّ ما قاله (ب) هو انتهاك لمقولة من مقولات قاعدة الطريقة، وهي (الإيجاز)، إذ كان يكفي أن يقال: افتح الباب.

➤ خصائص الاستلزام الحوارية عند جرايس:

يتّصف الاستلزام الحوارية بخصائص تُميّزه عن غيره، أهمّها:³

1/ الاستلزام قابل للإلغاء (Defeasible): يكون ذلك عادة بإضافة قول يسدّ الطريق أمام الاستلزام أو يحول دونه، فإذا قالت قارئة لكاتب مثلاً:

- لم أقرأ كلّ كُتُبِكَ.

فقد يستلزم ذلك أنّها قرأت بعضها، لكنّ إذا أعقبت كلامها بقولها: الحقّ أنّي لم أقرأ أيّ كتاب منها، ففي هذه الحالة، فقد ألغت الاستلزام.

2/ الاستلزام لا يقبل الانفصال عن المحتوى الدلالي (Non-Detachable): يقصد "جرايس" بذلك أنّ الاستلزام الحوارية مُتّصل بالمعنى الدلالي لما يقال، لا بالصيغة اللغوية التي قيل بها، ومثال ذلك :

أ- لا أريدك أن تتسللي إلى غرفتي على هذا النحو.

ب- أنا لا أتسلل، ولكن أمشي على أطراف أصابعي، خشية أن أحدث ضوضاء.

¹ ينظر: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 35. وينظر أيضاً: مسعود صحراوي، التداولية عند

العلماء العرب _دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي_، ص: 34.

² ينظر: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 37.

³ ينظر: م ن، ص: 38-40.

نلاحظ أنّه على الرغم من تَغْيِير الصياغة اللغوية والتعبيرية في القول (ب)، إلّا أنّ ما استلزمه القول من دلالات على عدم الرضا عن هذا السلوك - التسلل إلى الغرفة - لا يزال قائماً.

3/ الاستلزام مُتَغَيِّر: المقصود بالتَغْيِير، أنّ التعبير الواحد يمكن أن يؤدي إلى استلزامات مختلفة في سياقات مختلفة، فإذا سألت - مثلاً - طفلاً يحتفل بعيد ميلاده: كم عمرك؟، فهو طلبٌ للعلم عن سنّه، لكنّ إذا سألت السؤال نفسه لصبيٍّ عُمره خمسة عشر عاماً، فقد يستلزم ذلك مؤاخذه له على نوع من السلوك لا ترضاه له.

4/ الاستلزام يُمكن تقديره (Calculability): المراد به، أنّ المخاطب يقوم بخطوات محسوسة يتجه بها خطوة خطوة للوصول إلى ما يستلزمه الكلام، فإذا قيل مثلاً: الملكة فكتوريا صُنعت من حديد، فإنّ القرينة هنا تُبعد السامع عن قبول المعنى اللفظي، فيبحث عمّا وراء الكلام من معنى ويُقدّر حتى يفهم المعنى الحقيقي لذلك التعبير الحرفي.

2-4- أفعال الكلام (Speech Acts):

تندرج نظرية أفعال الكلام ضمن تداولية الدرجة الثالثة - كما أشرنا سابقاً-، حيث حظيت باهتمام كبير من طرف الدارسين، نظير عنايتها بمقاصد المتكلّم ونواياه، إذ لا نكاد نجد كلاماً أو تعبيراً بدون قصدية (Intentionality)، وفي ذلك يقول "محمد مفتاح": «لكلّ كلام مقصدية تُكسب الكلام دينامية وحركية، بل هي منطلق الدينامية»¹ وبها يتحقق الفعل الكلامي، ومن رواد هذه النظرية: "أوستين" (Austin)، و"سيرل" (Searle).

أ- الأفعال الكلامية عند أوستين:

سعى "أوستين" من خلال نظريته إلى «إعادة تنظيم منطق اللغة الطبيعية على ضوء الدراسات اللسانية المعاصرة»²، وتجاوز الطرح الأرسطي، فميّز:

¹ محمد مفتاح، دينامية النص - تنظير وإنجاز -، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1990م، ص: 39.

² أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة - كيف ننجز الأشياء بالكلام-، تر: عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، 1991م، ص:

- أولاً: بين نوعين من الأفعال الكلامية، هي:¹

1- الأفعال الإخبارية (Constative): هي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون إما صادقة أو كاذبة.

2- الأفعال الأدائية (Performative): هي أفعال تنجز في ظروف ملائمة، ولا تُوصف بالصدق أو الكذب، بل تكون في نظره موفقة أو غير موفقة، وتدخل فيها: التسمية، الوصية، الاعتذار، النصيحة، الوعد... إلخ.

وعليه، يمكن القول إنّ هذا التقسيم اعتمده "أوستين" على أساس :

- الصدق والكذب (الوصف).

- أداء الفعل وقوّته الإنجازية (الإنجاز).

- ثانياً: تراجع "أوستين" عن تقسيمه الأول، وانتقده، ورأى أنّ الفعل الكلامي، هو «كلّ ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري»²، وقسمه إلى ثلاثة أقسام، هي:³

1- فعل القول أو الفعل التلفظي (Locutionary Act): هو فعل يتضمن إنجاز ثلاثة أفعال هي: (الفعل الصوتي، الفعل التركيبي، الفعل الدلالي)، وبعبارة أخرى، هو العمل الذي يتحقق ما إن نتلفظ بقول ما، فإذا قلّت مثلاً: (إنّها ستُمطر)، فقد يُفهم معنى الجملة، لكن لا ندري؛ أهي: إخبار، أم تحذير وتنبيه، أم أمر بحمل مظلة... إلخ.

2- الفعل المتضمن في القول أو الفعل الإنجازي (Illocutionary Act): هو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي، أي القصد الذي يرمي إليه المتكلم، ويشمل الجانب التبليغي، ومن أمثلة هذا الفعل: الوعد، الأمر، الاستفهام... إلخ.

¹ ينظر: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 43 - 44.

² مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب _دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي_، ص: 40.

³ تمّ الاطلاع في ذلك على: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 45 - 46. و: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص: 41 - 42. و: جواد ختام، التداولية أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 1437هـ - 2016م، ص: 90.

3- الفعل الناتج عن القول أو الفعل التأثيري (Perlocutionary Act): يُقصد به الأثر الذي يُحدثه الفعل الإنجازي في السامع، أي هو مجموع الآثار التي يتركها على أفكار المتلقي ومشاعره، كإقناعه أو ردعه، أو تضليله... إلخ.

- ثالثاً: انطلاقاً من التصنيف الثاني - وخاصة الفعل الإنجازي - قدّم "أوستين" تصنيفاً جديداً للأفعال الكلامية على أساس قوّتها الإنجازية (Force Illocutoire)، تتمثل في¹:

1- الحكميات أو أفعال الأحكام (Verdictives): هي الأفعال التي تتمثل في إصدار حكم، مثل: التبرئة، الإدانة ...

2- التنفيذيات أو أفعال القرارات (Exercitive): تتمثل في اتخاذ قرار بعينه؛ كالطرد، التعيين...

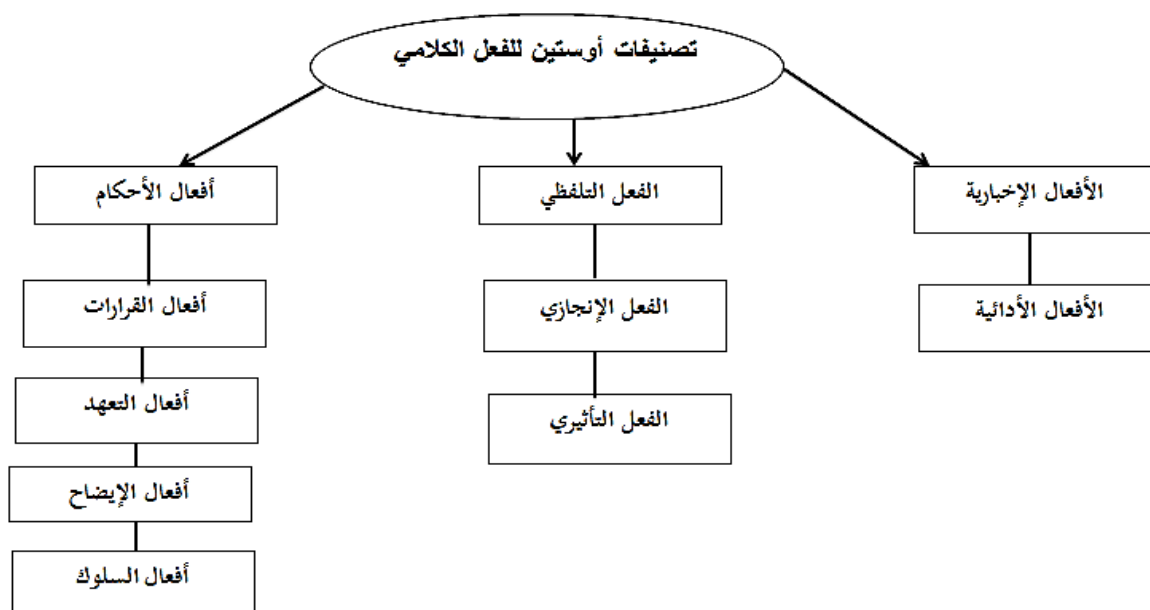
3- الوعديات أو أفعال التعهد (Commissives): هي الأفعال التي يلتزم فيها المتكلم بفعل شيء؛ كالوعد، القسم ...

4- العرضيات أو أفعال الإيضاح (Expositives): تُستخدم لإيضاح وجهة نظر، أو بيان رأي؛ كالاقتراض، الإنكار، الموافقة، التصويب...

5- السلوكيات أو أفعال السلوك (Behabitives): تكون ردّ فعل لحدث ما؛ كالاعتذار، الشكر، المواساة ...

رُكّحاً على ماسلف، نُوجز تصنيفات "أوستين" للفعل الكلامي في الخطاطة التالية:

¹ ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص: 62 - 63. وينظر أيضاً: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 46.



المخطط رقم 05: تصنيفات أوستين للفعل الكلامي

ب - الأفعال الكلامية عند سيرل: استطاع "سيرل" (Searle) أن يواصل البناء والتأسيس لنظرية أفعال الكلام، وإعادة صياغتها وتوسيعها على ما كانت عليه مع "أوستين"، فأضاف في تصنيفه للأفعال الكلامية فعلاً رابعاً. وتمثل تقسيمه، في¹:

1- الفعل التلفظي (Locutionary Act): يعادل الفعلين الصوتي والتركيب عند "أوستين"، ويتحقق أثناء أداء الكلام والتلفظ به.

2- الفعل القضوي (Propositional Act): هو معادل للفعل الدلالي لدى "أوستين"، ويُسمى أيضاً بالفعل الإحالي.

3- الفعل الإنجازي (Illocutionary Act): يتمثل في أداء عمل ما.

4- الفعل التأثيري (Perlocutionary Act): يتمثل في الأثر الناتج عن القول.

يتّضح لنا أنّ التقسيم الذي اعتمده "سيرل" هو نفس ما ذهب إليه "أوستين" من قبل، باستثناء (الفعل القضوي) الذي شمل الفعل الدلالي، أمّا "أوستين" فقد أدرجه ضمن (الفعل التلفظي).

¹ ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص: 98 - 99.

كما أنّ "سيرل" لم يقتصر على تصنيف الأفعال الكلامية فقط، بل وضع لها شروطاً تضمن تحققها الإنجازي، تمثلت في:¹

1- شروط المحتوى القضوي (Propositional Content): المقصود منها؛ أن يكون للكلام معنى قضوي، نسبة إلى القضية التي تقوم على متحدث عنه، ويتحقق هذا الشرط في فعل الوعد -مثلاً-، إذا كان دالاً على حدث في المستقبل يلزم به المتكلم نفسه.

2- الشرط التمهيدي (Preparatory): يتحقق هذا الشرط إذا كان المتكلم قادراً على إنجاز الفعل، ويشمل اعتقادات المتكلم ومقاصد المتلقي، والعلاقات المشتركة بينهما.

3- شرط الإخلاص (Sincerity): يتحقق شرط الإخلاص حين يكون المتكلم مخلصاً في أداء الفعل، فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنّه قادر على فعل ما لا يستطيع.

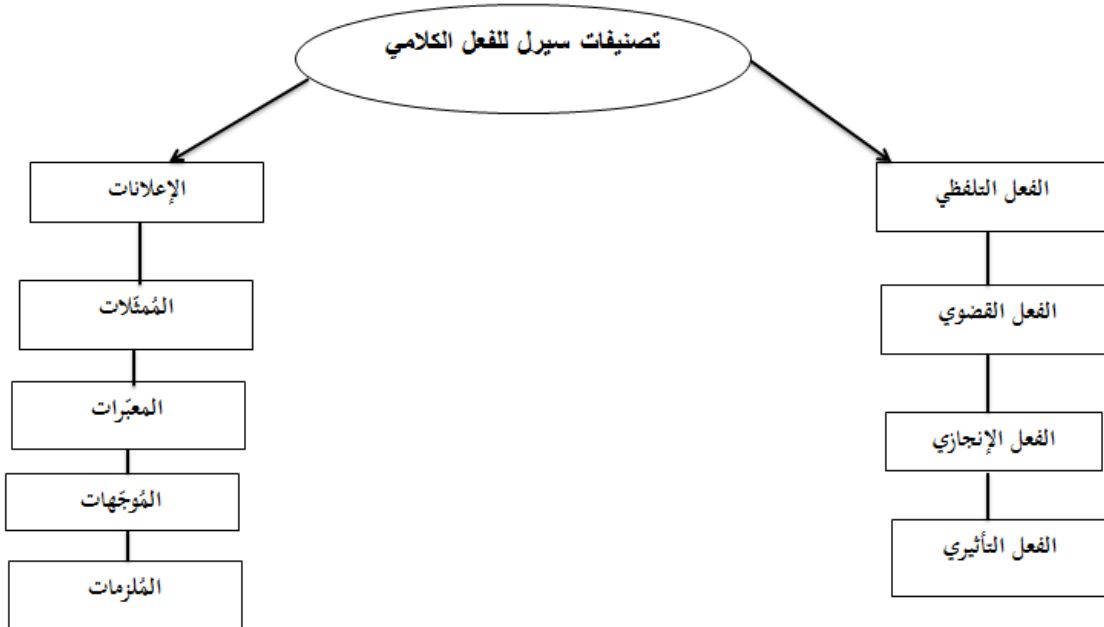
4- الشرط الأساسي (Essential) : يتحقق حين يحاول المتكلم التأثير في السامع لينجز الفعل .
وقدّم "سيرل" أيضاً تصنيفاً جديداً، وبدلاً لتصنيف "أوستين" - نقصد تصنيفه الثالث القائم على أساس القوة الإنجازية-، جعله في خمسة أصناف كبرى، هي:²

- 1- الإعلانات (Declarations): هي صنف يُغيّر الحالة عبر إطلاق اللفظ، كإعلان الحرب مثلاً.
- 2- المُمثّلات (Representatives): تُبَيّن ما يؤمن به المتكلم على أنّه حقيقة، مثل: الأرض مسطحة.
- 3- المُعبّرات (Expressive): غرضها الإنجازي هو التعبير عن الموقف النفسي تعبيراً يتوافق وشرط الإخلاص، ويدخل فيها: الشكر، التهنئة، الاعتذار، المواساة ...
- 4- المُوجّهات (Directives): يتمثل غرضها الإنجازي في محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء معيّن، وتشمل: الأمر، النصيح، النهي ...

¹ ينظر: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 48.

² ينظر: م ن ، ص: 49-50. وينظر أيضاً : جورج يول، التداولية، تر: قصي العتاي، ص: 89 - 90.

5- المُلزمات (Commissives): هي أفعال يُلزم بها المتكلم نفسه بفعل شيء في المستقبل، ويدخل فيها: الوعد، الوصية ...



المخطط رقم 06: تصنيفات سيرل للفعل الكلامي

خلاصة لما سبق، يمكن القول إنّ التداولية بمختلف موضوعاتها، تعدّ من أهمّ النظريات والمقاربات التي عُنيّت بدراسة اللغة أثناء الاستعمال والتواصل في إطار سياقات مخصوصة، ناهيك عن أهميتها في تحليل الخطابات (Analyse Discours)، ومقاربتها مقارنة تكشف لنا عن البنيات السطحية والعميقة لأيّ نصّ أو خطاب مهما كان نوعه.

الفصل الأول:

الحجاج (المنطلقات والنظريات)

أولاً - الحجاج: مقارنة في ماهية المصطلح.

ثانياً - الحجاج في الفكر اليوناني.

ثالثاً - الحجاج في الفكر العربي.

رابعاً - نظريات الحجاج.

خامساً - الدراسات الحجاجية العربية الحديثة.

لا يمكن اليوم إنكار تلك الأهمية التي يحظى بها الدرس الحجاجي في مختلف المجالات المعرفية، بل في مختلف الحضارات الإنسانية، إذ وعلى الرغم من تباعد المسافات، وتباين الجنسيات، واختلاف المجتمعات، فإننا نجد الحجاج حاضراً في عملية التواصل والتخاطب والتحاور، ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا: (نحن نُفكّر إذن نحن نُحاجج)، لأنّ الإنسان أصبح يتخيّر بين أفكاره؛ الفكرة التي تكون أشدّ وقعاً وتأثيراً، حتّى يستعملها في خطابه مع الآخر، بغية استمالاته أو إقناعه، أو تعديل موقفٍ لديه، فيغدو الحجاج بذلك أداة لنقل الأفكار، وآلية في التواصل.

وضمن هذا الطرح يتموقع فصلنا، ليقف وقفة استشفافٍ واستيعابٍ للمسار التاريخي الذي اتّكأ عليه الحجاج، بدءاً بماهية المصطلح، مروراً بفلاسفة اليونان وجهابذة العرب، وصولاً إلى الأرسطيين الجدد.

أولاً- الحجاج (مقاربة في ماهية المصطلح):

1-1- الدلالة اللغوية:

أ- في المعاجم العربية:

لم تقتصر الدلالة اللغوية لمصطلح "الحجاج" في المعاجم العربية على معنى واحد، بل اختلفت معانيها، ومن ذلك تعريف "ابن منظور" (ت 711 هـ): «الحجّ: القصد: حجّ إلينا فلان؛ أي: قديم، وحجّه يُحجّه حجّاً: قصده. وحججت فلانا واعتمدته أي قصدته. ورجل محجوج؛ أي: مقصود»¹، أمّا "ابن فارس" (ت 395 هـ) لم يحصر معنى الحجاج في "القصد" فقط، بل وضع له دلالات أخرى، إذ يقول: «حجّ، الحاء والجيم أصول أربعة: فالأول: القصد، وكلّ قصد حجّ (...)، والأصل الآخر: الحِجّة (بكسر الحاء)، وهي السّنة (...)، والأصل الثالث: الحجاج، وهو العظمُ المستدير حول العين: يقال: للعظيم الحجاج أحجّ. جمع الحجاج أحجّة (...)، والأصل الرابع: الحِجْحَجَة:

¹ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414 هـ-1994 م، ج: 2، ص: 226.

النُّكُوصُ، يقال: حملوا علينا. ثمَّ حججوا، والمُحجج: العاجز»¹. لكنَّ المعنى السائد والمتداول من هذه الأصول الأربعة هو "القصد"، مثل ماذهب إليه "ابن منظور" في تعريفه.

في حين قرن "أبو هلال العسكري" (ت 395هـ) معنى الحجاج بالاستقامة، فالْحُجَّة عنده، هي «الاستقامة في النظر، والمضي على سَنَن مستقيم (...)؛ لأنَّ الحُجَّة مشتقة من معنى الاستقامة في القصد، حجَّ يحجَّ إذا استقام في قصده»².

وما نستنتجه من التعاريف السابقة للمصطلح، هو أنَّ دلالة الغوية تُصَبُّ في معنى "القصد"، أمَّا ما ورد من معانٍ أخرى؛ كالتَّكُوص والعظم المستدير حول العين، يمكن اعتبارها من وجهة نظرنا معانٍ ثانوية هامشية إن صحَّ التعبير لا جوهرية مركزية، لكنَّها في الآن ذاته خادمة ومُكَمِّلة لها.

• لفظ الحجاج في القرآن:

ورد لفظ "الحجاج" في القرآن الكريم بصيغ* مختلفة، نذكر منها:

- صيغة الفعل: كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة/ الآية: 76).
- صيغة الاسم المفرد: كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام/ الآية: 149).

وقد أحصى "محمد فؤاد عبد الباقي" جميع صيغ ومشتقات لفظ "الحجاج" التي وردت في القرآن الكريم، ووجدها قد تكررَّت (33 مرة)³.

¹ ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1399هـ - 1979م، ج: 02، ص: 29 - 31.

² أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم، دار العلم والثقافة، مصر، دط، دت، ص: 70.

*تعمدت عدم الإشارة إلى مدلولات ومعاني هذه الصيغ، لأنَّ مقام البحث مقام إحصاء، لا مقام شرح وتفسير.

³ للاطلاع على جميع الصيغ، ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية، مصر، دط، 1998، ص: 193 - 194.

ب - في المعاجم الغربية:

إنّ مصطلح الحجاج في الأصول اللاتينية (Argument)، مشتق من الفعل اللاتيني (Arguer)، ويعني الوضوح واللمعان، أمّا في الأصول الإغريقية، فهو من الجذر الإغريقي (Argues)؛ ويُقصد به أيضا الوضوح والبياض¹.

أمّا تعريف (Argumentation) في "اللغة الفرنسية"، فيتمثل في:²

- القيام باستعمال الحجج.

- مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة معيّنة.

- فنّ استعمال الحجج أو الاعتراض بها في مناقشة معيّنة.

أي: الحجاج وسيلة تُستعمل في مناقشات معيّنة، تستهدف تحقيق نتائج محدّدة.

أمّا الحجّة (Argument) في (الموسوعة الفلسفية) "لأندرية لالاند" (André Lalande)، فهي « استدلال يرمي إلى برهان قضية مبنية أو دحضها»³، فالحجّة في نظره، هي استدلال يهدف إلى إثبات قضية ما، أو دحضها. في حين يُشير مصطلح "الحجاج" في "اللغة الإنجليزية" حسب (قاموس كامبردج - Dictionnaire Cambridge) إلى اعتبار الحجّة هي تلك التي تُعلّل أو تُبرّر مساندتك أو معارضتك لفكرة ما⁴.

1-2- الدلالة الاصطلاحية:

لا يُمكن لأيّ باحث أن يُنكر أو يتجاهل تلك الصعوبة التي تعترضه في تحديد مفهوم الحجاج وضبطه ضبطاً اصطلاحياً دقيقاً، نظراً لتواتر الحجاج وتداخله مع علوم مختلفة؛ كالفلسفة والمنطق واللسانيات، وغيرها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإنّ ذلك راجع إلى عدّة عوامل أهمّها⁵:

¹ ينظر: عبد الحليل العشراوي، الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012م، ص:10.

² Voir: Robert, Dictionnaire de la Langue Française, T.1, Paris, France, 1989, P: 535.

³ أندرية لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، مج: 01 (A - G)، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، باريس، فرنسا، ط2، 2001م، ص: 93-94.

⁴ Voir: Cambridge, Dictionnaire Cambridge, UniversityPres, England, 2ed, 2004, P: 56.

⁵ ينظر: حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي -عناصر استقصاء نظري-، ص: 97-98.

- تعدد مظاهر الحجاج وتنوعها، كالحجاج الصريح، والحجاج الضمني، والحجاج المغالطي...

- تعدد استعمالات الحجاج وتباين مرجعياتها: فلسفة، خطابة، قضاء، منطق.

- تعدد دلالات الحجاج للتأويلات المتجددة من عصر إلى آخر.

هذا بالإضافة إلى:

- تداخل الحجاج وارتباطه بمصطلحات مقارنة له في الدلالة، من قبيل: البرهان، الاستدلال،

الإقناع...

- الاختلاف في مرجعية المنظر وعصر التنظير.

- الاختلاف في نوع الخطاب المدروس، والغاية منه.

إلا أنه وعلى الرغم من هذه الصعوبات، سنحاول الوقوف على ترسانة من المفاهيم - التي نراها الأقرب والأدق والأبلغ - الضابطة لمصطلح الحجاج؛ إن على مستوى الدراسات الغربية الحديثة، أو الدراسات العربية.

أ- ماهية الحجاج في الدراسات الغربية الحديثة:

تباينت المفاهيم الاصطلاحية للحجاج في الفكر الغربي* الحديث، ولعل أهمها: تعريف "بيرلمان" و"تيتيكا" للحجاج، بأنه: «دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم، والإذعان بما يُعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم»¹، أي؛ إن الحجاج يتوسل إلى اللغة ويتكفل بدراسة مختلف تقنيات الخطاب وأنواعه وأشكاله، التي بمقدورها أن تؤدي بالعقول إلى التسليم أو التعديل في فكر المتلقي وأسلوبه، بعيدا عن الاعتباطية، والإلزامية البرهانية الصارمة، أما الغاية من الحجاج عندهما - فلم تخرج عن مفهومهما للمصطلح-، تمثلت في جعل الأذهان والعقول تُدعن لما يُطرح عليها من أفكار وآراء، أو الزيادة في درجة الإذعان، فأنجع الحجاج وأفضله هو ما وُفق في أن يجعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين، وتزيد بشكل

* سنشير بالتفصيل في محطات لاحقة من البحث إلى أهم النظريات الحجاجية الغربية.

¹ Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca, Traite de L'argumentation -La Nouvelle Rhétorique, Editions de L'université de Bruxelles, 2000, P: 05.

يبحثهم على العمل المطلوب، أو الإمساك والامتناع عنه، أو هو ما وُفّق على الأقلّ في جعل السامعين مُهيّئين لإنجاز ذلك العمل في اللحظة المناسبة¹.

أمّا "ديكرو" (Ducrot) و"أنسكومبر" (Anscombre)، فيُعرّفان الحجاج من خلال نظريتهما؛ "الحجاج اللساني" (Argumentation Linguistique)، بأنّه: «أن يُقدّم المتكلّم قولا (ق1)، أو مجموعة أقوال تفضي إلى التسليم بقول آخر (ق2) أو مجموعة أقوال أخرى»²، بمعنى أنّ المتكلّم في الخطاب يُقدّم أقوالا ذات علاقة فيما بينها إلى المخاطب، يهدف من خلالها إلى توجيهه، ودفعه إلى قبول تلك الأقوال والتسليم والإذعان لها.

فالحجاج عندهما إذن، هو عمل التصريح بالحجّة (ق1) أو مجموعة حجج، من ناحية، وعمل الاستنتاج من ناحية أخرى - أي استنتاج نتيجة أو نتائج-، سواء أكان هذا الاستنتاج صريحا أو ضمنيا³.

ولتوضيح هذا المفهوم، نضرب المثال التالي:

- قُرب موعد الأذان، فلنذهب إلى المسجد.
ق1 ق2

نلاحظ أنّ (ق1)، هو حجّة مُوجّهة لخدمة (ق2) - هو بلّغة الحجاج: نتيجة-، أي: إقامة الصلاة في وقتها.

في حين ربط "ميشال مايير" (Michel Meyer) الحجاج بنظريته؛ "نظرية المساءلة (Théorie du Questionnement)"، ورأى أنّ الحجاج يعمل على إيجاد وحدة للجواب، وإرضاء المتلقي بحال من الأحوال، وإقناع السامع بجواب منطقي، خاصّة حين تتعدد الأسئلة، فلذلك لا بدّ من اختيار جواب مُقنع للسامع⁴.

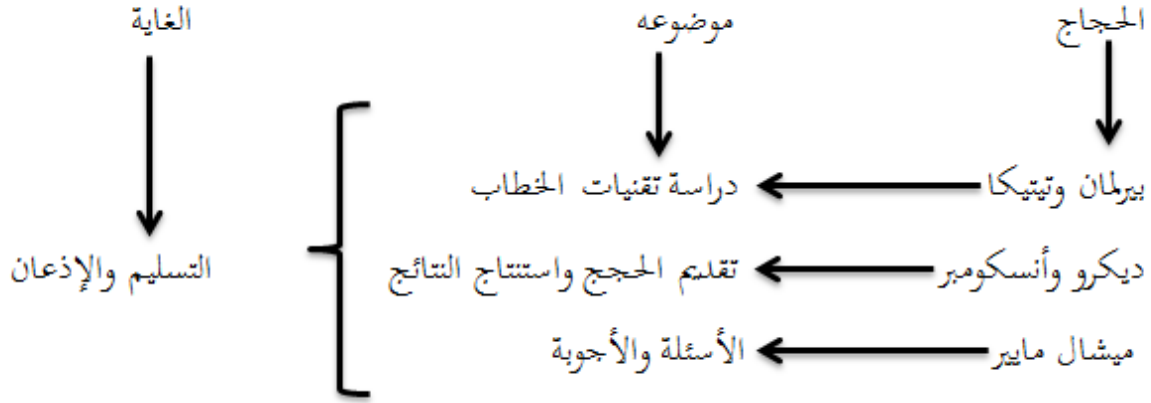
¹ Voir: Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca, Traite de L'argumentation -La Nouvelle Rhétorique, P: 59.

² J.C.Anscombre et O.Ducrot, L'argumentation dans la Langue, Mardage, 2éd, Liège Bruxelles, 1983, P: 08.

³ Voir : Ibid, P: 11.

⁴ Voir: Michel Meyer, Que èst- ce que L'argumentation?, Vrin, Paris, France, 2005, P: 15.

بناءً على ما سبق من تعاريف، توصلنا إلى نتيجة مفادها؛ أنه وعلى الرغم من اختلاف توجهات هؤلاء المنظرين وتباين مفاهيمهم للحجاج، إلا أن غاية الحجاج عندهم واحدة ومشتركة، وهي تحقيق التسليم والإذعان.



ب- ماهية الحجاج في الدراسات العربية الحديثة:

من بين الباحثين العرب الذين عكفوا على دراسة الحجاج والتعريف به، نذكر:

- **طه عبد الرحمن:** أسس لفكرة مفادها أنه «لا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل باللسان»¹، والحجاج في نظره، هو «فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي؛ لأن طابعه الفكري مقامي اجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة، ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية إنشاءً مُوجَّهاً بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي؛ لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صورة استدلالية أوسع، وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة»²، والذي يتبين لنا من التعريف، هو أن "طه عبد الرحمن" قد حصر الحجاج في طابعين أو جانبين، هما:

- طابع تداولي: لكون الحجاج أحد الفروع التي انبثقت من التداولية، وبخاصة من أفعال الكلام. ولأنه أيضا يأخذ بالاعتبار مقتضيات الحال من مقام ومعارف مشتركة وغيرها.

¹ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص: 254.

² طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، ص: 65.

- طابع جدلي: لأنّ الغاية منه؛ هي الإقناع والإذعان، ولكونه أيضا يتسم بالبنية الاستدلالية القريبة من بنية البرهان، وما هي ببرهان، بل أوسع وأشمل، غير خاضعة للاستنتاج المنطقي (Logique Dédution) الصارم.

- أبو بكر العزاوي: انطلق من مُسلّمة، مؤداها «أنّا نتكلّم عامّة بقصد التأثير»¹، وأنّه «لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج من غير تواصل»²، حيث يرى أنّ الحجاج حاضر في مختلف الخطابات سواء أكانت أدبية أو غير أدبية، ومن خلاله يتم التواصل والتحاور، وفي تعريفه للحجاج يقول: «الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معيّنة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تُستنتج منها»³. بمعنى أنّ الحجاج هو تقديم مجموعة من الحجج والأدلة داخل الخطاب، التي توصلنا إلى استنتاج مجموعة من النتائج.

كما يتضح، أنّ هذا التعريف يضعنا في صورة مطابقة لما ذهب إليه "ديكرو" في تعريفه للحجاج، بيد أنّ "العزاوي" يُبرّر ذلك في أبحاثه، بأنّه لم يقتصر على ما جاء به "ديكرو" في نظريته الحجاجية اللسانية فحسب، بل عمل على تطويرها لتشمل كافة الخطابات، وفي ذلك يقول: «بالطبع لا يمكن أن أكون نسخة ثانية من أزالديديكرو، ولا يمكن أن أكتفي بمجرد التطبيق الحرفي لما جاء به (...)، لكنّ يمكن للإنسان أن يساهم ببعض الاقتراحات والتعديلات والإضافات والتطويرات»⁴.

- الحجاج نشاط تواصلية: في حين نجد بعض الدارسين العرب، قد قدّموا مفهوما عاما للحجاج، بوصفه ممارسة وشكلا من أشكال التواصل، التي وإن اختلفت طرائق الحجاج فيها من مجتمع إلى

¹ أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، منتديات سور الأوزيكية، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1426هـ - 2006م، ص: 08.

² أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص: 12.

³ م ن، ص: 16.

⁴ أبو بكر العزاوي، حوار حول الحجاج، دار الأحمديّة للنشر والتوزيع، المغرب، ط1، 1431هـ - 2010م، ص: 103.

آخر، ومن ثقافة إلى أخرى، إلا أنّها تسعى إلى إقناع المتلقي وتثبيت أو تغيير نظام المعتقدات والتصورات والسلوكيات لديه.¹

1-3- المصطلحات المشابهة للحجاج:

أشرنا سابقا إلى أنّ من صعوبات ضبط مفهوم الحجاج، تداخله مع مصطلحات مقاربة له في الدلالة، وتساوقا مع ذات التوجه، فلا مناص من إثارة بعض تلك المصطلحات والوقوف على جملة من التشابهات والفروقات فيما بينها.

1- البرهان (Démonstration):

يختلف البرهان عن الحجاج في مواضع عدّة، فالبرهان هو الحجّة البيّنة القائمة على مقدمات يقينية وقطعية²، أي يقتصر على دليل واحد في البرهنة على قضاياه، أمّا الحجاج فلا يكون يقينيا، بل يكون في مجال المحتمل والمرجح³، ولا تقتصر قضاياه على دليل واحد، بل يحتاج إلى أكثر من دليل، وفي ذلك يقول "هشام الريفي": «كلاهما حركة انتقال ضرورية من مقدمات إلى نتائج، غير أنّ صفة الضرورة في البرهان تقع في مستويين اثنين: في الصورة والمادة؛ أي: في علاقة المقدمتين بالنتيجة من ناحية، وفي المقدمتين والنتيجة من ناحية ثانية، أمّا الحجاج فصفة الضرورة فيه لا تكون إلّا في الصورة، لذلك كان البرهان ضروريا في صورته اضطراريا في نتيجته، وكان الحجاج ضروريا في صورته (مبدئيا) غير اضطراري في نتيجته»⁴، والمقصود هنا؛ هو أنّ الحجاج والبرهان يشتملان على مقدمات ونتائج، ويخضعان لمتوالية وتسلسل منطقي في الانتقال من المقدمات إلى النتائج، غير أنّ ذلك

¹ ينظر: عماد عبد اللطيف، البلاغة والتواصل عبر الثقافات، الناشر: الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2012م، ص: 115. وينظر أيضا: مسعود بودوخة، البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2018م، ص: 125.

² ينظر: عبد الله البهلول، الحجاج الجدلي - خصائصه الفنيّة وتشكّلاته الأجناسيّة في نماذج من التراث اليونانيّ العربيّ -، الناشر: قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، مطبعة دار تهي للطباعة والنشر، صفاقس، تونس، ط1، 2013م، ص: 63 - 64.

³ ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص: 15.

⁴ هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب: أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشر: حمادي صمود، كلية الآداب، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، منوبة، تونس، 1998م، ص: 112.

التسلسل (Séquence) وتلك المقدمات ، يقينية قطعية صارمة في البرهان، ونسبية احتمالية ترجيحية في الحجاج.

وليتضح الفرق بين المصطلحين، نضرب الأمثلة التالية:¹

- المثال 1:

أ- كل الأعداد الزوجية تقبل القسمة على اثنين، وأربعة عدد زوجي.

ب- إذن أربعة تقبل القسمة على اثنين.

- المثال 2:

- سينجح المهرجان، فعُدُّ الحاضرين سيفوق التوقعات، والبرنامج يتميز بالأصالة، ثمَّ إنّها المرّة الأولى التي يحضر فيها الوزير.

نلاحظ من خلال الأمثلة؛ أنّ المثال الأول ينتمي إلى مجال الاستدلالات البرهانية، ويتعلق بقياس منطقي، لأنّه يستمدّ مشروعيته وقوّته من القانون المنطقي الرياضي الذي ينتظم وفقه، فهناك مقدمة كبرى كلّية؛ تقضي بأنَّ كل الأعداد الزوجية تقبل القسمة على اثنين، ثمَّ هناك مقدمة صغرى جزئية؛ تقضي بأنَّ أربعة عدد زوجي، فتكون النتيجة المستلزمة صوريا؛ هي أربعة تقبل القسمة على اثنين، وذلك بمقتضى قانون منطقي (القياس). أمّا المثال الثاني؛ فإنّه ينتمي إلى مجال الاستدلالات الحجاجية، ولا نستنتج منه النتيجة على نحو ضروري أو قطعي، لأنَّ حضور الوزير للمرّة الأولى، أو أصالة البرنامج، لا تعنيان بالضرورة نجاح المهرجان، فقد يحتمل النجاح، كما قد يحتمل الفشل.

2- الاستدلال (Raisonnement) :

الفرق بينهما يكمن في أنّ الاستدلال مجاله المنطق، أمّا الحجاج فمجاله الخطاب، وهو ما يُؤكّده "شكري المبخوت" في قوله: «الاستدلال يقع في مجال المنطق وقوامه ترابط القضايا التي تصف حالات الأشياء في الكون، لذلك فإنَّ القياس مثلا لا يُمثّل خطابا، أمّا الحجاج فمجاله الخطاب

¹ ينظر: رشيد الراضي، الحجاج والبرهان، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته -دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة-، إشراف: حافظ إسماعيل علوي، ج: 01، ص: 185 - 187.

نفسه الذي تُسيّر قوانين داخلية تفرض استئناف القول فيه على هذا الوجه أو ذاك»¹، أي: ينتميان إلى مستويين مختلفين هما: المنطق؛ الذي يُعنى فيه الاستدلال بالعلاقات بين الأحداث والوقائع والقضايا في الكون، فيصِفُها ويحكم عليها بالصدق أو الكذب. أمّا المستوى الثاني، هو الخطاب؛ فيبحث فيه الحجاج عن العلاقات بين الأقوال التي تُسيّر ذلك الخطاب.

وفي ذات السياق، يرى "أبو بكر العزاوي" أنّ مجال الاستدلال أوسع من مجال الحجاج، «فكلّ حجاج استدلال وليس كلّ استدلال حجاج»²، ونوّه أيضا إلى أنّ مجال الاستدلال هو المنطق، ومجال الحجاج هو الخطاب، بقوله: «الحجاج والاستدلال ينتميان إلى نظامين مختلفين نظام ما تُسميه بالمنطق، ونظام الخطاب»³.

3-الإقناع (Persuasion):

يُمكن القول، إنّ العلاقة بين الإقناع والحجاج متداخلة إلى حدّ كبير، إذ الغاية من الإقناع هي تغيير سلوك أو موقف، وكذلك هو الحجاج غايته الإقناع، وتغيير السلوكات والأفكار والمواقف⁴. أمّا بخصوص الفرق بينهما؛ فطبيعة المتلقي هي المتحكّم في ذلك، فإن كان المتكلّم يُجبر المتلقي بكلام جديد لم يسبق لهذا الأخير -المتلقي- سماعه، فهو إذن في هذه الحالة يُقنع، أمّا إذا كان ذلك المتلقي رافضاً لكلام ما، فيتحوّل ها هنا الخطاب من الإقناع إلى الحجاج⁵.

¹ شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن كتاب: أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشر: حمادي صمود، ص: 352.

² أبو بكر العزاوي، حوار من المنطق إلى الحجاج، مجلة فكر ونقد، المغرب، ع: 61، سبتمبر 2004م، ص: 40.

³ أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص: 17.

⁴ ينظر: حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي -نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب-، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014م، ص: 22. وينظر أيضا: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2011م، ص: 35.

⁵ ينظر: عباس حشاني، مصطلح الحجاج بواعثه وتقنياته، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ع: 09، 2013م، ص: 275.

4-الجدل (Dialectique):

تكاد دائرة الفروقات بين الحجاج والجدل تضيق، فهناك من استعمل مصطلح الجدل كمرادف للحجاج، ومن ذلك تعريف "قدامة بن جعفر" (ت 327هـ) للحجاج، بأنه «قولٌ يُقصد به إقامة الحجّة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويُستعمل في المذاهب والديانات، وفي الحقوق، والخصومات (...)»، وهو ينقسم إلى قسمين: أحدهما محمود، والآخر مذموم، فأما الحمود فهو الذي يقصد به الحقّ ويستعمل به الصدق، وأما المذموم فما أُريدَ به المماراة والغلبة، وطلب به الرياء، والشُّمعة¹.

أما "أرسطو" فالجدل عنده هو الحجاج في المسائل الفكرية الخلافية، وهو ما سمّاه "بالحجاج الجدلي" (Argumentation Dialectique)، وعَرَضَ له في كتابه (الطوبيقي- Topiques)، ومداره على مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد، كما يُمارَس في فحص قضايا الفكر، وفحص جوانب من الأحكام المتعلقة بالسلوك، كما يُمارَس في توجيه الفعل. ومن الأمثلة الدالة على هذا النوع من الحجاج - الحجاج الجدلي - في التراث العربي، نجد؛ مناظرات علم الكلام، والمناظرات الفقهية، وغير ذلك².

أما "عبد الله صولة" فبخصوص العلاقة بين المصطلحين ، يقول: « كلّ جدل حجاج، وليس كلّ حجاج جدلاً »³، أي: مجال الحجاج أوسع من الجدل.

5-الخطابة (Rhétorique):

ميّز "أرسطو" في العلاقة بين الحجاج والخطابة نوعاً جديداً سمّاه "بالحجاج الخطابي" (Argumentation Rhétorique)، وعَرَضَ له في كتابه (الخطابة - La Rhétorique)، وهو حجاج مُوجّه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة، في مقامات خاصة، لا يقتصر على غاية التأثير العقلي

¹ قدامة بن جعفر، نقد النثر، تح: طه حسين، عبد الحميد العبادي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1351هـ -، دط، 1933م، ص: 102.

² ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007م، ص: 17- 18. وينظر أيضاً: هشام الرفي، الحجاج عند أرسطو ، ص: 121.

³ عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية، ص: 17.

فحسب، بل يتعداه إلى التأثير العاطفي وإثارة المشاعر والانفعالات¹ (Les Passions)، إنّه - الحجاج الخطابي - حجاج مقامي يبني على خصوصية المتلقي بمختلف جوانبه العقلية والنفسية، وما يحيا فيه من مقام اجتماعي ثقافي².

أمّا "بيرلمان" و"تيتيكا" فالحجاج عندهما أقرب إلى الخطابة لا الجدل، وقد ذهبا إلى التفرقة بين المصطلحين؛ من حيث نوع الجمهور: (فجمهور الخطابة الجماعة المجتمعة، أمّا الحجاج فيمكن أن يكون عامّا حاضرا أو غائبا، كما يمكن أن يكون مُنشأ الحجاج بين شخصين اثنين أو بين المرء ونفسه)، ومن جهة نوع الخطاب: (إذ الخطابة حصرت الخطاب في ما هو شفوي، أمّا الخطاب الحجاجي فيمكن أن يكون منطوقا أو مكتوبا)³.

نُلخص ما سبق من فروقات في الجدول التالي:

المصطلحين	الفروقات والتشابهات
الحجاج والبرهان	- البرهان مقدّماته ونتائجه يقينية، أمّا الحجاج فمقدّماته ونتائجه احتمالية.
الحجاج والاستدلال	- مجال الحجاج الخطاب، ومجال الاستدلال المنطق. - الاستدلال أوسع من الحجاج.
الحجاج والإقناع	- كلاهما غايته التأثير في المتلقي وتغيير سلوكاته ومواقفه. - إذا كان كلام المتكلم إخبارا جديدا للمتلقي، فهو إقناع، أمّا إذا كان المتكلم رافضا للكلام، فهو حجاج.
الحجاج والجدل	- الجدل مرادف للحجاج. - الحجاج أوسع من الجدل.

¹ ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص: 17.

² ينظر: جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، مصر، دط، 2000م، ص: 110.

³ ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة - لبيرلمان وتيتيكا، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إيش: حمادي صمود، ص: 306 - 307.

الحجاج والخطابة	- كلاهما يهدفان إلى التأثير العقلي والعاطفي. - جمهور الخطابة هو الجماعة، أمّا الحجاج فقد يكون جماعة، أو بين المرء ونفسه. - الخطابة تقتصر على الخطاب الشفوي، أمّا الحجاج فيشمل المنطوق والمكتوب

الجدول رقم 02: الفروقات بين الحجاج والمصطلحات المشابهة له

ثانيا- الحجاج في الفكر اليوناني:

أبَدَت الحضارة اليونانية اهتماما بالحجاج منذ القِدَم، فقد كان يتمثل عندهم في المرافعة أمام المحاكم والقضاء، ولعلّ الفيلسوف اليوناني " كوراكس " * من أوائل الفلاسفة الذين قدّموا مجموعة من الآليات المساعدة في الحجاج أمام المحاكم، ورأى أنّ أيّ خطاب يُراد به الإقناع، يجب على صاحبه أن يلتزم فيه بالأجزاء الكبرى التي تُشكّل تصميم الخطبة¹، وحصرها في:²

- الاستهلال (أو المقدمة للفت انتباه المتلقي).
 - تقديم الأحداث (وهو عرض للوقائع والقضايا وسردها).
 - المناقشة (وتكون بالاستدلال وتقديم الحجج والأدلة الداعمة للقضية).
 - الخاتمة (وهي حوصلة يُلخّص فيها المرافع دوافعه).
- وضمن هذا المعطى، سنقف على فلتات نظرية تاريخية لمصطلح الحجاج، ونتبعه عند كلّ من:
- "السفسطائيين"، "سقراط"، "أفلاطون"، "أرسطو".

1-2- السفسطائيين (Sophistes):

وهم تيار فكري وحركة فلسفية، ظهرت "بأثينا" في (القرن الخامس قبل الميلاد)، تميزوا بالكفاءة (Compétence) اللغوية والبلاغية، وبالخبرة الجدلية. ويتجلّى ذلك من خلال تسميتهم (Sophistés)، التي كانت تعني الحكيم والخبير في كلّ شيء³. كما اشتهر "السفسطائيون" بالحكمة واعتمدوا الظنّ (Opinion) لا الحقيقة اليقينية، واعتبروا أنّ القول الخطابي يفوق المعارف البشرية

* فيلسوف يوناني يُعدّ من أوائل معلمي البلاغة، وبمعنى آخر مخترعها. ينظر: فيليب بروطون، جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناحي الغامدي، ص: 20.

¹ ينظر: فيليب بروطون، جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناحي الغامدي، ص: 21.

² ينظر: م ن، ص: 21. وينظر أيضا: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان، الرباط، المغرب، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1434هـ - 2013 م، ص: 32.

³ ينظر: هشام الريني، الحجاج عند أرسطو، ص: 54. وينظر أيضا: فيليب بروطون، جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناحي الغامدي، ص: 23.

الأخرى، بما يمتلكه من قوّة وفعالية، إذ هو في نظرهم - أي؛ القول الخطابي - أعلى سلطة لتحقيق الاعتقاد وبناء المعرفة، وبهذا القول يُصبح الإنسان هو مقياس كلّ شيء¹.

ومن ناحية أخرى اهتمّ "السفسطائيون" ببنية الكلمة والجملة، التي بها يتحقق الإقناع، ويُبنى الحجاج، معتمدين في ذلك على خبرة الناس، وفي ذلك يقول "محمد سالم الأمين الطلبة": «اهتمّ السفسطائيون ببنية كلّ من الكلمة والجملة، وبحثوا في السبل الممكنة التي بها يتحقق الإقناع، وتغيير مواقف الآخرين، وقد استعانوا في سبيل تلك الغاية بخبرة بالغة في مقامات الناس والقول معاً، وأيضاً بآليات إجراء اللغة بحسب المقاصد والظروف التواصلية»²، فإذا استطاع الإنسان أن يتحكم في آليات إجراء اللغة وبنية الكلمة والجملة على حدّ سواء، فحينئذ يتمكن الإنسان الخطيب من تحقيق الإقناع والحجاج، ويصبح حينها بليغاً، ذلك أنّ الخطيب البليغ - في تصور السفسطائي - هو مَنْ «يستطيع أن ينصر الحقّ كما يستطيع أن ينصر الباطل بقوّة حججه أو براعته بالأقيسة والقضايا (...) لأنّ الحقيقة ليست شيئاً موضوعياً قائماً بذاته، بل هي شيء نسبي، والإنسان هو مقياس كلّ شيء، فالحقّ هو ما يراه كلّ إنسان حقّاً، والباطل ما يراه باطلاً»³.

ومتضمّن القول لما سلف ذكره عن "السفسطائيين"، نحصره في:

- الحكمة أساس كل المعارف.
- الإنسان مقياس كلّ شيء.
- الحقيقة نسبية ظنيّة لا يقينية.
- الاهتمام ببنية الكلمة والجملة أساس في تحقيق الإقناع وبناء الحجاج.

¹ ينظر: هشام الريني، الحجاج عند أرسطو، ص: 59. وينظر أيضاً: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 29-30.

² محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة - بحث في بلاغة النقد المعاصر -، ص: 25.

³ محمد مندور، الأدب وفنونه، دار نخضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، مصر، دط، 1980م، ص: 154.

2-2- سقراط:

ثار ضدّ "السفسطائيين" الذين زرعوا الشكّ واعتمدوا الظنّ، واهتم بالأخلاق والسياسة وقضايا الإنسان والذات البشرية، كما دافع عن الفلسفة باعتبارها المسلك العلمي الصحيح للوصول إلى الحقيقة، لأنّ الهدف الأسمى للفلسفة يتمثل في تحقيق الحكمة العقلية، وخدمة الحقيقة لذاتها، مستندا في ذلك "سقراط" على العقل والجدل والبرهان المنطقي، زد على ذلك، أنّه نظر إلى الحقيقة في ذات الإنسان، وليس في العالم الخارجي وما يحتويه من مكاسب ومنافع مادية، فالإنسان يعرف نفسه بنفسه من خلال ذاته، وما عليه إلّا أن يتأمل تلك الذات ليُدرك الحقيقة¹.

2-3- أفلاطون:

أقام "أفلاطون" خطابه على أُسسٍ مناهضة "للسفسطائيين"، فإذا كان "السفسطائيون" اعتبروا المعرفة والحقيقة نسبية، فإنّ "أفلاطون" يرى أنّ الحقيقة مطلقة وجوهر الأشياء، تتعالى عن كلّ متغيّر أو عارض، إنّها موجودة في عالم المثل الذي لا ترقى إليه مجالات السلوك الحسي، والذي لا يُمكن إدراكه إلّا عن طريق التأمل العقلي والفلسفي، وهو تأملٌ في نظر "أفلاطون" خاصٌّ بالفلسفة لا غيرهم من الناس، لأنّ الحكمة من شأنهم، وهم الأعرف بمسالك قيادة الأفراد نحو الخير والسعادة، وقيادة الدولة نحو العدالة²، وهكذا يتبين أنّ "أفلاطون" قسّم العالم إلى قسمين؛ عالم مادي هو عالم النسبيات والمتغيرات، وعالم مثالي فيه المعارف والحقائق المطلقة والثابتة، والخطابة عند "أفلاطون" هي «صناعة قيادة النفوس»³، أي؛ هي فعل قولي موضوعه هو النفس، والغاية من القول الخطبي هي تحقيق الفضيلة للنفس، بمعرفة أنواعها وحالاتها، ومعرفة الخطابات المناسبة لها، أو المؤثرة فيها، والأساس من كلّ ذلك هو إقامة التوافق أو التفاعل الذي يربط بين أنواع النفوس بأنواع الخطاب،

¹ ينظر: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 14.

² ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 35-36. وينظر أيضا: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 14-15.

³ هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص: 79.

حتى يتم بلوغ الحقيقة¹، فالغاية هنا إذن؛ غاية أخلاقية ترتبط بتنشئة النفوس، عن طريق القول الخطي.

أما في تأسيسه لخطابته، ونقده للخطابة السفسطائية، أفرد "أفلاطون" محاورتين اثنتين، هما: (قرجياس وفيدر)، ففي محاورة "قرجياس" بحث في موضوع الخطابة ووظيفتها وغايتها؛ فأما البحث في الموضوع، هو بحث في مدى شرعية قيام هذا القول، وأما البحث في الوظيفة فهو بحث فيما يقدمه هذا القول للإنسان، في حين أنّ الغاية هي غاية أخلاقية. أما محاورة "فيدر" فتدور حول القول وفتنته في التعامل بين الإنسان والإنسان.²

كما يرى "هشام الريفي" أنّ الأركان التي بنى عليها "أفلاطون" خطابته، تمثلت في:³

1 - المنهج الجدلي: أي اعتماد الجدل في بناء القول الخطي، وهو الأداة والوسيلة التي أراد بها "أفلاطون" أن ينقل منها الحجاج من مجال الظنّ إلى مجال الحقيقة، وبهذا الجدل يتجاوز الإنسان العالم المادي المحسوس إلى عالم المثل.

2 - معرفة أنواع النفوس وما يوافقها من أنواع الأقاويل: ومدار هذا الركن هو مبدأ التناسب (Convenance)، بين القول والسماع، وهو مبدأ أساسي في الخطابة الإغريقية، أكّد من خلاله "أفلاطون" على أنّ النفوس تختلف بحسب درجات تهيئها لقبول التأثير، وسعى إلى إيجاد التناسب والتوافق بين أنواع هذه النفوس وبين أنواع الأقاويل الخطابية.

3 - ضرورة مراعاة مبدأ التناسب في مستوى الأسلوب.

نوجز ما سبق ذكره عند "أفلاطون"، في:

- الحقيقة: مطلقة لا نسبية.

- العالم: مثالي لا مادي.

¹ ينظر: م س، ص: 79.

² ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص: 62، ص: 68. وينظر أيضا: محمد الولي، الخطابة والحجاج بين أفلاطون وأرسطو وبيرولمان، تق: محمد العمري، الناشر: فالية للطباعة والنشر والتوزيع، المغرب، ط1، 1441هـ - 2020م، ص: 17.

³ ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو: 80-83.

- الخطابة: هي صناعة قيادة النفوس بالقول الخطبي.
- أساس خطابته: محاورة قرجياس، محاورة فيدر.
- غاية الخطابة: أخلاقية (تحقيق الفضيلة).
- أركان الخطابة: المنهج الجدلي، معرفة أنواع النفوس وما يوافقها من أقاويل (التناسب)، التناسب في مستوى الأسلوب.

2-4- أرسطو:

انفتحت فلسفة "أرسطو" على مختلف ضروب المعرفة وأنواعها (سياسة، شعر، خطابة، وغيرها)، وتجلّى منطق كدعامة رئيسة وأساس معرفي لكلّ النظريات من بعده. ولئن كان "أفلاطون" صبّ اهتمامه على الحقيقة في عالم المثل، فإنّ "أرسطو" نفى هذا العالم وأنكره، ورأى أنّ الحقيقة موجودة في العالم الذي نعيش فيه، وتُدرَك عقلاً¹، وعَدّت الخطابة عنده صناعة مدارها إنتاج قول، يُبنى به الإقناع في مجال المحتمل والمسائل الخلافية القابلة للنقاش، أي هي علاقة بين طرفين، تتأسس على اللغة والخطاب² يحاول فيها أحد الطرفين توجيه الآخر والتأثير فيه وإقناعه بموقف أو اعتقاد أو فكرة، إمّا بالعمل بها أو تركها.

وفي التأسيس لخطابته ألّف "أرسطو" ما يُعرف "بالأورغانون (Organon) الأرسطي؛ الذي يتشكّل من ثلاثة مصنفات* هي: (المواضع - Topiques)، و(التبكيّات السوفسطائية - Les Réfutations Sophistiques) و(الخطابة - Rhétorique). وهي مصنفات تندرج ضمن الاشتغال العام بالمنطق، ركّز فيها "أرسطو" على المناقشة الجدلية (الحجاج الجدلي)، والخطابة (الحجاج الخطابي)، وتناول من خلالها - أي؛ المصنفات - مسألة الحجاج³.

¹ ينظر: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 24.

² ينظر: حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إش: حمادي صمود، ص: 12.

* لتوسيع النظر في هذه المصنفات. انظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 46-58.

³ ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 46. وينظر أيضاً: هشام الريني، الحجاج عند أرسطو، ص: 92.

➤ بين الحجاج الجدلي والحجاج الخطابي عند أرسطو:

كنا قد أشرنا سابقاً* إلى مفهومي الحجاج الجدلي والحجاج الخطابي عند "أرسطو"؛ بأن النوع الأول مداره على مناقشة الآراء مناقشة نظرية وفحص قضايا الفكر، أما النوع الثاني فهو حجاج خاص ذي أوضاع خاصة غايته التأثير العقلي والعاطفي معاً. إلا أنهما يشتركان - رغم اختلافهما- في جوانب عديدة، أهمها:¹

- يشتركان في إيقاع التصديق، ويهدفان إلى تحقيق الغلبة والإقناع.

- الجدل والخطابة جاريان في سلوك الإنسان، وتكشفهما المواجهات والمحاورات.

- يشتركان في مجال المحتمل.

- كلاهما يقدران على إنتاج الحجج.

- يستعملان معاً نفس وسائل الاستدلال، في كونهما صناعتين للاستدلال؛ فالخطابة صناعة تكشف عن طرق الاستدلال أمام جمع من الناس في أوضاع خاصة، والجدل صناعة تكشف عن طرق الاستدلال أمام مُحاور في قضية كلية تعالج بواسطة سؤال وجواب.

- كلاهما يتناول معارف وأمورا مشتركة بين جميع الناس، وليس مقصورين على علم خاص بعينه.

➤ الأجناس الخطابية الأرسطية: حدّد "أرسطو" ثلاثة أنواع خطبية، تمثلت في²:

1- الجنس المشاجريّ (Genre Judiciaire): يتعلق هذا النوع من الخطابة بمجال المرافعات القضائية ومقام الاتهام أو الدفاع، والإنصاف أو الظلم، أي: إنّ هذا الجنس يهدف إلى الإقناع بما يُحقّق العدل.

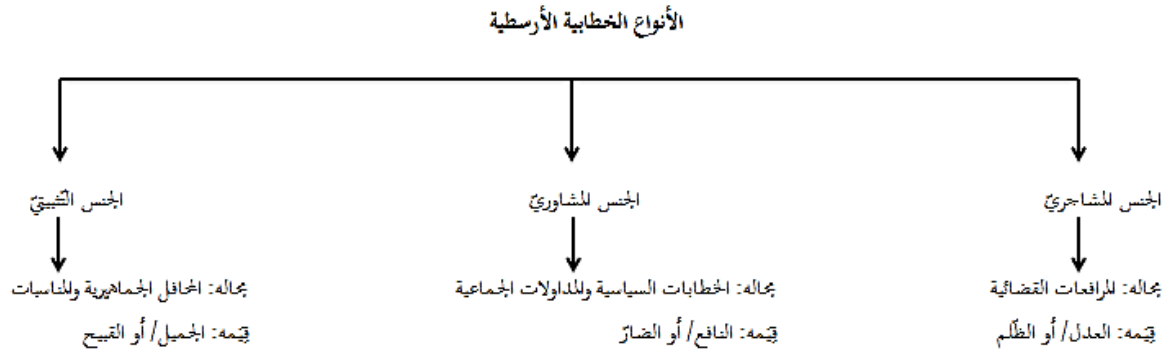
*أشرنا سابقاً في عُنصريّ "الجدل والخطابة" إلى مفهوميّ "الحجاج الجدلي والحجاج الخطابي" على التوالي.

¹ ينظر: عبد الله البهلول، الحجاج الجدلي - خصائصه الفنيّة وتشكّلاته الأجناسيّة في نماذج من التراث اليونانيّ والعربيّ -، ص: 65-66. وينظر أيضاً: الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج في الأصول اليونانية، تق: محمد العمري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2014م، ص: 184-185. وينظر: هشام الرفي، الحجاج عند أرسطو، ص: 120-121.

² ينظر: هشام الرفي، الحجاج عند أرسطو، ص: 141، ص: 268. وينظر أيضاً: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 55-56.

2- الجنس المشاوريّ (Genre Délibératif): وهو نوع يختص بالخطابات السياسية ويتعلق بالمداولات الجماعية ومقامات النص، ويتأسس على قيم النافع أو الضارّ.

3- الجنس التثبيتيّ (Genre Épidictique): غرض هذا النوع هو التثبيت، ومجاله المحافل الجماهيرية والمناسبات الكبرى، وقد يكون مدحاً أو ذمّاً، كما أنّ هذا الجنس ينبني على قيم الجميل والقبيح.



المخطط رقم 07: الأجناس الخطابية الأرسطية

➤ أركان الخطابة الأرسطية:

ميّز "أرسطو" ثلاثة أركان للقول الخطبي، وهي عنده مُحصّلة للحجاج، إذ لا يتحقّق إلّا بتضافرها، وهذه الأركان هي: (Ethos – Pathos – Logos)، واعتبرها تصديقات¹ (Preuves)، أي مجموعة من الحجج، وحصرها في نوعين؛ تصديقات صناعية، وتصديقات غير صناعية، إذ يقول: «فأمّا التصديقات فمنها بصناعة، ومنها بغير صناعة. وقد أعني باللاتي بغير صناعة تلك اللاتي ليست تكون بحيلة مثلاً. لكنّ بأمور متقدمة كمثل الشهود، والعذاب، والكتب، والصكّك، وما أشبه ذلك. وأمّا اللاتي بصناعة، فما أمكن إعداده وتثبيتته على ما ينبغي بالحيلة، وبأنفسنا»²، أي: الحجج تنقسم إلى نوعين؛ منها الجاهزة (غير صناعية) لا يستطيع الخطيب صنعها، بل تكون موجودة. ومنها غير الجاهزة (صناعية) وهي الحجج التي يستكشفها الخطيب أو المتكلّم ويبتكرها، ويستغلّها في خطابه بحسب الهدف الذي يرمي إليه، ومنها ما يتعلق بالسامع، ومنها ما يكون بالخطاب نفسه.

¹ ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص: 145.

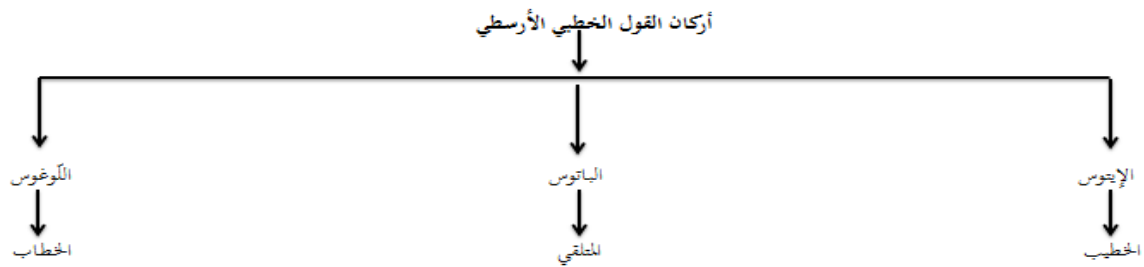
² أرسطو طاليس، الخطابة، تر: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، 1979م، ص: 09.

وتتمثل أركان الخطابة عند "أرسطو" في:¹

أ- الإيتوس (الخطيب أو الباث): هو أول الأركان الخطابية، إذ ينبغي عليه أن يكون موضع قبول عاطفي لدى المستمع إليه، أثناء بثّ الخطاب وتلقّيه، كما وجب على الخطيب الاتّصاف بالكفاءة، والتكيّف مع المقامات، حتّى يكون مقنعا في خطابه.

ب - الباتوس (المتلقي أو السامع): هو الطرف الثاني في العملية الخطابية، إذ يتمثل في مجموع الانفعالات التي يرغب الخطيب في إثارتها لدى السامع، وبمعنى أدقّ؛ فإنّ "الباتوس" يشمل المتلقي بكلّ أبعاده السيكلوجية والنفسية والثقافية والإيديولوجية.

ج - اللوغوس (الخطاب): هو شرط أساسي في عملية الإقناع والمحاجة، فإذا كان الخطاب قادرا على الاستدلال، ومبنيًا بناءً حجاجيا سليما، فإنّه سيؤثر لا محالة في المتلقي ويستميله.



المخطط رقم 08: أركان الخطابة عند أرسطو

إجمالاً لما تمّ عرضه من نماذج في الفكر اليوناني، يمكن القول إنّ الحجاج عندهم تمثّل في بداياته الأولى في المرافعة أمام المحاكم والقضاء، واعتمده في فلسفتهم ونظرتهم للحقيقة وقضايا الإنسان، إلى أن وصل الحجاج مع "أفلاطون"، و"أرسطو" بشكل خاص، بوصفه صناعة وآلية من آليات الخطابة التي بها تتم مناقشة الأفكار والآراء، قصد بلوغ غاية أسمى، هي المحاجة والإقناع.

¹ ينظر: محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005م، ص: 18. وينظر أيضا: محمد الولي، مدخل إلى الحجاج - أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان -، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج: 40، ع: 02، أكتوبر - ديسمبر 2011م، ص: 28-

ثالثا- الحجاج في الفكر العربي:

لم تُغفل الحضارة العربية اهتمامها بمبحث الحجاج في تراثها - حتى وإن لم نجد كمصطلح علمي قارّ وقائم بذاته-، ولا سيما في موروّثها البلاغي، على وجه الخصوص، إذ لم تكن البلاغة العربية بلاغة تنميق وتزويق فحسب، بل كانت بلاغةً إقناعية حجاجية، تتوسل الاستمالة والتأثير في مضامينها، وتجمع بين ما هو تخيلي وما هو إقناعي، وتزواج بينهما، فكان البليغ آنذاك «إذا أراد أن يُنشئ قصيدة أو مقالة أو خطبة فكَرَّ في أجزائها، ثم دعا إليه من الألفاظ والأساليب أخفها على السمع، وأكثرها اتصالاً بموضوعه، ثم أقواها أثرا في نفوس سامعيه وأروعها جمالا»¹.

وضمن هذا الطرح، سنقف على نماذج لعلماء من التراث العربي أسهموا في إثراء الدرس الحجاجي، ونخصّ بالذكر: "ابن وهب" - "الجاحظ" - "حازم القرطاجني" - "ابن حزم".

3-1- ابن وهب (ت 197هـ):

برزت بلاغة الحجاج عند "ابن وهب" من خلال كتابه (البرهان في وجوه البيان)، الذي عرّف فيه الجدل والمجادلة - وهو يقصد بهما في ذلك الحجاج-، إذ يقول: « يقصد بهما إقامة الحجّة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين»²، أي: يقع الحجاج حين يكون الاختلاف أو النزاع بين طرفين أو أكثر، فيسعى كلّ واحد منهما لإقامة الحجّة، والإتيان بالأدلة للبرهنة على ما يقال. ولم يقتصر "ابن وهب" على تحديد ماهية المصطلح فقط، بل حدّد أيضا أربعة وجوه للبيان التي بها يتحقق الإقناع والتأثير، وفي ذلك يقول: « البيان على أربعة أوجه، فمنه بيان الأشياء بذواتها، وإن لم تُبن بلغاتها، ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر واللّب، ومنه البيان باللسان، ومنه البيان بالكتاب الذي يُلغ من بُعد وغاب»³.

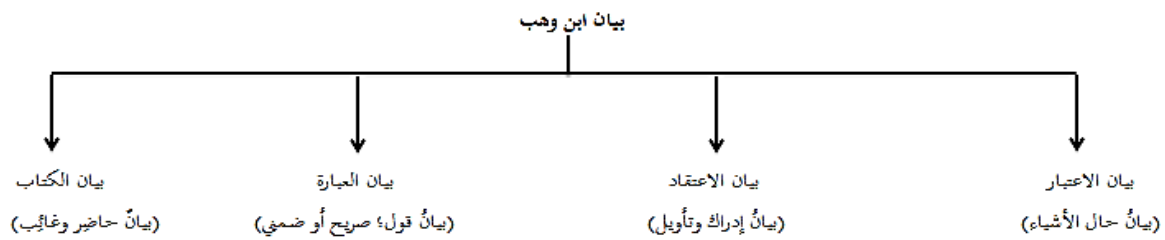
¹ مصطفى أمين، علي الجارم، البلاغة الواضحة -البيان، المعاني، البديع- للمدارس الثانوية، دار المعارف، مصر، دط، دت، ص: 09.

² ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: حفي محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، دط، 1969م، ص: 176.

³ م ن، ص: 56.

حيث أطلق على النوع الأول تسمية (بيان الاعتبار)؛ وهو بيان الحال، حال الكائنات والأشياء، ومشاهد الطبيعة وتأثيرها على الإنسان، فإذا حصل هذا البيان للمتفكر صار عالماً بمعاني الأشياء. والنوع الثاني يُسمّيه (بيان الاعتقاد)؛ وهو بيان يحصل في القلب غير مُتعدّد للغير عند إعمال الفكر واللب، وهو قائم أصلاً على كيفية فهم وإدراك وتأويل الإنسان للأشياء؛ أمّا النوع الثالث يُسمّيه (بيان العبارة)؛ وهو الذي يكون بالقول، وتارة نجده ظاهراً لا يحتاج إلى تفسير، وأحياناً باطناً يُتوصل إليه بالقياس والاستدلال. في حين النوع الرابع (بيان الكتاب)؛ لا يقتصر على الشاهد والحاضر فقط، بل يشمل الغائب أيضاً.¹

ومنه يتّضح أنّ هذه الوجوه الأربعة للبيان تستند إلى الاستدلال وإعمال العقل والفكر، فكيفية فهم الأشياء ومشاهد الطبيعة، لا يتم إدراكها وبيان حالها إلّا بواسطة العقل والحواس (بيان الاعتبار)، وبهذا العقل نتبين الأشياء ونقتنع بها أولاً، ومن ثمّ نُقنع ونحاجج بها ثانياً، وفي هذا الصدد يقول "عبد اللطيف عادل": «لم يكن "ابن وهب" يفصل بين العقل والبيان، ودليل ذلك مقدمته المستفيضة حول العقل والإعلاء من قدره. فالبيان ناجم عن إعمال الإنسان النظر العقلي في الأشياء، والأشياء دليل العقل، ولا بيان بدون دليل عقلي (...) وهكذا يظهر أنّ منشأ البيان عند "ابن وهب" إقناعي، بحيث لا يقوم إلّا بدليل أو شاهد».²



المخطط رقم 09: أنواع البيان عند ابن وهب

¹ ينظر: م. س، ص: 56-58. وينظر أيضاً: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 69.

² عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 71-72.

3-2- الجاحظ (ت 255 هـ):

إذا كان "ابن وهب" قد حصر "البيان في وجوه أربعة، فإنّ بيان "الجاحظ" قد ضبطه في وجوه* خمسة هي: (اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال أو النُصبة)، وعَرَّف بيانه بأنّه: «اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محسوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أيّ جنس كان الدليل؛ لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع؛ إنّما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع».¹

يتضح من هذا التعريف، أنّ البيان مفهوم شامل وأوسع من مفهوم "ابن وهب" للبيان يُعنى بوظيفتي الفهم والإفهام، وهما أساس بيانه وبلاغته، إذ بهما نكشف عن الغامض والمبهم، وتوضح المعاني، ويستقيم الكلام، ويحدث التأثير في المتلقي، فيُصبح حينئذٍ البيان مفهوماً تداولياً تواصلياً، في مقامات ومواضع مُعيّنة، غايته الإفهام والإقناع. وهو ما أكّده "محمد العمري" بقوله: «مفهوم البيان عند الجاحظ مفهوم إجرائي، أي أنّه العملية الموصلة إلى الفهم والإفهام في حالة اشتغالها».²

كما يُعدُّ مؤلّف "الجاحظ" (البيان والتبيين) قطب التأليف الأدبي لديه، ومعدن تفكيره البلاغي وملاحظاته البيانية³ - على حدّ تعبير "حمادي صمود" -، والأساس الذي بنى عليه مفهومه للبيان، وربط فيه البلاغة بالإقناع، وركّز من خلاله على وظيفتي الفهم والإفهام - أشرنا إليهما -، فضلاً عن ذلك اهتمّ "الجاحظ" بـ (المقام) ودوره في عملية الإقناع؛ إذ وجب على المتكلّم مراعاة قدر مخاطبيه، ومنزلتهم الاجتماعية، فالوضعيات تختلف والراتب تتباين والأفهام تتفاوت⁴، لذلك ينبغي

* للتوسع في هذه الوجوه، انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، لبنان، دط، دت، ج: 01، ص: 76.

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، ج: 01، ص: 76.

² محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2010م، ص: 191.

³ ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب - أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة) -، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، السلسلة السادسة: الفلسفة والآداب، مج: 21، منشورات الجامعة التونسية، 1981م، ص: 145.

⁴ ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 66.

على المتكلم المواءمة بين طبقات القول وطبقات أحوال المستمعين، لأنّ مدار الإفهام قائم في قدرة المتكلم على أن يجعل «لكلّ طبقة كلاماً، ولكلّ حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»¹، أي: البيان تتسع دائرته وتضيّق بحسب المقام الذي يرد فيه، فلذلك وجب مراعاة أقدار الكلام والمعاني والمقامات وأقدار المستمعين.

وعليه، نخلص إلى أنّ مشروع "الجاحظ" انبنى على مراعاة هذه الأقدار (المقام)، بالإضافة إلى الوظيفة المركزية؛ وهي الفهم والإفهام.

3-3- حازم القرطاجني (ت 684 هـ):

يُعَدُّ "حازم القرطاجني" من أنصار البلاغة العامة - سبقت الإشارة لذلك - الذين سعوا إلى الجمع بين الجمالية والإقناعية، وبين التخيل والتداول، من خلال مؤلفه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، الذي رسم فيه حدود البلاغة، وبيّن مواطن الاشتراك والاختلاف بين الشعر والخطابة، إذ يقول: «التخيل هو قوام المعاني الشعرية والإقناع هو قوام المعاني الخطابية. واستعمال الإقناع في الأقاويل الشعرية سائغ، إذا كان ذلك على جهة الإلماع في الموضوع بعد الموضوع. كما أنّ التخيل سائغ استعمالها في الأقاويل الخطابية في الموضوع بعد الموضوع. وإنّما سائغ لكليهما أن يُستعمل يسيراً فيما تتقوّم به الأخرى، لأنّ الغرض في الصناعتين واحد، وهو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحلّ القبول لتتأثر لمقتضاه، فكانت الصناعتان مُتَوَاحِيتَيْن لأجل اتفاق المقصد والغرض فيهما. فلذلك سائغ للشاعر أن يخطب لكنّ في الأقلّ من كلامه، وللخطيب أن يشعر لكنّ في الأقلّ من كلامه»²، وفي موضع آخر يقول: «لأنّ صناعة الشعر لها أن تستعمل شيئاً من الإقناع، كما أنّ صناعة الخطابة لها أن تستعمل شيئاً يسيراً من المتخيّلات»³.

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، ج: 01، ص: 138.

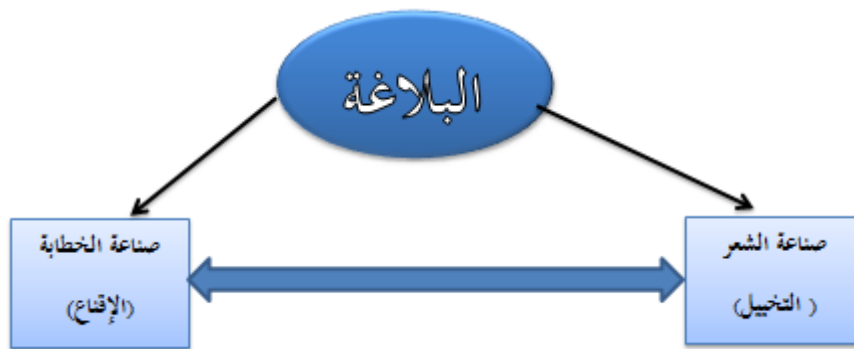
² حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986م، ص: 361.

³ م ن، ص: 347.

المقصود من القولين: هو إنّ البلاغة عند "القرطاجني" تشتمل على صناعتين، هما: صناعة الشعر وصناعة الخطابة، وقوام الأولى هو التخيل، أمّا قوام الثانية هو الإقناع، ولكنّ يُمكن للأولى أن تتداخل وتستند على قوام الثانية، والعكس صحيح، إذ لا مانع من استعمال التخيل في الخطابة، أو استعمال الإقناع في الشعر، لأنّ الغاية واحدة ومشتركة، وهي تحقيق الحجاج والإقناع، فمتى اجتمع الإمتاع مع الإقناع، كان وقع الكلام على النفس أقوى وأبلغ.

لتكون هذه المزاوجة بين الطرفين الشعر (التخيل) والخطابة (الإقناع) هي المسعى الذي أراد "القرطاجني" بلوغه، وهو ما أكّده "مصطفى الغرافي" - بقوله عن "القرطاجني" -: «حاول البحث عن أرضٍ جديدة يُجرب فيها اختياراته البلاغية حتى يُحقق لمشروعه ما يطمح إليه من جدّة وفراة، فتجاوز البحث في ظواهر البلاغة لينشغل بما وراء هذه الظواهر من خفايا ودقائق. ولذلك يمكن اعتبار مشروع حازم، مغامرة جريئة تتجه لبناء معطيات نظرية وتأسيس مواقف وتصورات تتسم بكثير من الجهد، من أجل الانفلات من أسر التقليد والتبعية، لإنشاء مقارنة اجتهادية لا تستكين إلى الجاهز، وإنما تعمل بإصرار لابتكار طريق خاص في التفكير يتميز بالطابع الاجتهادي والتأصيلي، كأسلوب مساعد في بناء نظر بلاغي خلاق ومبتكر»¹.

يمكن أن تُمثّل للمشروع البلاغي لدى "القرطاجني" بالخطاطة التالية:



المخطط رقم 10: أنواع البلاغة عند القرطاجني

¹ مصطفى الغرافي، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال منهاج البغاء وسراج الأدباء (مشروع قراءة)، ضمن كتاب: التداوليات وتحليل الخطاب، إشراف: حافظ إسماعيل علوي، منتصر أمين عبد الرحيم، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 1435هـ-2014م، ص: 424.

3-4- ابن حزم الأندلسي (ت 456 هـ):

يُعدُّ من بين أهمّ المفكرين في (القرن الخامس الهجري)، اشتهر بالسجال والجدال والحجاج من خلال المناظرات، لدرجة أنّه أصبح يناظر كلّ شخص يقابله، ذلك أنّ المناظرة والحجاج هما الحدّ الفاصل بين الصدق والكذب، وبهما تُبنى الحقيقة، ويُدافع عن العقيدة، وقد مارس "ابن حزم" الحجاج وعَرَضَ له من خلال موسوعته (الفصل في الملل والأهواء والنحل*)، التي اتّسمت بطابع حجاجي في معظم فصولها، واحتوت على أدلة عقلية كانت بمثابة ممارسة للاحتجاج ضدّ خصومه.¹ ولا سبيل من وجهة نظره إلى نُصرة الحق والدين إلّا بالحجّة، ويقول "ابن حزم" في هذا الشأن: «قد تُهزم العساكر الكبار والحجّة الصحيحة لا تُغلب أبداً، فهي أدعى إلى الحقّ وأنصر للدين»².

خلاصة لما عُرِضَ من نماذج في الحضارة العربية، نقول؛ إنّ البلاغة العربية لم تكن للزينة والجمالية فحسب، بل كانت غايتها إحداث التأثير والإقناع، وهذا ما لمسناه مع بيان "ابن وهب" وبيان "الجاحظ"، وسجال "ابن حزم" وجداله، أمّا "حازم القرطاجني" فيمكن اعتبار محاولته في المزاجية بين الشعر والخطابة، أهمّ الدراسات البلاغية العربية التي اجتهدت في النهوض بيقظة البلاغة إلى فضاء أوسع وأرحب وأكثر شمولية، حيث فنّدت دراساته تلك المسلّمة القائلة بوجود تنافر بين ما هو تخيلي وما هو إقناعي، وقُلّصت المسافة بينهما.

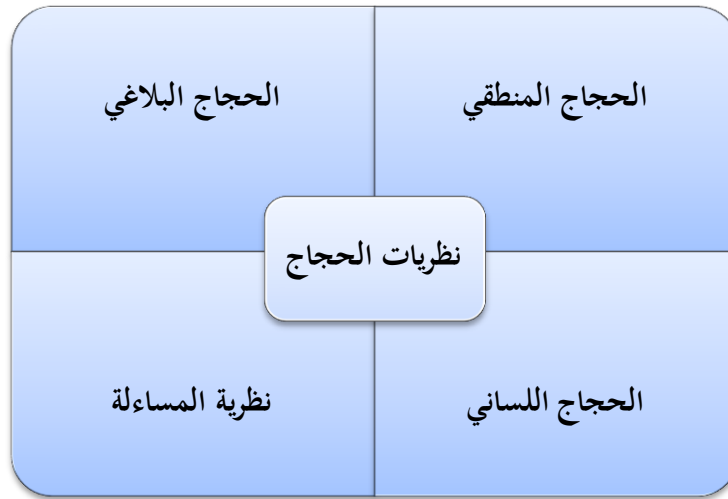
* للاطلاع على الموسوعة، انظر: ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تح: محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمن عميرة، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.

¹ ينظر: محمد آيت حمو، ابن حزم فارس الحجاج في الغرب الإسلامي، ضمن كتاب: التحايج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تن: حمو النقاري، سلسلة: ندوات ومناظرات، رقم 134، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط1، 1427هـ - 2006م، ص: 127 - 129.

² ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، تح: الشيخ أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1983م، ج: 01، ص: 23.

رابعاً- نظريات الحجاج (Théories de L'argumentation):

مما لا شكّ فيه أنّ الحجاج برز كنظرية قائمة بذاتها _إن على مستوى التنظير أو الممارسة _، مع الأرسطيين الجدد (كبيرلمان، تيتيكا، ديكرو، وغيرهم...)، الذين أعادوا إحياء البلاغة الأرسطية، وفق رؤية معاصرة (البلاغة الجديدة)، فضبطوا مفهوم الحجاج ووضعوا له آليات وتقنيات حجاجية، قابلة وقادرة على مقارنة مختلف الخطابات، حتى أصبح الحجاج صرحاً معرفياً، وحقلاً علمياً حاضراً في جميع أنواع المعارف الإنسانية على حدّ تعبير "العزاوي": «لا تواصل من غير حجاج»¹. ومن النظريات التي ارتأينا الوقوف عندها - بوصفها عماد موضوع الحجاج-، ما يلي:



المخطط رقم 11: نظريات الحجاج

1- الحجاج المنطقي (Argumentation Logique) :

تناول هذا النوع من النظريات الحجاج من زاوية منطقية، ومن أهمّ رواده:

✓ ستيفن تولمين (Stephen Toulmin):

برز الدرس الحجاجي مع "تولمين" من خلال مؤلفه (استعمالات الحجاج Les Usage de L'argumentation)، سنة (1958)، والذي عرض فيه موقفه من العلاقة بين الشعر والحجاج،

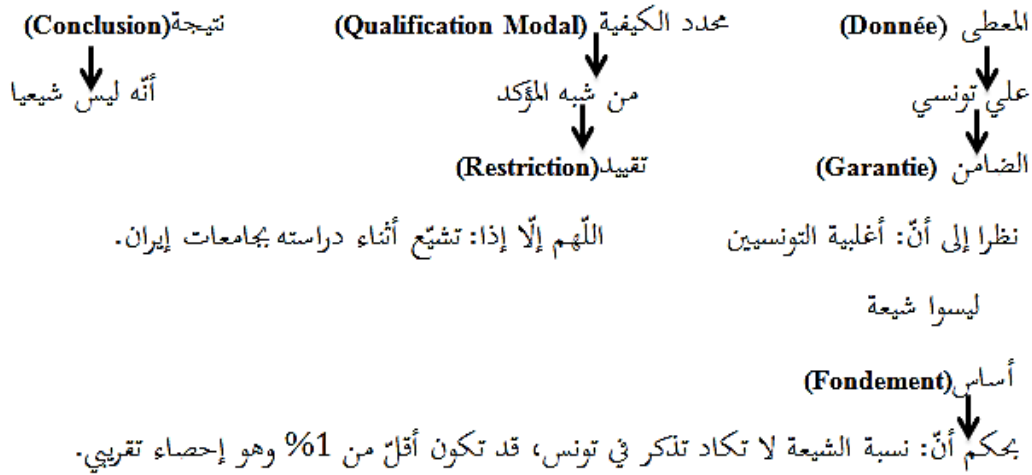
¹ أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص: 12.

ولخصه في علاقة التعارض، وفق المعادلة التالية: (الحجاج $\neq$ الشعر)¹، كما تبين "تولمين" المنطق الطبيعي، وهو في نظره؛ نظام تبريري ينشأ من العلاقة بين الحجج والنتائج، ويهتم بالحجج التي تُقدّم من أجل شرعنة مقبولة النتائج، لكونها قابلة للتبرير، وهو ما يرفضه المنطق الرياضي الصوري².

أما الأساس الذي ارتكز عليه "تولمين" في بناء حججه هو (الخطاطة الحجاجية - Schématisation) التي تفترض وجود مواضع مشتركة وقواسم معرفية بين أطراف الحجاج وهي أساس منطق الخطاب، وتكون نتيجة مجموعة من العمليات المنطقية الخطابية، فهي من جهة: منطقية؛ لأنها عمليات صادرة عن بنية الفكر، ومن جهة ثانية: خطابية؛ لأنها ترتبط بالخطاب ذي اللغة الطبيعية³.

وبناء على "الخطاطة الحجاجية" حدّد "تولمين" مفهومه للحجّة (Argument) بأنها: « الترتيب المنظم لمعطيات (D) ، أثّرت من أجل تدعيم نتيجة ما(C) ، هذه النتيجة يمكن أن تكون موضوعا محددًا لهيئة (Q) ، ويتم المرور من المعطيات إلى النتيجة بفضل الضامات (G) ، التي يمكن أن تُقابل بعض القيود(R) ، هذه الضامات بدورها تعتمد على أساس(F)»⁴.

لتوضيح هذا التعريف، نستدلّ بالمثال الذي عرضه "عبد الله صولة"⁵:



¹ ينظر: م س، ص: 36.

² ينظر: محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص: 59.

³ ينظر: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 49 - 51.

⁴ Stephen Toulmin, The Uses of Argument, Cambridge, University Press, England, 3ed, 2003, P: 16

⁵ ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص: 25.

نلاحظ من خلال المثال، أنّ (الضامن) هو بمثابة الحجّة التبريرية التعليلية - ذلك أنّ المنطق عند "تولمين" نظام تبريري، كما ذكرنا آنفاً - ، التي منعت (كون عليّ شيعياً). وما يمكن استنتاجه عموماً، هو أنّ نموذج "تولمين" الذي بنى أساسه وفق الخطاطة الحجاجية، هو أقرب إلى الترميز الرياضي المنطقي (البرهاني)، أكثر منه إلى الحجاج الاحتمالي.

2- الحجاج البلاغي (Argumentation Rhétorique):

أرسى دعائم هذه النظرية ومعالمها، كلّ من "بيرلمان" (Perelman) و"تيتيكا" (Tyteca)، من خلال مؤلّفهما المشترك (المصنّف في الحجاج - الخطابة الجديدة، *Traite de L'argumentation- La Nouvelle Rhétorique*)، الذي ظهر سنة (1958)، وكانت الغاية من الكتاب إخراج الحجاج من دائرة "الخطابة" وكذلك "الجدل" الذي ظلّ لفترات طويلة مرادفاً للمنطق نفسه. فقد عمّل الباحثان من ناحية: على تخليص الحجاج من التهمة اللائطة بأصل نسبه - الخطابة -؛ وهذه التهمة هي تهمة المغالطة والمناورة والتلاعب بعواطف الجمهور وب عقله أيضاً، ودفعه إلى القبول باعتباطية الأحكام، ومن ناحية ثانية: العمل على تخليص الحجاج من صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في ضرورة وخضوع، لأنّ الحجاج عندهما معقولة وحرية¹، في مجال المحتمل الممكن لا البرهان الصارم. وهذا ما يعني أنّ البلاغة الجديدة عند "بيرلمان" و"تيتيكا" لم تكن مجرد استنساخ للمقولات التقليدية في بلاغة "أرسطو"، بل كانت مشروعاً فكرياً جديداً ومجدّداً ومتجدّداً².

أمّا موضوع الحجاج والغاية منه -أشرنا إليهما من قبل- عند "بيرلمان" و"تيتيكا"، تتمثل في دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم والإذعان لما يُعرض عليها من أطروحات، أو الزيادة في ذلك الإذعان، بشكل يبعث على العمل المطلوب أو الإمساك عنه³. وقد

¹ ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنّف في الحجاج - الخطابة الجديدة - لبيرلمان وتيتيكا، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشر: حمادي صمود، ص: 298.

² ينظر: حسن المودن، بلاغة الحجاج الحجاج بالإيطوس والباطوس -بحوث وترجمات-، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1443هـ - 2022م، ص: 14 - 15.

³ Voir :Chaim Perelman et Lucie OlbrechtsTyteca, Traite L'argumentation - la Nouvelle Rhétorique, P: 05, P: 59

اهتم الباحثان أيضا (بالمستمع - Auditoire)، إذ لا وجود لإقناع بدون هذا الطرف، ذلك أنّ الخطابات في النهاية، تُوجّه إلى كلّ أنواع المستمعين، سواء تعلّق الأمر بجمهور مجتمع، أم بشخص واحد، أم بكلّ الإنسانية¹.

هذا المستمع من منظور الباحثين، يُقسّم إلى:²

- المستمع الخاص (Auditoire Particulier): متعدّد، وقد يكون الخطيب نفسه، أو مخاطبًا واحدًا، وقد يكون جماعة قليلة أو كثيرة، فهو إذن مُستمعات متنوعة بشكل لا نهائي لا سبيل لحصره.
- المستمع الكوني (Auditoire Universel): وهو واحد، يتكون من كلّ كائن عاقل، كلّ كائن قابل لأن يُصدّق بخطاب معقول، تُسنده بعض الحجج التي تُخاطب العقل، بحيث يقبل بها كلّ شخص يُفكر بشكل طبيعي.

أ - أنواع الحجاج:

قسّم المؤلفان الحجاج إلى نوعين بحسب الجمهور، هما:³

- الحجاج الإقناعي (L'argumentation Persuasive): هدف هذا الحجاج هو إقناع جمهور خاص (المستمع الخاص).
- الحجاج الاقتناعي (L'argumentation Convaincante): هو حجاج يرمي إلى أن يُسلم به كل ذي عقل (المستمع الكوني).

ب - خصائص الحجاج عند بيرلمان (الملاح):

يتميز الحجاج في هذه النظرية بملاح رئيسة، تتمثل في:⁴

¹ ينظر: شايم بيرلمان، لوسي ألبرخت تيتيكا، المصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة -، تر: محمد الولي، ص: 48.

² ينظر: شايم بيرلمان، الإمبراطورية الخطابية - صناعة الخطابة والحجاج -، تر: الحسين بنو هاشم، ص: 12 - 13.

³ ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة - لبيرلمان وتيتيكا، ص: 301.

⁴ ينظر: أوليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟، تر: محمد العمري، ضمن كتابه: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 220.

- 1- يتوجه إلى مُستمع: بمعنى أنّ المستمع هو العنصر والركيزة الأساسية في عملية الحجاج، إذ الغاية من الحجاج هي إقناع هذا المستمع (المتلقي) واستمالاته.
 - 2- يُعبّر عنه بلغة طبيعية: واللغة الطبيعية هي لغة الحجاج العادية التي تُستعمل للتواصل بين الأفراد، بعيدا عن اللغة المنطقية الصارمة.
 - 3- مُسلّماته لا تعدو أن تكون احتمالية: والمسلّمات ها هنا، هي المقدمات التي ينطلق منها الخطاب الحجاجي.
 - 4- لا يفتقر تقدّمه إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة: أي؛ الحجاج لا ينفي الاستدلال والتسلسل المنطقي، بل يخضع له، لكنّ بطريقة غير صارمة، عكس البرهان.
 - 5- ليست نتائجه مُلزّمة: أي؛ النتائج المتوصل إليها تكون محتملة ومُرجحة غير يقينية.
 - ج- مقدمات الحجاج (Des Prémisses): هي عماد الحجاج ونقطة انطلاقه، ومسلّمات يقبل بها الجمهور، إذ على الخطيب أن ينطلق من مقدمات مقبولة ومعانٍ متّفق عليها، لإيقاع التصديق عند مَنْ يودّ إقناعهم، وحملهم على الإذعان، وهي فئتين: إحداها متعلّقة بالواقع (Le Reel)؛ كالحقائق والحقائق والافتراضات، أمّا الثانية فمدارها على المُفضّل (Le Préférable)؛ الذي يشمل القيم ومراتبها والمواضع¹.
- تتمثل هذه المقدمات، في²:

¹ ينظر: شايم بيرلمان، لوسي أولبرخت تيتيكا، المصنّف في الحجاج -الخطابة الجديدة-، تر: محمد الولي، ص: 161-162. وينظر أيضا: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج -الخطابة الجديدة- لبيرلمان وتيتيكا، ص: 308.

² تم الاطلاع في ذلك على: شايم بيرلمان، لوسي أولبرخت تيتيكا، المصنّف في الحجاج -الخطابة الجديدة-، تر: محمد الولي، ص: 163-184. و: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج -الخطابة الجديدة- لبيرلمان وتيتيكا، ص: 308-310. و: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 87-88. و: محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة -بحث في بلاغة النقد المعاصر-، ص: 111-113.

1/ الوقائع (Les Faits): ثابتة لا تكون عرضة للدحض، وتصلح لأن تكون نقطة انطلاق للحجاج، فهي تُمثّل ما هو مشترك بين عدّة أشخاص، أو بين جميع الناس، وتنقسم إلى: وقائع مشاهدة معاينة من ناحية، ووقائع مفترضة من ناحية أخرى.

2/ الحقائق (Réalités): هي أنظمة يعمد إليها المحاجج للربط بين الوقائع، ليمنح حجاجه بداية قويّة نافذة، وتتأسس الحقائق على نظريات علمية ومفاهيم فلسفية، أو دينية (حقائق دينية مفارقة ومتعالية عن التجربة).

3/ الافتراضات (Les Présomptions): تتمتع أيضا بالموافقة العامة، لكنّ الإذعان لها والتسليم بها لا يكونان قويين، لأنّها ليست ثابتة، بل متغيّرة تبعًا للوسط والمقام والمتكلّم والسامع (أو السامعين).

4/ القيم (Les Valeurs): هي عنصر أساس من عناصر الحجاج، إذ يُعوّل عليها في جعل السامع يُدعّن لما يُطرح عليه من آراء، وفي دفعه إلى الفعل المطلوب. وهي نوعان: قيم مجردة (كالعدل، والحق...)، وقيم محسوسة؛ وهي تلك التي ترتبط بكائن حيّ، أو مجموعة محدّدة، أو شيء خاص (كالوطن، أماكن العبادة...).

5/ الهرميات (Les Hiérarchies): تُسمّى أيضا (بالمراتب)، حيث تخضع القيم لهرمية معيّنة، كالجميل مثلا؛ نجده درجات، وغير ذلك. وهي نوعان: مجردة (من قبيل: اعتبار العدل أفضل من القيم الأخرى، كالنافع مثلا)، ومادية محسوسة (كاعتبار الإنسان أعلى درجة من الحيوان، والإله أعلى درجة من الإنسان).

6/ المواضع (Les Lieux): هي مقدّمات أشمل وأعمّ من كلّ العناصر السابقة، وتوصف بأنّها مستودعات للحجج؛ تُستعمل للاستدلال الحجاجي، ويتولد منها عدد لا متناهٍ من المقدّمات. وتنقسم المواضع* إلى:¹

*قسّم "أرسطو" المواضع أيضا إلى مواضع مشتركة ومواضع خاصة. لتفصيل أكثر في النوعين، انظر: هشام الرفي، الحجاج عند أرسطو، ص: 295 - 296.

¹ ينظر: شايم بيرلمان، الإمبراطورية الخطائية - صناعة الخطابة والحجاج-، تر: الحسين بنو هاشم، ص: 102. وينظر أيضا: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 88.

- مواضع الكمّ (Lieux de Quantité): هي المواضع المشتركة التي تُثبت أنّ شيئاً ما أحسن وأفضل من شيء آخر، لأسباب كميّة (كالماء الأوفر أفضل من الماء الأقلّ، الكلّ خير من الجزء).
- مواضع الكيف (Lieux de Qualité): هي ضدّ الكمّ، من حيث إنّها نسيج لوحدها، فهي واحدة ضدّ جمع، وتستمدّ قيمتها من وحدانيّتها؛ (كالحقيقة التي يضمنها الله فهي واحدة في مقابل آراء البشر المختلفة، أو كالحقّ الذي لا يمكن إلّا أن يُعلوّ ولا يُعلّى عليه مهما كثر خصومه).
- مواضع الترتيب (Lieux de L'ordre): تُقرّر بأفضلية السابق على اللاحق (كالسبب على النتيجة).
- مواضع الوجود (Lieux de L'existant): تُؤكّد على أفضلية الموجود والواقعي، على الممكن والمحتمل والمستحيل.
- مواضع الجوهر (Lieux de L'essence): تُعطي الأفضلية لما يُجسّد بشكل أفضل نوعاً ما.
- مواضع الشخص (Lieux de la Personne): تستلزم إيلاء الأسبقية لما يُرتبط بكرامة الشخص واستقلاله.
- مواضع مشتركة (Lieux Communs): هي مواضع يُمكن تطبيقها على علوم عدّة؛ كالقانون والفيزياء والسياسة... إلخ.
- مواضع خاصة (Lieux Spécifiques): تكون وقفاً على علمٍ بعينه، أو نوع خطابي بعينه لا يتعدّاه إلى غيره.

صفوة القول، إنّ جلّ هذه المقدمات، هي بمثابة نقطة الانطلاق والأساس في إقامة الحجاج وتوجيه مساره، كما يتمّ اختيارها وفق مقامات ومواقف مخصوصة، تتطلب معارف مسبقة ومشتركة بين المحاجج والمتلقي، حتى يقع التصديق والإقناع.

د- الموجهات التعبيرية (Modalités D'expression):

من بين الأشكال والصيغ التعبيرية التي تضطلع بدور حجاجي في الخطابات _من منظور "بيرلمان" و"تيتيكا" _، نذكر:¹

1/ الموجه الإثباتي (Modalité Assertive): هو ملازم للحجاج، ومن شأنه أن يُستخدم في أيّ حجاج.

¹ ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج -الخطابة الجديدة- لبيرلمان وتيتيكا، ص: 321. وينظر أيضاً: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 91.

2/ الموجّه الإلزامي (Modalité Injonctive): صيغته اللغوية تتمثل في الأمر.

3/ الموجّه الاستفهامي (Modalité Interrogative): يحظى بقيمة خطائية كبيرة، كما يستدعي الاستفهام الذي يهدف إلى حمل مَنْ وُجّه إليه الاستفهام على إبداء موافقته.

4/ الموجّه بالتمني (Modalité Optative): مداره على الصيغ المفيدة تمنياً، وهذه الصيغ يستفاد منها الاعتماد على فكرة أو رأي ما.

هـ- التقنيات الحجاجية (Les Techniques Argumentatives): هي أشكال وطرائق حجاجية اعتمدها "بيرلمان" في مصنّفه، وهي نوعان: الطرائق الاتّصالية (الوصل)، والطرائق الانفصالية (الفصل).

أ- طرائق الوصل (Procedes de Liaison): هي الآليات التي تُقَرَّب بين العناصر المتباينة، وتُمكن من إقامة روابط علاقية بينها، من أجل دمجها وهيكلتها في بنية حجاجية متماسكة وواضحة وموحّدة، أو لغاية تقويم أحد هذه العناصر بواسطة الآخر تقويماً إيجابياً أو سلبياً¹. وتنقسم إلى:



المخطط رقم 12: أنواع الحجج في الطرائق الاتّصالية

¹ ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج -الخطابة الجديدة- لبيرلمان وتيتيكا، ص: 324. وينظر أيضاً: (نفس المؤلّف)، في نظرية الحجاج -دراسات وتطبيقات-، مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011م، ص: 81. وينظر أيضاً: محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة -بحث في بلاغة النقد المعاصر-، ص: 127.

1/ الحجج شبه المنطقية (Argument quasi-Logique) :

هي تلك الحجج التي تستمد قوتها الإقناعية من مُشابهتها للطرائق الشكلية والمنطقية والرياضية في البرهنة، غير أنَّها تختلف عنها في كونها تفترض دومًا تصديقًا بدعًا ذات طبيعة غير صورية، وهي وحدها التي تسمح باستخدام الحجّة¹. ومن أنواع الحجج المنطقية: الحجج شبه المنطقية القائمة على علاقات منطقية، الحجج شبه المنطقية القائمة على علاقات رياضية.

1-1- الحجج شبه المنطقية القائمة على علاقات منطقية (Arguments quasi-Logique Bases Sur des Relations Logique)

مجموعة من الحجج تعتمد علاقات منطقية، من أنواعها:²

• حجة التناقض (Contradiction) والتعارض (Incompatibilité) :

هو أن تكون قضيتان إحداهما نفي للأخرى، كأن يقال: (المطر ينزل ولا ينزل)، أمّا التعارض عدم الاتفاق بين ملفوظين؛ يتمثل في وضع الملفوظين على محكّ الواقع والظروف أو المقام لاختيار إحدى الأطروحتين وإقصاء الأخرى لكونها خاطئة، ومثال ذلك: (حال المدرّس الذي يُلقّن الأطفال ضرورة طاعة الوالدين وتجنّب الكذب، لكن ما العمل حين يأمر بالكذب، أو حين يُصدر الأب أو الأم أوامر متعارضة).

• حجة التماثل التام (Identité Totale) :

مدار التماثل التام على التعريف (Définition)، الذي يكون فيه المعرّف والمعرّف متماثلين لفظًا، كأن نقول: (المرأة هي المرأة، أو الرجل هو الرجل).

- والتعريف أنواع:

✓ تعريف معياري: تحكمه القاعدة وعمومها.

¹ ينظر: شاييم بيرلمان، الإمبراطورية الخطابية - صناعة الخطابة والحجاج -، تر: الحسين بنو هاشم، ص: 125. وينظر أيضا: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة - لبيرلمان وتيتيكا، ص: 325.

² ينظر: شاييم بيرلمان، الإمبراطورية الخطابية - صناعة الخطابة والحجاج -، تر: الحسين بنو هاشم، ص: 130 - 149. وينظر أيضا: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة - لبيرلمان وتيتيكا، ص: 325 - 329. وينظر أيضا: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 92 - 93.

✓ تعريف وصفي: يرتبط بسياق معيّن.

✓ تعريف تكثيف: وهو تعريف يؤشر على العناصر الأساسية فقط، ويركّز عليها.

✓ تعريف مرّكب: يجمع بين هذه الأنواع.

• الحجج القائمة على علاقات تبادلية (Arguments de Réciprocité):

تتمثل هذه الحجج في معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل من الأخرى معالجة واحدة، وهو ما يعني أنّ تلك الوضعيتين متماثلتان، وإن بطريقة غير مباشرة، مثل: (عامل الناس كما تُحبّ أن يُعاملوك) أو (ضع نفسك مكاني)، وهذا النوع من الحجج محكوم بقاعدة العدل (La Règle de Justice) بين الطرفين.

• حجج التعدية (Arguments de Transitivity):

تقوم على استنتاج علاقات انطلاقاً من توظيف عنصر ثالث يتم المرور عبره لتأكيد صدق العلاقة بين العنصرين الأول والثاني، فالعلاقة الموجودة بين (أ و ب) من ناحية و: (ب و ج) من ناحية ثانية، هي علاقة واحدة تسمح لنا باستنتاج العلاقة الموجودة بين (أ و ج)، ومن الأمثلة على ذلك: (عدوّ عدوّي صديقي)، إذ تسمح لنا هذه المقولة باستنتاج علاقة من قبيل: (صديق عدوّي عدوّي).

1-2- الحجج شبه المنطقية القائمة على علاقات رياضية (Arguments Bases Sur de Relation Mathématique):

هي حجج شبه منطقية تعتمد على العلاقات الرياضية - تدخل في باب المنطق الصوري-، أهمها:¹

• حجج الإدماج (إدماج الجزء في الكلّ أو تقسيم الكلّ إلى أجزائه):

إنّ حجّة الإدماج (Intégration) على نوعين: إدماج الجزء في الكلّ؛ على اعتبار أنّ الأول مندمج في الثاني، وأنّ ما ينطبق على الكلّ ينطبق على الجزء، من قبيل: (القاعدة الفقهية في تحريم

¹ ينظر: شايم بيرلمان، لوسي أولبرخت تيتيكا، المصنّف في الحجاج -الخطابة الجديدة-، تر: محمد الولي، ص: 368-373، ص: 382-390. وينظر أيضاً: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج -الخطابة الجديدة- لبرلمان وتيتيكا، ص: 330-331. وينظر أيضاً: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 93-94.

الخمير: ما أسكر كثيره، فقليله حرام). أمّا النوع الثاني؛ هو حجة التقسيم (Division)، أو التوزيع (Partition)، وتقوم على تقسيم الكلّ إلى أجزائه المكوّنة له، كقولنا: (الكلام: اسم وفعل وحرف).

• حجة المقارنة (Comparaison):

تُعدّ وسيلة يستعملها المحاجج عندما يُواجه طرفين أو عدّة أطراف، لذلك يلجأ إلى المقارنة لتقويم الأحداث والأشياء، بحيث تكون المقارنة بين معطيات متقاربة لا متباعدة، مثل: (المقارنة بين نقاط الطلبة في امتحانات موحدة؛ كالبكالوريا).

• حجة التضحية (L'argument du Sacrifice):

وهي من حجج المقارنة، يتأهب المرء لتحملها لأجل إدراك نتيجة ما، وهي حجة تقوم على إثبات وقياس قيمة شيء أو قضية معيّنة بالتضحيات المبذولة لأجل ذلك؛ (كالتضحية في سبيل الوطن).

2/ الحجج المؤسّسة على بنية الواقع: (Arguments Basés Sur La Structure du Réel)

هي حجج تستخدم الحجج شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلّم بها، وأحكام يسعى الخطباء إلى تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة ومسلّما بها، وذلك يجعل الأحكام المسلّم بها والأحكام غير المسلّم بها تنتمي إلى كلّ واحد يجمع بينها¹، أي: هي حجج مستوحاة من الواقع تحاول الربط بين أحداث متتابعة، وتنقسم هذه الحجج إلى:

- حجج الاتّصال التتابعي.

- حجج الاتّصال التوايدي.

¹ ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة - لبيلمان وتيتيكا، ص:

2-1- حجج الاتصال التساعي (Liaison de Succession):

يتّجه فيها الحجاج نحو البحث عن الأسباب وتقييم الأحداث بواسطة النتائج، ومن أهمّ وجوه الاتصال التساعي:¹

• الحجاج بالوصل السبي:

يتمثل في الربط بين الأحداث المتتابعة بواسطة علاقات سببية أو استخلاص نتيجة ما، بسبب حصول حدث أدّى إليها، ومن أضرب هذا الوصل:

- حجاج يرمي إلى الربط بين حدثين متتابعين بواسطة رابط سبي، مثل: (اجتهد فنَجح).

- حجاج يرمي إلى أن يستخلص من حدثٍ ما وقع، السبب الذي أحدثه وأدّى إليه، مثل: (نَجح لأنّه اجتهد).

- حجاج يرمي إلى التكهن بما سينجرّ عن حدث ما من نتائج، مثل: (هو يجتهد فسينجح).

• حجة التبذير (L'argument de Gaspillage):

تقضي هذه الحجة بالقول: بما أنّنا قد بدأنا في إنجاز هذا العمل وضحيّا في سبيله، فإنّ إعراضنا عن إتمامه، هو مضيعة لجهودنا، لذلك وجب مواصلة إنجاز ذلك العمل، أي ضرورة استكمال ما شرع في القيام به؛ (كاتخاذ قرار مواصلة الحرب رغم الهزائم المتتالية).

• حجة الاتجاه (L'argument de Directions):

تقوم أساسا على فكرة التحذير من اتباع سياسة التنازل في أمر ما، لأنّ سلسلتها إذا بدأت فلن تنتهي، وتُستعمل هذه الحجة في المفاوضات بين الدول عندما لا تريد الظهور بمظهر الاستسلام للقوة والتهديد.

¹ ينظر: شايم بيرلمان، لوسي أولبرخت تيتيكا، المصنّف في الحجاج -الخطابة الجديدة-، تر: محمد الولي، ص: 409-410، ص: 430-433، ص: 440. وينظر أيضا: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنّف في الحجاج -الخطابة الجديدة- لبيرلمان وتيتيكا، ص: 332-333. وينظر أيضا: محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة -بحث في بلاغة النقد المعاصر-، ص: 130.

• حجة التجاوز أو التخطي (Sauter):

تُلح على إمكانية المضي بعيدا في اتجاه محدد، فما عُدَّ عائقا هو مجرد وسيلة لبلوغ مستوى أعلى، ومن أجل التقدم والنمو (كالفضل في المرة الأولى قد يكون وسيلة للنجاح).

2-2- حجج الاتصال التواجدي (Liaison de Coexistence):

هي حجج تُقيم الصلة بين أشكال من الواقع متفاوتة في المستوى، ومن أهم وجوه الاتصال التواجدي:¹

• حجج الشخص وأعماله:

يشمل هذا النوع من الحجج أعمال وإنجازات الإنسان، فالشخص هو مُحمل المعلوم من أعماله، أي بتعبير أدق هو العلاقة بين ما ينبغي أن نعتبره جوهر الشخص، وبين أعماله التي هي تجليات ذلك الجوهر، مثل: (السمعة الطيبة التي يمتلكها الإنسان قد تصبح جوهر له).

• حجة السلطة (Argument D'autorité):

حجة تستمد قوتها الإقناعية من النفوذ الذي يمتلكه المتكلم، فقيمة القول في الأساس تُكتسب من سلطة قائلها، مثل: (السلطة التي يُمثلها الفلاسفة، الأدباء، وغيرهم).

• حجج الاتصال الرمزي (La Liaison Symbolique):

تقوم حجج الاتصال الرمزي على العلاقة بين الرمز والمرموز، والوصل الرمزي يقوم على الانتقال من الرمز إلى ما يرمز إليه، وهو وصل قائم على علاقتي المشاركة والتبرير وليس العلاقة الاعتبارية، لأن هذه العلاقة لا يمكن أن يعرفها إلا أفراد المجتمع الذي صاغ ذلك الرمز، وهذا ما يؤكد على أن للرموز خصائصها الثقافية والحضارية، مثل: (الصليب الذي يرمز إلى المسيحية).

¹ ينظر: شاييم بيرلمان، لوسي أولبرخت تيتيكا، المصنّف في الحجاج - الخطابة الجديدة -، تر: محمد الولي، ص: 447-449، ص: 463-464، ص: 497-498. وينظر أيضا: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة - لبيرلمان وتيتيكا، ص: 334-336. وينظر أيضا: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 94.

3/ الحجج المؤسسة لبنية الواقع (Les Arguments qui Fondent La Structure du Réel):

تؤسس هذه الحجج للواقع وتبنيه، وتقوم على مستويين: تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة، والاستدلال بواسطة التمثيل.

3-1- تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة:

من الحالات الخاصة:¹

• المثل (L'exemple):

يؤتى به لتأكيد الفكرة المطروحة، وهو وسيلة ناجعة للتعبير عن القيم والحقائق التي تختزل التجارب الإنسانية، وعادة يُستخدم المثل في الحالات التي لا توجد فيها مقدمات، كما يمكن للمثل أن يبيّن قاعدة تكون عامة وتُشكّل قانوناً، فيُستعمل حينها كقيمة رمزية أو بمثابة مسلمة قيمة تستجيب للقضايا المطروحة (كالأمثال في التراث العربي).

• الاستشهاد (Illustration):

إذا كانت الغاية من المثل تأسيس قاعدة، فإنّ الاستشهاد من شأنه أن يُقوّي درجة التصديق بقاعدة ما، لأنّ غايته تقوية الفكرة وتأكيد حضورها في الذهن (كالمقولات الدينية)، ومنه فإنّ المثل يُؤتى به للبرهنة وتأسيس قاعدة ما، أمّا الشاهد فيؤتى به للتوضيح.

• النموذج والنموذج المضاد (Le Modele et L'anti - Modèle):

حجّة النموذج مدارها على كائن نموذج، يصلح على صعيد السلوك لتأسيس قاعدة عامة أو دعمها، أو يصلح للحضّ على عمل ما اقتداءً به ومحاكاة له، ويُصطلح عليه: (النموذج القدوة)، أمّا النموذج المضاد، فهو عكس النموذج لا يصلح الاقتداء به، ومن الأمثلة على هذه الحجّة ما ذكره

¹ ينظر: شايم بيرلمان، لوسي أولبرخت تيتيكا، المصنّف في الحجاج - الخطابة الجديدة-، تر: محمد الولي، ص: 521-522، ص: 530، ص: 536-542. وينظر أيضاً: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة- لبيرلمان وتيتيكا، ص: 326-327، ص: 337-338. وينظر أيضاً: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 94.

"بيرلمان": (قال الأب لابنه الكسول: كان نابليون في مثل سنّك رأس فصله، فأجابه الابن: وفي مثل سنّك كان إمبراطورا).

3-2- الاستدلال بواسطة التمثيل (Analogie):

يُشكّل التمثيل أداة حجاجية هامة، حيث يرى المؤلفان أنّ التمثيل في الحجاج ينبغي أن تكون له مكانته باعتباره أداة برهنة، فهو ذو قيمة حجاجية، وتظهر قيمته الحجاجية حين ننظر إليه على أنّه تماثل قائم بين البنى، وصيغة هذا التماثل العامة هي أنّ: العنصر (أ) يُمثّل بالنسبة إلى العنصر (ب) ما يُمثله العنصر (ج) بالنسبة إلى العنصر (د)، ومعنى ذلك أنّ التمثيل مواجهة بين بُنى متشابهة، وإن كانت من مجالات مختلفة¹.

ومثال ذلك: قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت/ الآية: 41)، حيث نجد:²

أ = المشركون.

ب = أولياؤهم.

ج = العنكبوت.

د = بيتها.

فالعلاقة بين العناصر ليست علاقة تشابه، بل تشابه علاقة، وذلك أنّ علاقة (أ) ب (ب)، أي علاقة المشركين بأولياؤهم يعبدونهم ويعتصمون بهم، تُشبه علاقة (ج) ب (د)، أي علاقة العنكبوت ببيتها، حيث تبنيه وتعتصم به من المعتدي.

¹ ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج -الخطابة الجديدة- لبيرلمان وتيتيكا، ص:

339-340.

² ينظر: م ن، ص: 339-340.

ب- طرائق الفصل (Procédé de Dissociation):* تقنياتٌ حجاجية بُنيت على أساس الفصل وإحداث القطيعة بين عناصر تُشكّل عادةً كُلاً لا يتجزأ في نطاق نظام فكري واحد، لكن يُؤتى بالفصل لغايات حجاجية، وغالباً ما يستخدم هذا الفصل داخل المفهوم الواحد في الحدود والتعريفات، خصوصاً إذا جاءت هذه التعاريف تزعم تقديم معنى للمفهوم الحقيقي في مقابل معناه الظاهري الجاري به العرف والعادة¹.

كأن نقول: (القانون هو القانون)، فالتعريف في هذا التعبير يشير إلى أنّ هناك استخدامين للقانون؛ استخدام مُتساهل ومَرِن ينبغي مجانبته لأنّه انحراف وتزييف، واستخدام صارم ينبغي الالتزام به لأنّه الأصل الحقيقي²، ويمكن اعتبار التعريف في هذا المقام؛ حجة فصلت لنا المفاهيم الحقيقية للقانون عن غيرها من المفاهيم.

➤ فصل المفاهيم:

يتمثل في فصل المفاهيم إلى أزواج فلسفية من قبيل (المظهر/ الواقع، الوسيلة/ الغاية، النسبي/ المطلق، الخاص/ العام، اللغة/ الفكر....)، فمثلاً: العصا المنغطسة جزئياً في الماء تبدو منحنية، حينما ننظر إليها، ومستقيمة حينما نلمسها، إلّا أنّها في الواقع لا يمكن أن تكون في الآن ذاته مُنحنية ومستقيمة³، وعليه فإنّ هذا المثال يُجسّد لنا الزوج: (المظهر/ الحقيقة).

حوصلة لمشروع "بيرلمان" يمكن القول، بأنّه في تأسيسه لبلاغته الجديدة انطلق من المنطق الأرسطي، وهو ما تجلّى في تقنياته الحجاجية -بمختلف أنواعها- التي شابت الطرائق المنطقية إلى حدّ كبير، لكنّها في الآن ذاته سعت إلى تحقيق الإقناع وإيقاع التصديق والإذعان، هذا من جهة، كما

* لن نعتمد التفصيل في هذا النوع من التقنيات، لاعتبار واحد: أنّها ذات توجه فلسفي منطقي أكثر ممّا هو حجاجي لغوي، وهو ما لا يخدم موضوع بحثنا. ولتفصيل أكثر في طرائق الفصل، انظر: (الفصل الرابع من الجزء الثالث) في كتاب: المصنّف في الحجاج -الخطابة الجديدة-، لشاييم بيرلمان، لوسي أولبرخت تيتيكا، تر: محمد الولي.

¹ ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج -الخطابة الجديدة- لبيرلمان وتيتيكا، ص: 324، ص: 343-346.

² ينظر: محمد مشبال، محاضرات في البلاغة الجديدة، ص: 88-89.

³ ينظر: شاييم بيرلمان، لوسي أولبرخت تيتيكا، المصنّف في الحجاج -الخطابة الجديدة-، تر: محمد الولي، ص: 604.

أولى "بيرلمان" من جهة أخرى؛ اهتمامه بالمستمع لأنّ الخطاب -بطبيعة الحال- موجّه له وإليه. دون أن ننسى تلك المقدمات التي تعتبر نقطة الانطلاق في مسار الحجاج، وعماده؛ فإذا لم يكن بين المتكلم والمتلقي معارف ومقدمات مشتركة، فنجاعة الحجاج وغايته الإقناعية قد تؤول بالفشل.

الحجاج البلاغي							
الموضوع	الغاية	أنواع المستمع	أنواع الحجاج	الخصائص	مقدمات الحجاج	الموجهات التعبيرية	تقنيات الحجاج
دراسة تقنيات الخطاب	التسليم والإذعان	- مستمع خاص - مستمع كوني	- حجاج إقناعي - حجاج اقتناعي	- يتوجه إلى مُستمع - لغته طبيعية - مسلماته احتمالية - تسلسل منطقي غير صارم - نتائجه غير ملزمة	* على مدار الواقع: - الوقائع - الحقائق - الافتراضات * على مدار المفضّل: - القيم - الهرميات - المواضع	- الموجّه الإثباتي - الموجّه الإلزامي - الموجّه الاستفهامي - الموجّه بالتمني	- طرائق الوصل - طرائق الفصل

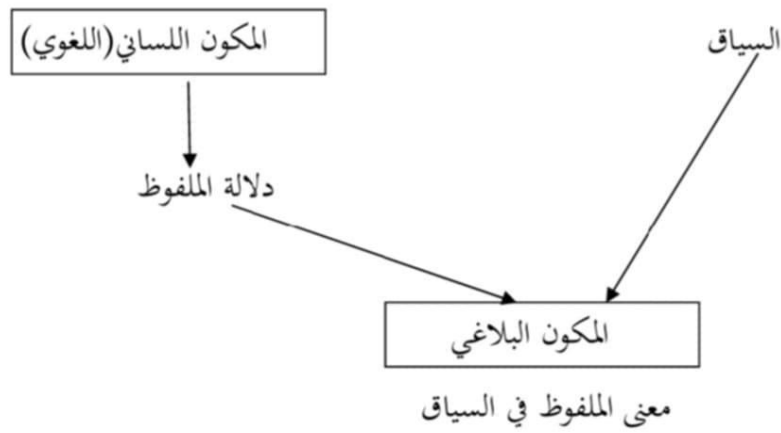
الجدول رقم 03: الحجاج البلاغي عند بيرلمان

3/ الحجاج اللساني (Argumentation Linguistique):

تأسست نظرية الحجاج اللساني على يد كلٍّ من "أوزفالدديكرو" (Oswald Ducrot) و"جون كلود أنسكومبر" (Jean-Claude Anscombre) من خلال مؤلفهما المشترك (الحجاج في اللغة - L'argumentation dans la Langue)، إذ عمل الباحثان على رفض التصور القائل بفصل الدلالة عن التداولية، وقالاً بفكرة الدمج بينهما، وهو ما يُعرف "بالتداولية المدججة"¹ (La Pragmatique)

¹ ينظر: شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ص: 351.

(Intégrée)، ويقصد بها: «دمج الظواهر التداولية في صميم الدراسة الدلالية اللسانية»¹، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإنّ التداولية المدججة* تربط أيضا بين «جملة من المعطيات اللغوية التي تعود إلى المكوّن اللغوي وجملة من المعطيات غير اللغوية التي تعود إلى المكوّن البلاغي»²، أي ضرورة التآلف بين المكوّنين ؛ فالمكوّن اللغوي دلالة الملفوظ فيه مؤشر لها في بنية اللغة ذاتها، أمّا المكوّن البلاغي فيشمل معاني الملفوظات اللغوية في مقامات وسياقات معيّنة. ومثّل "ديكرو" لذلك ب:³



وانطلاقا من مفهوم التداولية المدججة شرع "ديكرو" في تحديد وظيفة اللغة، بأنّها ذات وظيفة حجاجية- لا إخبارية- مؤشر لها في بنية اللغة ذاتها، ذلك أنّ اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية (Intrinsèque) وظيفة حجاجية، وكلّ النصوص والخطابات التي تُنجز بواسطة اللغة الطبيعية - غير الصورية- حجاجية بامتياز، لكن مظاهر الحجاج وطبيعته ودرجته تختلف فيها من نصّ لنص، ومن خطاب لآخر.⁴

¹J.C Anscombe et O.Ducrot, L'argumentation dans la Langue, P: 20.

*فصل "ديكرو" في مفهوم التداولية المدججة، وعلاقة المكوّن البلاغي بالمكوّن اللغوي... ومصطلحات أخرى من قبيل: الجملة، المعنى، الدلالة، القول، إلقاء القول، وغيرها. وحتى لا نخرج عن مبتغانا من هذه النظرية -نقصد آليات الحجاج اللساني- تجنّبا الخوض في مفاهيم هذه المصطلحات.

²شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ص: 354.

³Voir: O. Ducrot, Dire et Ne Pas Dire, Principes de Sémantique Linguistique, Éditions Hermann, Paris, 1972, P: 111.

⁴ينظر: أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص: 11- 12.

أما مفهوم الحجاج في هذه النظرية يتمثل في تقديم مجموعة من الحجج المؤدية إلى مجموعة من النتائج صريحة كانت أو ضمنية - وقد وقفنا على ذلك سابقا في المفهوم الاصطلاحي للحجاج-، كما تبين "ديكرو" منطقا خاصا لحججه، هو المنطق الطبيعي (Logique Naturelle)، ومن خلاله ميّز بين نوعين من اللغات هما: اللغة الصورية واللغة الطبيعية؛ فالأولى قائمة على الترميز الرياضي الصارم، أما الثانية؛ فمؤشّر لها في بنية القواعد الداخلية للخطاب، أي في بنية اللغة ذاتها، وهي منطق للحجاج¹.

➤ خصائص الحجج اللغوية: إنّهّا²:

- سياقية: فالأقوال تكون إمّا حجّة أو نتيجة حسب السياق الذي ترد فيه.
- نسبية: والنسبية تتمثل في قوّة الحجّة أو ضعفها، إذ لكلّ حجّة قوّة حجاجية معيّنة (حجج قوّة وحجج ضعيفة).
- قابلة للإبطال: أي ليست حتمية.

3-1- آليات الحجاج اللساني (Mécánismes D'argumentation Linguistique):

ارتكزت نظرية الحجاج اللساني على جملة من الآليات والوسائل، أهمّها: القرائن الحجاجية، السلام الحجاجية، المواضع الحجاجية.

أ- القرائن الحجاجية (Marqueurs Argumentatifs):

تنقسم القرائن إلى روابط حجاجية وعوامل حجاجية.

1/ الروابط الحجاجية (Les Connecteurs Argumentatives):

لا يخلو أيّ نص، بل أيّ لغة من اللغات من أدوات الربط، بوصفها وسيلة أساسية في التعبير وانسجام الخطاب، سواء أكانت روابط وصل أو فصل، وقد أولى "ديكرو" اهتمامه بالربط

¹ ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والمنطق -مدخل نظري-، مكتبة الأدب المغربي، مطبعة طوب بريس، الرباط، المغرب، 2014، ص: 29، ص: 32- 33.

² ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص: 19- 20.

الحجاجي، فهو عنده «صُريفة تصل ملفوظين أو أكثر، تمّ سوقها ضمن استراتيجية حجاجية بعينها»¹، أي: هو مكوّن وعلامة لغوية تربط بين قولين أو أكثر ضمن استراتيجية حجاجية واحدة. ووظيفة هذا الرابط ليست مجرد الصلة بين حجة (أو مجموعة حجج) بنتيجة، وإنّما تكمن في توجيه الأقوال وجهة حجاجية تحدّد بنية الخطاب في إطار استراتيجية ومقصد حجاجي شامل، أي الروابط تتعدى ربط الحجج بالنتائج إلى «تعليق وتوجيه يصل بين معلومات نص وحججاته، ويضع خاصة ما في النص من معلومات في خدمة مقصده الحجاجي الشامل»²، فهي إذن تتجاوز الربط إلى معنى أعمّ هو التوجيه الحجاجي (Orientation Argumentative).

- أنواع الروابط الحجاجية: يتميز الرابط الحجاجي بتعدد أنواعه، منها:³

- الروابط المدرجة للحجج: مثل: (حتّى، بل، لكنّ، مع ذلك...) .
- الروابط المدرجة للنتائج: مثل: (إذن، لهذا، بالتالي...) .
- روابط التعارض الحجاجي: هي روابط تسوق حجتين لمساندة نتيجتين متعارضتين؛ أي: إنّ كلّ حجة تُساند نتيجة هي نقيض النتيجة التي تساندها الحجة الأخرى، من أمثلة هذه الروابط نجد: (بل، لكنّ...).

مثال ذلك:

- هذا الكتاب مفيد لكنّ ثمنه باهظ.

فالحجة الأولى (ح1: هذا الكتاب مفيد) تساند نتيجة مضمرة تقديرها (ن= اشتر هذا الكتاب)، أمّا الحجة الثانية (ح2: ثمنه باهظ) تُعاند - نتيجة الحجة الأولى-، وتقديرها: (ن= لا تشتري هذا الكتاب).

¹ رشيد الراضي، المظاهر اللغوية للحجاج -مدخل إلى الحجاجيات اللسانية-، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2014م، ص: 104.

² كريستيان بلانتان، الحجاج، تر: عبد القادر المهيري، مرا: عبد الله صولة، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، دط، 2008، ص: 120.

³ ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص: 30. وينظر أيضا: رشيد الراضي، المظاهر اللغوية للحجاج -مدخل إلى الحجاجيات اللسانية-، ص: 101-106.

- روابط التساوق الحجاجي: وظيفتها سَوِّق حجة أو مجموعة حجج لخدمة ومساندة نتيجة واحدة، مثل: (حتى، لاسيما...) .

مثال ذلك:

- هذا الكتاب مفيد، وحتّى ثمنه مناسب، اشتريه إذن .

نلاحظ في المثال أنّ الحجتين (ح1: الكتاب مفيد) و(ح2: الثمن مناسب) متساندتان في خدمة النتيجة نفسها، وهي: (ن = الشراء).

2/ العوامل الحجاجية (Les Operateurs Argumentatives):

هي القسم الثاني من القرائن الحجاجية، ويُعرّف العامل بأنّه: «صُرِفة (مورفيم) إذا تمّ إعمالها في ملفوظ مُعيّن، فيؤدي ذلك إلى تحويل الطاقة الحجاجية لهذا الملفوظ»¹، أي: العامل الحجاجي عنصر لغوي يدخل على قضية ما، أو قول واحد فيحصر إمكاناته الحجاجية (Potentialités) ويُحوّلها. وفي هذا الصدد يقول "أبو بكر العزاوي": «أمّا العوامل الحجاجية، فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية؛ أي: (بين حجة ونتيجة، أو بين مجموعة حجج) ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما. وتضم مقولة العوامل الحجاجية أدوات من قبيل: ربما، تقريبا، كاد، كثيرا، قليلا، ما...إلّا، وجلّ أدوات الحصر»². وذلك التغيير أو التحويل من شأنه أن يُقوِّي الاتجاه الحجاجي في الخطاب.

أمّا بالنسبة للفرق بين الرابط الحجاجي والعامل الحجاجي؛ هو أنّ الأول: يحصر الإمكانات الحجاجية للملفوظ ما، ويُغيّرُها حين دخوله عليه، أمّا الثاني -الرابط الحجاجي-: يدخل على أكثر من قضية³، ويربط فيها بين الحجة والنتيجة.

¹ رشيد الراضي، المظاهر اللغوية للحجاج -مدخل إلى الحجاجيات اللسانية-، ص: 101-102.

² أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص: 27.

³ ينظر: عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، الناشر: مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ط1، 2011م، ص: 22.

ولتوضيح مفهوم العامل الحجاجي، نضرب المثال التالي:

م1- ينادي الأب إلى الفطور، استعجل.

م2- لا ينادي الأب إلا على الفطور، استعجل.

نلاحظ أن الملفوظ الأول يخلو من أيّ عامل حجاجي، ويؤدي إلى نتيجة من قبيل: (الإسراع إلى الفطور، الإفطار من أجل الذهاب إلى المدرسة...)، أمّا الملفوظ الثاني حين أدخلنا عليه العامل الحجاجي (لا... إلا)، فقد حصر إمكانيات القول الحجاجية وقلّصها، وأصبحت النتيجة من قبيل: (المناداة لتناول الفطور فقط).

ب- العلاقات الحجاجية (Relations Argumentatives): تتمثل في تلك العلاقات التي تربط بين الحجة والنتيجة، وكلّ علاقة حجاجية تتكون على الأقلّ من ثلاثة عناصر، هي¹:
أ- قول الانطلاق: هو بمثابة مقدّمات موجهة إلى الحثّ على قبول قول آخر.

ب- قول الوصول: يتمثل في الناتج الحاصل عن قول الانطلاق، وعن الرابط الذي يصله به.

ج- قول العبور: العبور من قول الانطلاق إلى قول الوصول لا يتمّ بطريقة اعتباطية، بل ينبغي أن يُنجز بواسطة قول أو أقوال تُبرّر الصلة التي تجمع بين قول الانطلاق وقول الوصول.

قول الانطلاق ← قول العبور ← قول الوصول

ج- القسم الحجاجي (La Classe Argumentative): هو أن يعمد المتكلم في مقام خطابي معيّن إلى تقديم قولين (ق1، ق2)، هما بمثابة حجّتين لفائدة نتيجة واحدة (ن)، ومن ثمّ فإنّ القسم الحجاجي يقوم على تضافر الحجج لخدمة استراتيجية واحدة، كما أنّ هذا القسم الحجاجي محكوم بطبيعة النتائج التي يخدمها، ويتغير بحسب الوضعية التي يتلفظ فيها المتكلم (فقد تكون وضعية اجتماعية أو أيديولوجية أو سياسية...)².

¹ ينظر: باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، تر: أحمد الوديني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2009م، ص: 21-22.

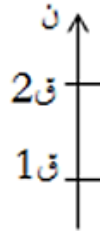
² ينظر: شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ص: 365. وينظر أيضا: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 100.

د- القوة الحجاجية (La Force Argumentative): إنّ الحُجج المنتمية لقسم حجاجي واحد، تتفاوت قوّتها الحجاجية؛ فقد يعتبر المتكلم أنّ الحجّة (ق2) أقوى من (ق1) في مساندة النتيجة، والعكس غير صحيح¹، وبمعنى آخر أوجز نقول: إنّ الحجج تنقسم إلى نوعين: حُجج قويّة وحُجج ضعيفة.

هـ- الاتجاه الحجاجي (Orientation Argumentative): بواسطته يتمّ تحديد القيمة الحجاجية للقول، من خلال إسناد اتجاه معيّن لقول ما بغاية بلوغ نتائج محددة، والتوصل إلى فئة من الاستنتاجات في قسم حجاجي واحد².

و- السلالم الحجاجية (Les Echelles Argumentatives): يُعدّ السلم الحجاجي أحد أهم الآليات التي بنى عليها "ديكرو" نظريته الحجاجية اللسانية، ويُعرّفه بأنّه: «كلّ علاقة ترتيبية لحجج معيّنة، وأيّ حقل حجاجي يشتمل على علاقة ترتيبية للحجج نصطلح عليه سلّما حجاجيا»³، أي: هو علاقة تراتبية للحجج من الأضعف إلى الأقوى في سلّم حجاجي.

يُرمز له بـ⁴ :



كما يتميز السلم الحجاجي بخاصيتين، هما⁵ :

1- كلّ قول يرد في مرتبة من السلم، يكون القول الذي يعلّوه دليلا أقوى منه بالنسبة إلى النتيجة، أي؛ الحجّة الأقوى في السلم تكون أعلى من غيرها مرتبة، وأكثرها مساندة للنتيجة .

¹ ينظر: شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ص: 365. وينظر أيضا: محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص: 95.

² ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص: 25. وينظر أيضا: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 99.

³O. Ducrot, Les Echelles Argumentatives, Editions de Munuit, Paris, 1980, P: 18.

⁴Ibid, P: 18.

⁵ ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 277.

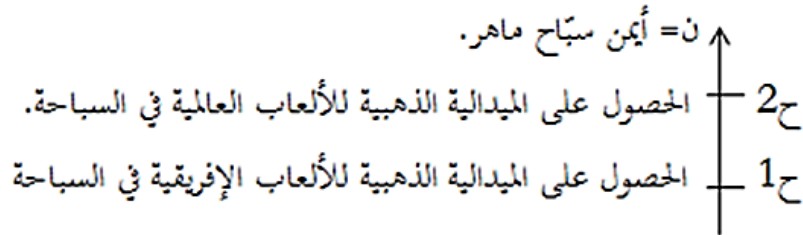
2- كل قول في السلم يستلزم النتيجة نفسها، فإذا كان القول (ب) مثلاً يؤدي إلى النتيجة (ن)، فإنه بالضرورة يستلزم أن تؤدي بقية الأقوال -التي معه في السلم- إلى النتيجة نفسها (ن).

لنوضح المفهوم أكثر، نضرب المثال التالي :

● م1: تحصل أيمن على الميدالية الذهبية للألعاب الإفريقية في السباحة، وحتى على الميدالية الذهبية للألعاب العالمية في السباحة.

نستنتج من المثال المذكور، أنه يحتوي على حجتين متساويتين ومدرجتين لخدمة نتيجة واحدة، من قبيل: (ن= أيمن سباح ماهر)، والحجتين هما: (ح1: الميدالية الذهبية في الألعاب الإفريقية للسباحة)، و: (ح2: الميدالية الذهبية في الألعاب العالمية للسباحة)، والذي أسهم في تساند (ح1، ح2) هو الرابط الحجاجي (حتى).

أي : إثمهما تنتمي إلى قسم حجاجي واحد، لكن الاختلاف بينهما يكمن في قوة الحجتين، ومعلوم لدينا أن (ح2: الحصول على الميدالية الذهبية في الألعاب العالمية للسباحة) أقوى وأعلى مرتبة من (ح1: الحصول على الميدالية الذهبية للألعاب الإفريقية في السباحة)، والعكس غير صحيح .
نرمز للمثال السابق في سلم حجاجي، من قبيل :

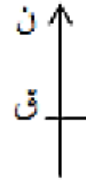
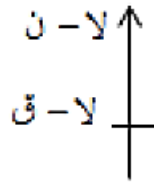


➤ قوانين السلم الحجاجي (Lois de l'echelle Argumentative): اعتمد "ديكرو" على جملة من القوانين، أهمها:

1- قانون النفي: مفاده؛ أنه إذا كان قول ما (ق)، يخدم نتيجة معينة (ن)، فإن نفيه (لا-ق) سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة (لا-ن).¹

¹ ينظر: أزفالد ديكرو، السلميات الحجاجية، تر: أبو بكر العزاوي، الناشر: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2020م، ص: 21، ص: 81.

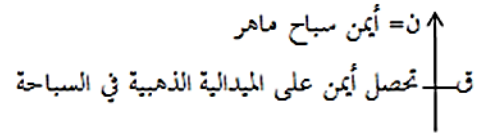
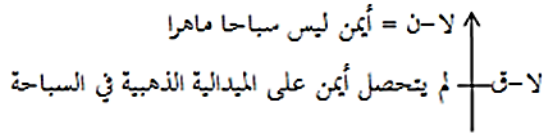
يُمَثِّل لهذا القانون، ب:¹



نُوضِّح ذلك بالنموذج التالي:

1 / ق: تحصل أيمن على الميدالية الذهبية في السباحة، فهو إذن سباح ماهر.

2 / لا-ق: لم يتحصل أيمن على الميدالية الذهبية في السباحة، فهو إذن ليس سباحا ماهرا.

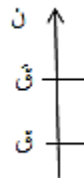
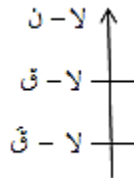


قانون النفي

2- قانون القلب: مضمونه؛ أنّ السَّلم الحجاجي للأقوال المنفية هو عكس سَّلم الأقوال الإثباتية، فما

كان أقوى في سَّلم الأقوال المثبتة يُصبح أضعف في سَّلم الأقوال المنفية، والعكس صحيح².

يُرمز له، ب:³



أي: السَّلم الأول مقلوب السَّلم الثاني، ومُثَّل لذلك بالنموذج التالي:

1 / ق: تحسَّص أيمن على الميدالية الذهبية الإفريقية في السباحة، وحتى على الميدالية الذهبية العالمية.

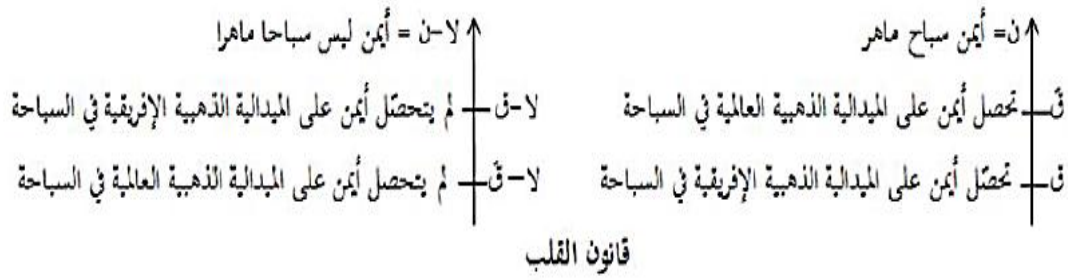
2 / لا-ق: لم يتحصل أيمن على الميدالية الذهبية العالمية في السباحة، وحتى على الميدالية الذهبية

الإفريقية.

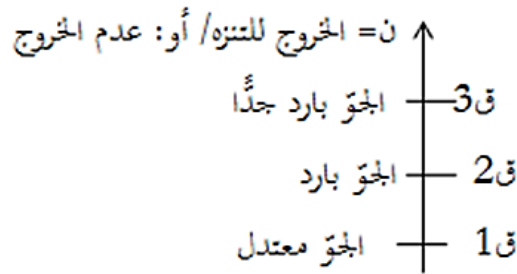
¹ Voir: O. Ducrot, Les Echelles Argumentatives, P: 27.

² ينظر: أرفالد ديكر، السلميات الحجاجية، تر: أبو بكر العزاوي، ص: 22، ص: 82.

³ Voir: Op.cit, P: 27.



3- قانون الخفض: مضمون هذا القانون؛ أنه إذا صدق القول (ق) في مراتب معيّنة، وأشار إلى مجال محدد من السلم، فإنّ نفي هذا القول (لا-ن) يُشير إلى المجال الأدنى من هذا المجال في السلم نفسه¹.
تمثّل لذلك بالسلم الحجاجي التالي:



نلاحظ أنّ المجال الذي ينتمي إليه السلم الحجاجي هو مجال (الطقس - الأحوال الجوية)، الذي تضمّن مجموعة أقوال؛ هي حالات مختلفة لوضعية الطقس (الحرارة)، فإذا نفينا مثلا: (ق1: الجوّ حارّ جدًّا) ينتج عنه مجالا أدنى هو: (ق2: الجوّ حارّ)، وهكذا تواليًا، أمّا النتيجة فيمكن تقديرها حسب حالة هذا المجال ب: (ن = الخروج للتنزه، أو عدم الخروج).

ز- **المواضع الحجاجية (Les Topiques):** تبني "ديكرو" مفهوم المواضع في نظريته - كما فعل بيرلمان -، بوصفها مجموعة من المبادئ العامة التي يستعملها المتخاطبون ضمنا لحمل السامعين على قبول نتيجة ما، أو للربط بين الحجّة والنتيجة، لأنّها -المواضع- دعامة رئيسة وقارة تُؤكّد حجاجية الملفوظ، بما

¹ ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 277. وينظر أيضا: رشيد الراضي، المظاهر اللغوية للحجاج - مدخل إلى الحجاجيات اللسانية-، ص: 121.

تُوفّر من قيمة استدلالية، إليها ينشد الملفوظ أو القول، وعليها تتحدد صلاحيته¹. كما أنّها تصلح لتقوية الاستدلالات وما هي بالاستدلالات²، تركز عليها العملية الحجاجية.

- من أهم مميزاتها³:

- عبارة عن مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل جماعة بشرية معيّنة.
- العمومية: لأنّها تصلح لعدد كبير من السياقات المختلفة.
- التدرجية: كونها تُقيم علاقة بين سلّمين حجاجيين (كالعمل - النجاح مثلاً).
- النسبية: إذ على الرغم من اشتغال الموضع الحجاجي في عدّة سياقات، إلّا أنّه يُمكن إبطاله ورفض تطبيقه باعتباره غير ملائم لذلك السياق؛ ومثال ذلك: (العمل يُؤدي إلى النجاح، لكنّه قد يُؤدي إلى الفشل إذا زاد عن حدّه المطلوب).

لتوضيح ذلك، نضرب المثال التالي :

م1: سيفشل أمين، لأنّه كسول.

إذ يُمكن من المثال أن نستنتج عدّة مواضع حجاجية متفق عليها بين الناس، من قبيل :

- الكسل يُؤدي إلى الفشل.

- تكون فرص فشل الإنسان أكثر، بقدر كسله وتهاونه.

➤ أنواع المواضع: نظراً لتعدد أنواع المواضع في النظرية الحجاجية اللسانية وتباينها، سنقتصر على ذكر نموذجين - على سبيل التمثيل لا الحصر - هما: المواضع بما هي أفكار عامة، المواضع بما هي أشكال فارغة.

¹ ينظر: شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ص: 380. وينظر أيضاً: عز الدين الناجح، العامل الحجاجي والموضع، ضمن كتاب: الحجاج والاستدلال الحجاجي - دراسات في البلاغة الجديدة -، إشراف: حافظ إسماعيل علوي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2011م، ص: 95.

² ينظر: عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص: 87.

³ ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص: 31.

أ- المواضع بما هي أفكار عامة (**Idée Générale**): هي تلك المواضع التي تكون مشتركة بين الناس، وتمّ الإجمال عليها، فكلمة (خَطَر) مثلاً، هي موضع عام متفق عليه عند جميع الناس على اختلاف أعراقهم وعقائدهم، إذ تدلّ على أنّ (كلّ خطر يجب تجنبه)¹.

ب- المواضع بما هي أشكال فارغة (**Forme Vide**): تُمثّل بنية منطقية خطائية توفرها عملية تبادلية للرمزين (أكثر +)، و(أقلّ -)، وكلّ شكل موضعي يُعطي نتيجة محدّدة، فبالتالي لا تتساوى النتائج لاختلاف الأشكال الموضعية الفارغة².

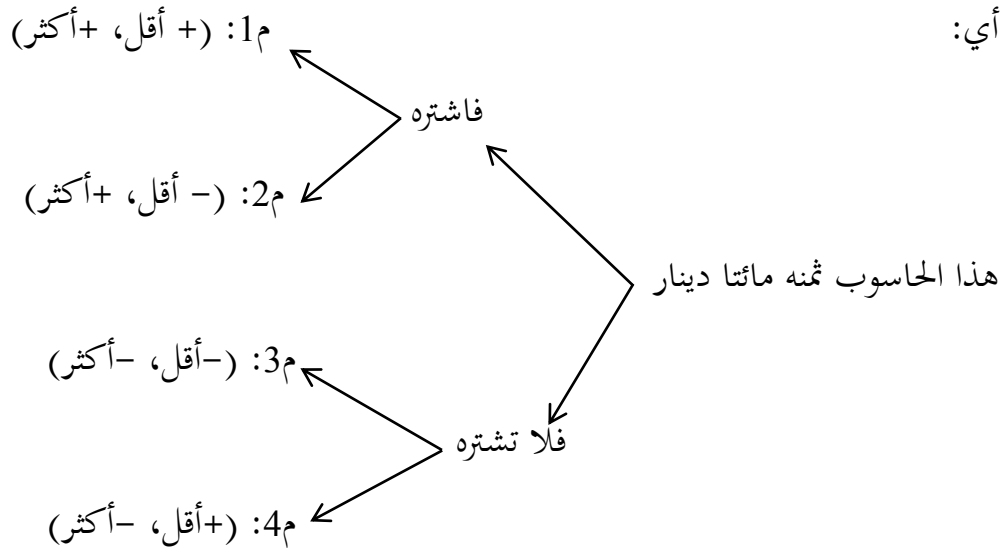
يضرب "عز الدين الناجح" مثالا عن هذا النوع بقوله³:

- هذا الحاسوب ثمنه مائتا دينار.

ينتج عن هذا القول نتيجتين متعارضتين؛ هما الشراء وعدم الشراء:

الشراء	موضع 1 + +
	موضع 2 - -
عدم الشراء	موضع 3 - -
	موضع 4 - +

أي:



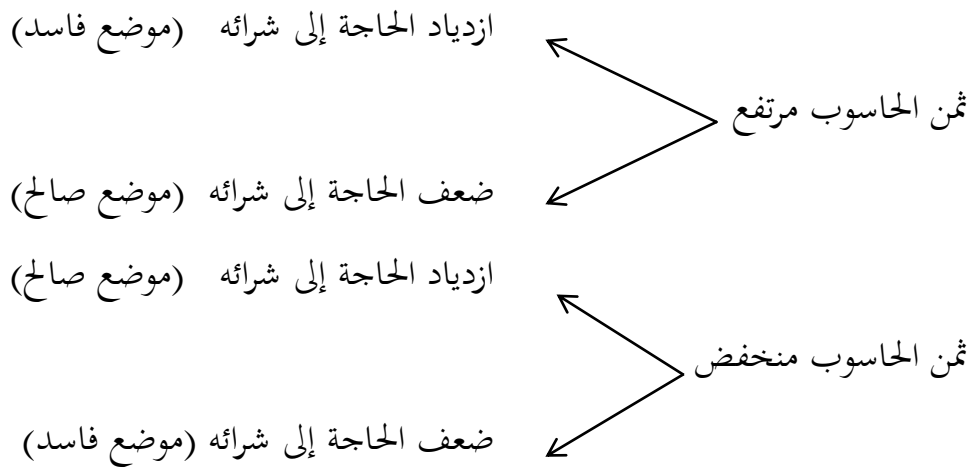
¹ ينظر: عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص: 91 - 92.

² ينظر: م ن، ص: 94.

³ ينظر: م ن، ص: 94 - 95.

وهي رموز تُحيل إلى المواضع التالية:

- الموضع الأول: كلما كان ثمن الشيء مرتفعاً ازدادت الحاجة إلى شرائه $\leftarrow (+ق، +ك)$.
 - الموضع الثاني: كلما كان ثمن الشيء منخفضاً ازدادت الحاجة إلى شرائه $\leftarrow (-ق، +ك)$.
 - الموضع الثالث: كلما كان ثمن الشيء منخفضاً ضعفت الحاجة إلى شرائه $\leftarrow (-ق، -ك)$.
 - الموضع الرابع: كلما كان ثمن الشيء مرتفعاً ضعفت الحاجة إلى شرائه $\leftarrow (+ق، -ك)$.
- ومنه يمكن حصر تلك المواضع، في نوعين: مواضع صالحة ومواضع فاسدة، هي على النحو التالي:



إيجازاً لما عُرض في نظرية الحجاج اللساني، نقول: إنَّها نظرية انطلقت من فكرة مفادها أن تنطقَ يعني أن تؤثر، لأنَّ الحجاج مؤثر له في بنية اللغة الطبيعية ذاتها، ما يجعل من هذه اللغة تحمل وظيفة حجاجية بامتياز، تستهدف استمالة المتلقي والتأثير فيه، ولا يتأتى ذلك إلا بواسطة آليات حجاجية مساعدة على ذلك، من قبيل: القرائن الحجاجية، السلام الحجاجية، المواضع الحجاجية، وغيرها.

4/ نظرية المساءلة (Théorie du Questionnement):

انطلق "ميشال مايير" (Michel Meyer) في تأسيسه لمشروعه الفكري على فكرة المساءلة، والتفكير عنده ليس سوى عملية مساءلة؛ فأن نفكر، أو أن نقول شيئاً ما... يعني أن نطرح سؤالاً¹، وهو الأمر الذي دفع "مايير" إلى البحث عن منشأ السؤال في الثقافة الغربية، ولا سيما اليونانية، إذ

¹ ينظر: محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة - بحث في بلاغة النقد المعاصر -، ص: 134 - 135.

يقول: «لولا السؤال، كما كان يقول أرسطو، لما وُجدَ الخيار بين الضيّدين، ولكان للناس أجمعين الرأي نفسه، ولما استشار المرء غير نفسه لأجل استيضاح الأشياء، ومن ثمّ، فإنّ البلاغة هي تحليل المسائل التي تُطرح في التواصل بين الذوات أو تُثار في أثنائه أو تعترضه»¹، وبهذا يُصبح السؤال محرّكًا للأقوال وتجلّ للسجال (Polémique)، وتصبح البلاغة تحليلًا للمسائل والقضايا المستشكلة، بل اللغة ككلّ.

➤ الحجاج والسؤال (Question et Argumentation) :

ربط "ماير" مفهومه للحجاج بنظرية المسألة، لأنّ الناس حينما يُسألون ويستشكلون، فهم يُحاججون، وحجاجهم هذا يُثير المناقشة ويُطلق دينامية البحث، فكلّ بحث في سؤال ما مثار تنجم عنه مواجهة حجاجية تشتغل فيها آليات الإقناع والتأثير²، فيكون الحجاج بذلك إثارة للأسئلة، وتُصبح الأقوال حينئذ أسئلة تبحث عن أجوبة، أو أجوبة لأسئلة (سؤال/ جواب).

أمّا موضوع الحجاج عند "ماير" فهو «دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمّنيّه»³، وظاهر الكلام هو الجواب أمّا ضمّنيّه فهو السؤال، ومهمّة الحجاج هي الاشتغال في المسافة بين الأسئلة والأجوبة التي يطرحها المتخاطبون في حواراتهم، فيبحث عن النتائج المتحققة من تلك العملية التخاطبية؛ فإذا كانت المسألة ترسم المسافة بين الذوات المتخاطبة، فإنّ الحجاج حسب "ماير" هو مفاوضة لهذه المسافة، أي؛ سعيّ إقناعي إمّا لمحوها بدفع المختلف ليغدو مشتركًا، أو لتوسيعها بتأجيج التناقض وتعميق الاعتراض⁴. وبعبارة أخرى أوضح، نقول: إنّ الحجاج في نظرية المسألة يسعى إلى تسوية الخلاف بين المتخاطبين، أو توسيعه بواسطة طرح أسئلة وقضايا استشكالية أعمق، تكون قادرة على إيجاد بدائل أخرى لذلك الخلاف.

¹ ميشال ماير، البلاغة، تر: محمد أسيداه، مرا: محمد الولي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2021م، ص: 17.

² ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 107 - 108.

³ عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية، ص: 39.

⁴ ينظر: م ن، ص: 39. وينظر أيضا: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 108.

➤ البلاغة والسؤال (Rhétorique et Question):

أسّس "ماير" بلاغته على فكرة المسألة، فهي من منظوره الجوهر لأيّ نظرية أو موضوع، كما رأى أنّ هذه البلاغة لا تكون إلّا حجاجية، لكونها ترتبط بالمحتمل والخلافي في المجال الإنساني، أيّ بالقيم الأخلاقية والاجتماعية، وبتصورات الناس ومواقفهم وتناقضاتهم ومواقفهم المشتركة، ولأنّها - البلاغة - أيضا مثل الحجاج، تهدف إلى تضيق شقة الخلاف بين المحاورين والمتخاطبين أو إلغائها¹. أمّا في دراسة "ماير" لعلاقة البلاغة بالحجاج والسؤال على حد سواء، فنجدته قد وقف على فكرتين أساسيتين، هما:²

أ- الصور البلاغية (Formes Rhétoriques): أعطاهما "ماير" اهتماما بالغاً، لكونها تُعبّر عن الأهواء الإنسانية، وتجذب السامع وتُحرّك خياله، والصور البلاغية إذا ما طُرحت في الخطاب، فذلك يعني أنّ سؤالاً ما طُرِح فيه، فتكون بذلك ذات طبيعة حجاجية تساؤلية، لأنّها تُلمح إلى المقصود وإلى الإجابة عن الإشكال المطروح. كما اشترط "ماير" في الصور البلاغية ابتعادها عن المبالغة والحشو، وأن تكون مقامية بالغة الإيحاء. ومن أهمّ هذه الصور (المجاز)؛ الذي يخلق المعنى، ويكون طريقة للتعبير عن الأهواء والانفعالات، والمشاعر التي هي صُورٌ من الإنسان، فقولك: (محمد أسد)، لا يُفيد الحقيقة في ظاهرها، بل هو مجاز يدفع المخاطب كي يتساءل عن مقصد المتكلّم وعن سبب اقتران "محمد" بالأسد وعوامل التماهي والاختلاف بين الإنسان المراد وصفه (محمد) والحيوان (الأسد) والمستوى المشترك بينهما (الشجاعة).

ب- العلاقات الخطابية (Relations Rhétoriques): إذا كان "أرسطو" حدّد وسائل الاستمالة الخطابية في ثلاث وسائل: (الإيتوس، الباتوس، اللوغوس)، فإنّ "ماير" أعاد صياغة العناصر الخطابية

¹ ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 107. وينظر أيضاً: محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة - بحث في بلاغة النقد المعاصر -، ص: 136.

² ينظر: محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسألة لميشال ماير، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، ص: 395-399. وينظر أيضاً: محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة - بحث في بلاغة النقد المعاصر -، ص: 136-138. وينظر أيضاً: ميشال ماير، البلاغة، تر: محمد أسيداه، ص: 28-34.

الأرسطية في ثلاثة أركان، هي: (الأخلاق، السؤال، الجواب)، واحتفظ بالعلاقة الجدلية المؤسسة؛ أي علاقة المتكلم بالمخاطب حول مسألة ما، فأصبح "الإيطوس" عنده هو مآل المسألة. و"الباطوس" منبع الأسئلة، وهو مجموع القيم المضمرة الثانوية خلف الأجوبة، ويتضمن مسائل السامعين، والعواطف التي تنتابهم أمام تلك المسائل وأجوبتها، والقيم التي تُعَلَّل -في نظر السامعين- تلك الأجوبة عن تلك الأسئلة. أما "اللّوغوس" فقد فرّعه إلى عنصرين (السؤال والجواب)، وهما من يُثَلِّلان الاستشكال، وعلى هذا "اللّوغوس" أن يكون قادرا على التعبير عن المسائل والأجوبة لمختلف القضايا المطروحة.

نخلص إلى أنّ "ماير" أسّس مشروع الفلسفي بصفة عامّة، والبلاغي الحجاجي بصفة خاصّة، على أساسٍ ومُرتكزٍ واحد هو (السؤال) أو الاستشكال، الذي يُعدّ جوهرًا لكلّ المفاهيم والنظريات المعرفية -في نظر "ماير"-، ومنه تنطلق عملية التفكير وإليه تنتهي، ومن خلاله -السؤال- تتألف العناصر الخطائية، ويُحقّق الخطاب -بمختلف أنواعه ووسائله وصوره البلاغية- غايته الإقناعية والتواصلية.

• بين نظريات الحجاج:

ارتكازا على ما سبق ذكره، يمكن القول: إنّ نظريات الحجاج في الثقافة الغربية، رغم اختلافها، إلّا أنّها تشترك في الغاية من الحجاج وهدفه، والتي تتمثّل في تحقيق الإذعان والتسليم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإنّ طرائقها وآلياتها في دراسة الخطاب وتقني الأبعاد الحجاجية، متباينة من منظرٍ لآخر.

بُحْمَل أهمّ المرتكزات -التي تتّضح من خلالها الفروقات- في الجدول التالي :

النظرية	مؤسس النظرية	المرتكرات
الحجاج المنطقي	ستيفن توملين	- الخطاطة الحجاجية. - المنطق نظام تبريري بين الحجج والنتائج. - الحجاج ≠ الشعر
الحجاج البلاغي	شايم بيرلمان لوسي أولبرخت تيتيكا	- إخراج الحجاج من دائرة الخطابة والجدل الأرسطي. - دراسة تقنيات الخطاب قصد التسليم والإذعان. - المستمع نوعان: خاص وكوني. - الحجاج نوعان: إقناعي واقتناعي. - الحجاج احتمالي، لغته طبيعية، ونتائجه غير ملزمة. - مقدّمات الحجاج - الموجّهات التعبيرية. - التقنيات الحجاجية؛ منها طرائق الوصل، وطرائق الفصل.
الحجاج اللساني	أزفالدديكرو جون كلود أنسكومبر	- التداولية المدمجة. - المنطق الطبيعي (منطق الحجاج). - تقديم الحجج واستنتاج النتائج. - اللغة ذات وظيفة حجاجية. - الحجاج مؤشّر له في بنية اللغة. - الآليات الحجاجية (القرائن الحجاجية، السلام الحجاجية، المواضع الحجاجية...).
نظرية المساءلة	ميشال مايير	- التفكير عملية مساءلة. - السؤال أساس البلاغة والحجاج. - الحجاج إثارة للأسئلة. - موضوع المساءلة: دراسة العلاقة بين الظاهر والضماني - غاية المساءلة: تسوية الخلاف بين المتخاطبين. - أركان القول الخطابي: (أخلاق، سؤال، جواب).

الجدول رقم 04 : أهم مرتكرات نظريات الحجاج

خامسا- الدراسات الحجاجية العربية الحديثة:

أسهم الباحثون العرب بدراسات وأبحاث وإضافات جديدة في مجال الحجاج -كمّا وكيفًا-، وعملوا على إعادة قراءة التراث العربي ، وبخاصة البلاغي، في ضوء النظريات الحجاجية المعاصرة، وكذا مقارنة بعض النصوص والخطابات الأدبية واللغوية والنقدية، وغيرها، مقارنة حجاجية، بالاستناد إلى جملة من الآليات والتقنيات الحجاجية الغربية، من جهة، أو التعديل والتجديد فيها، وبلورتها على شاكلةٍ تتماشى وخصوصية الموروث العربي، من جهة أخرى، دون المساس بقداصة المعتقد الديني الذي يُؤطّر الثقافة العربية .

ومن أهمّ الدراسات البارزة التي نعرضها، دراسات: "عبد الله صولة"، "طه عبد الرحمن"، "محمد العمري"، "أبو بكر العزاوي".

1- عبد الله صولة :يُعدّ من أبرز أعلام الجامعة التونسية في الدراسات الحجاجية والتداولية والأسلوبية، ومن أهمّ مؤلفاته الحجاجية (الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية)، الذي عرّج فيه على أهمّ نظريات الحجاج الغربية، وتتبع من خلاله خصائص الكلمة الحجاجية والتداولية في القرآن الكريم، وفي ذلك يقول: «إنّ للكلمة خصائص في ذاتها تستمدّها من اللغة والتداول، تجعلها مؤهلة بطبيعتها لتكون ذات صبغة حجاجية، وترشّحها لتكون من معجم الخطاب الحجاجي وقوام جداوله اللغوية. وإنّ لها في الخطاب بناءً على تلك الخصائص حركة تقصي فيها غيرها وتعوّضه وتحلّ محله ليكون الخطاب أوغل في الحجاج وأذهب في الإقناع»¹.

ثمّ رصد الباحث في مؤلفه خصائص التركيب في القرآن ووجوه الحجاج فيه، كالعدول في القرآن وأبعاده الحجاجية، وتوصّل إلى نتيجة مفادها «أنّ العدول في الكلام القرآني ليس لغاية أن يكون هذا الكلام جميلاً، وإنّما لغاية أن يكون كلاماً حجاجياً مقنعاً بوجه من الوجوه»²، لينتقل "صولة" -بعد معالجته خصائص الكلمة الحجاجية في المعجم القرآني، وخصائص التركيب الحجاجية

¹ عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية، ص: 74. (لتفصيل أكثر حول خصائص الكلمة الحجاجية في القرآن، انظر: الباب الأول من الكتاب).

² م ن، ص: 604. (لتفصيل أكثر حول خصائص التركيب الحجاجية في القرآن، انظر: الباب الثاني من الكتاب).

في القرآن - إلى معالجة خصائص الصورة في القرآن ووجوه الحجاج فيها، وخرج بنتيجة مؤداها: أنه لا تعارض بين الحجاج والأسلوب، والصورة في القرآن تكون ذات طبيعة حجاجية؛ لأن الخطاب القرآني خطابٌ حجاجي في جوهره¹.

وعليه، يمكن تلخيص ما سعى "عبد الله صولة" إلى رصده من خلال مؤلفه، في النقاط التالية :

✓ التعريف بمفهوم الحجاج في النظريات الغربية .

✓ دراسة خصائص الكلمة الحجاجية في المعجم القرآني وأبعادها الحجاجية.

✓ رصد خصائص التركيب في القرآن ووجوه الحجاج فيه.

✓ تتبّع خصائص الصورة في القرآن، وإبراز خصائصها الأسلوبية والحجاجية.

2- طه عبد الرحمن : اتّسمت أعماله ودراساته بالطابع المنطقي والفلسفي، وذهب إلى تعريف الحجاج

بأنّه «فعالية تداولية جدلية»²، تجمع بين جانبيين: تداولي مقامي، ومنطقي جدلي -أشرنا إلى مفهوم

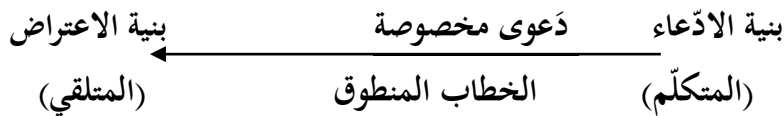
الحجاج عند "طه عبد الرحمن" سابقا في المفهوم الاصطلاحي"-، أمّا حدّ الحجاج فقد حصره "طه"

بأنّه «كلّ منطوق به مُوجّه إلى الغير، لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها»³، بمعنى أنّ

الحجاج خطاب منطوق يتوجه به المتكلّم إلى غيره، قصد بيان أمر ما، أو تأكيد أطروحة، أو تثبيت

موقف لديه، أو التعديل فيه، ويحقّ لهذا الغير (المتلقي) الاعتراض على ما قاله المتكلّم.

أي: المتكلّم يملك بنية الادّعاء، أمّا المخاطب فمن شأنه الاعتراض.



¹ ينظر: م س، ص: 605. (لتفصيل أكثر حول خصائص الصورة الحجاجية في القرآن، انظر: الباب الثالث من الكتاب).

² طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، ص: 65.

³ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 226.

كما يرى "طه عبد الرحمن" أنه «لا خطاب بغير حجاج»¹، وبمعنى أوسع «لا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل باللسان»²، وهو دليل على تلك الأهمية التي أولاها "طه عبد الرحمن" بالحجاج في الخطابات، والتواصل بشكل أعم. وقد قسّم الحجاج إلى ثلاثة أنواع، هي:³

1/ الحجاج التجريدي: هو أن يُؤتى بالدليل على طريقة أهل البرهان، إذ يهتم هذا النوع من الحجاج بترتّب صور العبارات بعضها على بعض بصرف النظر عن مضامين واستعمالات تلك الصور، أي؛ الاهتمام بالأشكال فقط دون المضامين، مثلما يفعل البرهاني الذي يستدل بالقواعد المنطقية الصارمة فيتجاهل خصائص ومضامين الأقوال (كخطاب الفلاسفة). والحجّة المبنية على التجريد -أو الحجّة المجردة- ليست إلّا مظهرًا فقيرًا من مظاهر الاستدلال في الخطاب الطبيعي أو رتبة دنيا من مراتب هذا الاستدلال -قريبة من المنطق البرهاني-، حيث تنبني على أساس الصورة لا المضمون والمقام، ولا تهتم بالمخاطب.

2/ الحجاج التوجيهي: يتمثل في إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل، أي؛ المتكلّم في هذا الحجاج قد ينشغل بأقواله من حيث إلقاؤه لها، ولا ينشغل بتلقي المخاطب لتلك الأقوال أو ردّ فعله عليها. والحجّة المبنية على التوجيه -أو الحجّة الموجهة-، لا ترقى إلى مستوى الاستدلال في الخطاب الطبيعي، لأنّها لا تهتم بتلقي المخاطب للحجج، بل تنبني على اعتبار المخاطب، ومقاصده من تلك الحجج التي يتوجه بها إلى غيره.

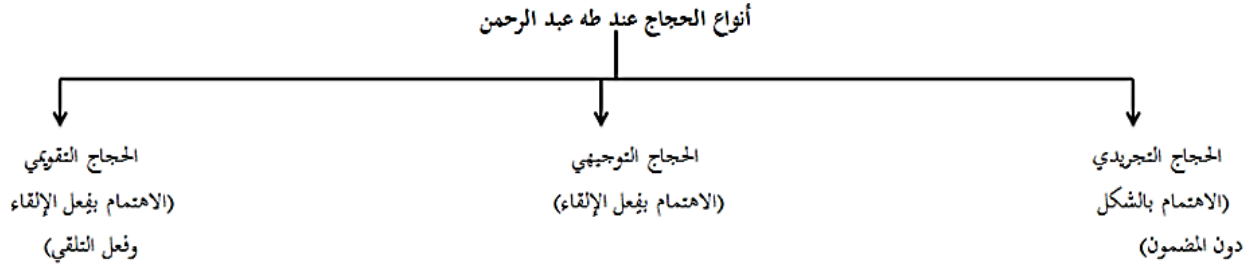
3/ الحجاج التقويمي: إذا كان الحجاج التوجيهي لا يهتم بتلقي المخاطب للحجج، فإنّ الحجاج التقويمي عكس ذلك، إذ يسعى إلى إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المتكلّم على أن يُجرّد من نفسه ذاتًا ثانية يُنزّلها منزلة المعارض على دعواه، وكأنّ به يتوجه بالخطاب إلى نفسه، باعتبارها هي أوّل متلقٍ لما يُلقى، فيقوم أقواله، ويُراعي إمكانات تقبلها -الأقوال- واقتناع المخاطب بها، واعتراضاته. والحجّة المبنية على التقويم -أو الحجّة المقوّمة- ترقى إلى ما ينطوي عليه الاستدلال في الخطاب الطبيعي، لأنّها

¹ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 226.

² م ن، ص: 254.

³ ينظر: م ن، ص: 226-228.

بعيدة عن الخطاب البرهاني الصوري من جهة، ولكونها تُراعي فعل الإلقاء وفعل التلقي معاً، من جهة أخرى، وهما أساس عملية الحجاج .



المخطط رقم 13: أنواع الحجاج عند طه عبد الرحمن

3-محمد العمري: شكّلت أعماله لبنة أساسية للمشتغلين في الدرس البلاغي والحجاجي العربي، حيث كانت مؤلفاته مرجعاً هاماً للباحثين من بعده، كما سعى "العمري" إلى إعادة رسم خارطة الدرس البلاغي وتوسيع معالمه وتطويره، حتى تلحق البلاغة العربية بركب البلاغات العالمية، وفي ذلك يقول: «المطلوب الآن في الواقع، إذا توضحّت المنجزات البلاغية العربية، بقدر كافٍ، أن نحاول فتح موقع لنا في تاريخ البلاغة العالمية»¹.

من أهم مؤلفاته :

- **في بلاغة الخطاب الإقناعي:** اهتمّ فيه بالبُعد الإقناعي في البلاغة العربية، وبحث فيه عن أسس بلاغة هذا النوع من الخطابات، من براهين وأساليب، كما تناول الأسس المقامية لتصنيف الخطاب؛ كمقامات الخطابة الدينية والخطابة السياسية والخطابة الاجتماعية...، أمّا في جانب التطبيق؛ فعمد "العمري" إلى تحليل نماذج من خطب "الرسول عليه الصلاة والسلام"، وخطب "الأبي بكر الصديق رضي الله عنه"، وغيرها، كشف من خلالها عن بعض الآليات الإقناعية .

¹ محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة -دراسات وحوارات-، ص: 255.

* راجع: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية -الخطابة في القرن الأول نموذجاً-، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2002.

• البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: تتبّع فيه مسار البلاغة العربية وأصولها، وحاول من خلاله إعادة قراءة البلاغة العربية قراءة جديدة في ضوء معطيات الدرس البلاغي المعاصر. كما أرجع "العمري" أسباب كتابته لهذه القراءة التاريخية للبلاغة العربية، إلى اعتبارين هامين، هما:¹

أ- اعتبار عام: واقعي وتاريخي: يتصل بقلة ما أنجز من الدراسات في هذا المجال سواء أكانت دراسات استكشافية وصفية أو تفسيرية، باستثناء بعض الأعمال .

ب - اعتبار خاص قرائي: أي منهاجي صرف: يرجع إلى تغيّر المعطيات التي نمتلكها، وتغيّر الأسئلة المطروحة على الأدب، لذلك أصبح من اللازم إعادة الكتابة كلّما تغيّرت شروط القراءة وظروفها؛ فالحاضر -من وجهة نظر "العمري"- يُغني الماضي بقدر ما يعنّي بمحاورته، لأنّ الماضي نص مفتوح للقراءة على الدوام .

كما تتبّع الباحث علاقة البلاغة العربية بالنصوص الأرسطية من جهة، واهتماماتها بالحجاج، من جهة أخرى، حيث رأى أنّ الحاجة إلى الحجاج والاهتمام به قد برزّا بشكل جليّ في فترة الاهتمامات الكلامية، عندما صار التسلّح بالوسائل الحجاجية البلاغية اللغوية أمراً ضرورياً للدفاع ضدّ مزاعم المشبهين والمتنولين للمتشابه من القرآن الكريم من ناحية، ولمقارعة الفرضيات المضادة التي يقدّمها الخصوم من ناحية ثانية. بالإضافة إلى ذلك ركّز "العمري" أيضاً في قراءته للبلاغة على استكناه الأبعاد التداولية في البلاغة العربية القديمة، وعلاقتها بالنحو والمنطق والنقد.²

• البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول: سعى "العمري" في هذا المؤلّف إلى تحديد مفهوم جديد للبلاغة يجمع بين التخيل والتداول -أو الإقناع-، وهذا ما قاده إلى تعريف البلاغة بأنّها: «علم الخطاب الاحتمالي الهادف إلى التأثير أو الإقناع أو هما معاً، إيهاماً أو تصديقاً»³، إذ لم يُعدّ البحث عن جوهر البلاغة ومفهومها في جانب واحد؛ إمّا التخيل أو الإقناع، بل أصبح البحث عنها فيهما معاً، وإن كان لكلّ منهما -أي: التخيل والإقناع- مجاله. وفي ذلك يقول: «لن نبحت عن جوهر

¹ ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 07.

² ينظر: محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة -بحث في بلاغة النقد المعاصر-، ص: 261.

³ محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص: 06.

البلاغة لا في الأسلوب ولا في الحجاج، بل في المنطقة **Région** التي يتقاطعان فيها بالتحديد، بعبارة أخرى، ينتمي إلى البلاغة بالنسبة إلينا كلّ خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب، كلّ خطاب تحضر فيه الوظائف الثلاث: المتعة والتعليم والإثارة مجتمعة ومتعاضدة؛ كلّ خطاب يُقنع بالمتعة والإثارة مُدعّمتين بالحجاج»¹.

ثمّ عرّض "العمرى" في كتابه* اتجاهات البلاغة سواء في الثقافة العربية أو الغربية -سبق لنا تفصيل ذلك-، لينتقل في الأخير -كجانب تطبيقي- إلى دراسة نماذج (نصوص وخطابات) من التراث العربى، فوقف فيها على بلاغتها التخيلية والإقناعية؛ كالسخرية الأدبية، والسيرة الذاتية، والمجاز، وغيرها.

• مؤلّفات في بلاغة النص الشعري: تشمل هذه المؤلّفات ثلاثة كتب :

- تحليل الخطاب الشعري: البنية الصوتية في الشعر، الكثافة، الفضاء، التفاعل.
- اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربى - مساهمة تطبيقية في كتابة تاريخ الأشكال-.
- الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية -نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر-.

هى كُتب عمل "العمرى" فيها على الخطاب الشعري، مركّزاً على الجانب الصوتي بدرجة أولى، وسبب تركيزه على دراسة المستوى الصوتي دون غيره من المستويات، هو رؤيته بأنّ هذا المستوى مهمّش في نظرة البلاغيين ودراساتهم؛ ففي الكتاب الأول (تحليل الخطاب الشعري) استثمر المعارف اللغوية-خاصة الصوتية- من التراث العربى في تحليلاته وتفسيراته، كما استعان في ذلك بالرؤية البنيوية والطرح اللساني الحديث، وهو ما فتح له الباب في معرفة القدرات الوصفية التي تمتلكها البلاغة

¹ م س، ص: 22.

* راجع: محمد العمرى، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول.

* راجع: محمد العمرى، تحليل الخطاب الشعري: البنية الصوتية في الشعر، الكثافة، الفضاء التفاعل، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1990م. و: اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربى - مساهمة تطبيقية في كتابة تاريخ للأشكال-، منشورات دراسات سال، الدار البيضاء، المغرب، 1990م. و: الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية -نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر-، منشورات دراسات سال، الدار البيضاء، المغرب، 1992م.

العربية، التي ينبغي تسخيرها في قراءة وتحليل الخطاب. أمّا الكتاب الثاني (اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي)؛ أراد له "العمري" أن يكون مساهمة في التأريخ لأشكال الشعر، ومن ثم السؤال حول اهتمامات البلاغيين بالمقوم الصوتي الإيقاعي القائم على الوزن والتوازن، لأنّ ذلك الاهتمام هو كشف لبنية البلاغة، فيتجاوب بذلك الجانب الشعري مع الجانب البلاغي. في حين الكتاب الثالث (الموازنات الصوتية) أعاد فيه النظر لموقع الموازنات الصوتية في الاتجاهات البلاغية العربية (كاتجاه "الجاحظ"، "ابن وهب"، "الجرجاني"، "الباقلاني"...)، ودعّم مؤلفه بجانب تطبيقي على النص الشعري، وهو ما أسهم لديه في الكشف عن العديد من المفاهيم الصوتية التي شكّلت الدرس البلاغي العربي¹.

• مؤلفات في الترجمة: تمثّلت في ترجمته ل :

- بنية اللغة الشعرية، ل: "جان كوهن"، بالاشتراك مع "محمد الولي".

- البلاغة والأسلوبية، ل: "هنريش بليث".

حيث كانت ترجمته لهذين العملين متوازنة مع مشروعه البلاغي، وسعى من خلالهما إلى تعميق اطلاع القارئ العربي على البلاغة العربية، وكذا معرفة فهم الغرب للبلاغة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ تمثّل مسعاه في توضيح العلاقة بين البلاغة والميادين المختلفة لمتداخلة معها؛ كالشعرية والأسلوبية، قصد الاستفادة من هذه الميادين في تطوير البلاغة العربية، بما يتوافق وخصوصية الموروث العربي².

¹ ينظر: بوعافية محمد عبد الرزاق، البلاغة العربية والبلاغات الجديدة -قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة-، الناشر: مؤسسة حسين راس الجبل للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2018م، ص: 100-103.

* راجع: جان كوهن، البنية الشعرية، تر: محمد العمري، محمد الولي، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986م. و: هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية -نحو نموذج سيميائي لتحليل النص-، تر: محمد العمري، منشورات دراسات سال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1989م.

² ينظر: م س، ص: 120-121.

4- أبو بكر العزاوي: تصبُّبُ إسهاماته الحجاجية في الاشتغال على نظرية الحجاج اللساني - خاصة- إذ جُلَّ دراساته أسَّسها انطلاقاً من مقولته: «لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج من غير تواصل»¹، حيث رأى أنَّ الحجاج حاضر في مختلف الخطابات، واللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية حمولة ووظيفة حجاجية²، وهو ما اصطلح عليه ب: (الحجاج الموسَّع)*.

من أهمِّ مؤلَّفاته الحجاجية، نقف على:

- اللغة والحجاج: قدَّم "العزاوي" في هذا الكتاب مجموعة من المفاهيم التي عرَّفت بنظرية الحجاج اللغوي (اللساني)، فعرض لمفهوم الحجاج والسلم الحجاجي والمبادئ الحجاجية، ثم عكف في الفصل الثاني من مؤلِّفه إلى دراسة بعض الروابط الحجاجية في اللغة العربية (بل، لكنّ، حتّى) وعقد مقارنات بينها، وبَيَّن الأسباب التي أدَّت به إلى الاهتمام بالروابط الحجاجية . وتتمثَّل -على حدِّ قوله- في³:
- خُلُو الساحة العربية من مثل هذه المواضيع، بعكس الدراسات الغربية التي أولت اهتماماً بالغاً بدراسة الروابط التداولية والحجاجية، وخصَّصت لها ندوات ومؤلفات.
- الروابط والعوامل الحجاجية هي المؤشر الأساسي، والدليل القاطع على أنَّ الحجاج مُؤشِّر له في بنية اللغة نفسها.

- كثرة استعمالها في الخطابات والحوارات اليومية.

- علاقتها الواضحة والقويّة مع المعنى الضمني والمضمّر.

- قدرة الروابط في بناء تسلسلات الخطاب، لما لها من طاقات استدلالية وحجاجية .

ثمَّ انتقل الباحث في الفصل الثالث إلى دراسة الاستعارة من منظور الحجاج، وهو ما اصطلح عليه: (الاستعارة الحجاجية)؛ التي تدخل -من منظوره- في الوسائل اللغوية التي يستغلّها المتكلِّم بقصد توجيه خطابه، وتحقيق أهدافه الحجاجية، وهي النوع الأكثر انتشاراً لارتباطها بمقاصد

¹ أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص: 12.

² ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص: 14

* راجع: أبو بكر العزاوي، الحجاج الموسَّع -الأسس والمبادئ-، مطبعة وراقة بلال، فاس، المغرب، ط1، 2022م.

³ ينظر: م س، ص: 55- 56.

المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية، ولكونها موجودة أيضا في في اللغة اليومية. وفي مقابل هذه الاستعارة الحجاجية، توجد (الاستعارة البديعية)؛ التي تكون مقصودة لذاتها، ولا ترتبط بالمتكلمين أو مقاصدهم وأهدافهم الحجاجية، وإنما توجد عند بعض الأدباء والفنانين الذين يهدفون من ورائها إلى إظهار تمكّنهم من اللغة. والسياق هاهنا؛ هو سياق الزخرف اللفظي والتفنن الأسلوبي، وليس سياق التواصل والتخاطب¹. أمّا الفصل الأخير من الكتاب وقف فيه على مفهوم القوّة الحجاجية للكلمات والأفعال، وضرب لذلك نماذج تطبيقية².

• **الخطاب والحجاج:** إذا كان مؤلّف (اللغة والحجاج) اقتصر على تحليل الروابط الحجاجية في اللغة العربية في الخطابات، فإنّ هذا المؤلّف (الخطاب والحجاج) هو مقارنة حجاجية لأنواع مختلفة من الخطاب، وتتمّة للكتاب الأول وتطوير له. وفي ذلك يقول "العزاوي": « عملنا على تطوير النظرية الحجاجية وتوسيع مجال تطبيقها، فلم يُعدّ مجال النظرية محصورا في دراسة العوامل والروابط والأدوات الحجاجية. ولا ينبغي أن يقف التحليل عند حدود الجملة أو القول، بل ينبغي أن يشمل النصوص والخطابات بمختلف أنواعها»³ لأنّ « الحجاج نجده أيضا في كلّ أنماط الخطاب وأنواع النصوص: نجده في الخطب الدينية والقصائد الشعرية والمحاورة اليومية والمفاوضات التجارية واللافتة الإشهارية والخطاب السياسي ومرافعة المحامي والرواية والمسرحية الأدبية والمناظرات ومناقشة الأطروحات الجامعية والكتابات العملية وغيرها»⁴.

ومن الخطابات التي عمل "العزاوي" على تحليلها والكشف عن مظهرات الحجاج فيها، ما يلي:⁵

¹ ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص: 108 - 109.

² ينظر: م ن، ص: 111 - 134.

³ أبو بكر العزاوي، حوار حول الحجاج، ص: 104.

⁴ أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص: 11.

⁵ ينظر: م ن ؛ (الخطاب القرآني، ص: 15 - 32)، (الخطاب الشعري، ص: 33 - 64)، (الخطاب المثلي، ص: 65 - 98)، (الخطاب الإشهاري، ص: 99 - 117).

أ- الخطاب القرآني: وقف فيه على تحليل (سورة الأعلى)، و(خواتيم سورة البقرة)

• سورة الأعلى: قسّم السورة القرآنية إلى ثلاثة مقاطع، كشف فيها عن البنى الاستدلالية والحجاجية والعلاقات الحجاجية الموجودة في كلّ مقطع من مقاطع السورة، كما حدّد مجموعة من الحجج اللغوية والنتائج التي تضمنتها السورة، وبيّن "العزاوي" أيضا المسار الحجاجي الذي سارت عليه السورة ككلّ، ثمّ تطرق إلى دور الروابط الحجاجية في تسلسل الخطاب القرآني وانسجامه .

• خواتيم سورة البقرة: اعتبر "العزاوي" الآيات الأخيرة في سورة البقرة (الآيتين: 285، 286)، بمثابة النص الحواري الحجاجي المنسجم، وكأنّه حوار مضمّر بين الله عزّ وجلّ باعتباره متكلمًا ، وبين المخاطب وهو الإنسان، الذي يدعوه الله من أجل الإيمان، مفصّلاً "العزاوي" في ذلك بعرض مجموعة من الحجج والنتائج اللغوية، والعلاقات الحجاجية.

ب- الخطاب الشعريّ: إنّ تسليم "أبو بكر العزاوي" بوجود الحجاج في الخطابات الشعرية، دفعه إلى صياغة تحليل حجاجي لبعض القصائد، منها (قصيدة العلة، للشاعر "أحمد مطر")، فكشف "العزاوي" في تحليله لها، عن مختلف التظاهرات الحجاجية التي تميّزت بها القصيدة، وحصرها في:

- دلالة العنوان.
- البنية الهيكلية للنص (البنية الداخلية للنص، والعلاقات الحجاجية).
- الاستعارة الحجاجية.
- تقنية التكرار.
- الحوار والحجاج.
- الأفعال اللغوية.

- الازدواج الحجاجي (المستوى الخارجي للقصيدة، المستوى الداخلي للقصيدة).

ج- الخطاب المثلي: حلّل فيه "العزاوي" جملة من الأمثال المغربية الشعبية، تحليلًا حجاجيًا لسانيا، توصّل من خلاله إلى نتيجة مفادها؛ أنّ الأمثال حُجج جاهزة ومبادئ عامّة تُمثّل خلاصات تجارب إنسانية، كما أنّها ذات بنيات حجاجية متعددة .

د- الخطاب الإشهاري: تناول في هذا المبحث نماذج مختلفة لصور إشهارية، وتوصّل إلى نتيجة مؤدّاها؛ أنّ الخطابات الإشهارية تحمل في طيّاتها أبعادا حجاجية قادرة على استمالة المتلقي والتأثير فيه .

بناءً على ما ذكرناه، يُمكن القول إنّ الإسهامات الفكرية للباحثين العرب في مجال الدرس الحجاجي لم تقتصر على التنظير فقط، بل شكّلت إضافة نوعية استطاعت تعميق آفاق التحليل الحجاجي لمختلف النصوص والخطابات في التراث العربي، وفق رؤية حديثة، أسهمت في بلورة الوعي لدى الباحث العربي المتخصص بضرورة الاهتمام بالمقولات الحجاجية والبلاغية -على حدّ سواء- في تحليل الخطابات.

خلاصة الفصل:

تبين لنا في هذا الفصل أنّ مفهوم الحجاج حمل دلالات عدّة؛ ففي المعاجم العربية دلّ على معانٍ مختلفة أبرزها "القصد"، في حين دلّ على "الوضوح واللمعان" في المعاجم الغربية، أمّا الدلالة الاصطلاحية للحجاج فلم تستقر -هي الأخرى- على مفهوم واحد، وتباينت، نتيجة عدّة اعتبارات -ذكرناها سابقا-، لكنّ الدلالة الاصطلاحية للحجاج في العموم، تبتغي التأثير في الآخر باستعمال اللغة. كما توصّلنا أيضا إلى أنّ مصطلح الحجاج يتداخل مع جملة من المصطلحات المشابهة له في المعنى، من قبيل: البرهان، الاستدلال، الإقناع، وغيرها، ووقفنا حينئذٍ على تبيان أهمّ الفروقات والتشابهات بين هذه المصطلحات.

بالعودة إلى البواكير الأولى للحجاج، وجدناه حاضرا في الفكر اليوناني، وتمثّل عندهم -في بداياته- في المرافعة أمام المحاكم والقضاء، ليتطور بعد ذلك مصطلح الحجاج وتتوسع دلالاته مع الإسهامات المعرفية التي جاء بها فلاسفة اليونان، بخاصة "أفلاطون" و"أرسطو". أمّا في الحضارة العربية، فإنّ تجليات الحجاج برزت بشكل كبير مع البلاغيين العرب؛ أمثال: "الجاحظ" و"القرطاجني"، وغيرهم. ثمّ خلّصنا إلى حقيقة مفادها أنّ معالم الحجاج لم تتبلور كنظرية قائمة بذاتها، إلّا مع الأرسطيين الجدد، على رأسهم "بيرلمان" الذي أعاد إحياء الخطابة الأرسطية من جديد، فركّز في مشروعه الحجاجي على دراسة تقنيات الخطاب المؤدية إلى استمالة الأذهان والعقول إلى التسليم والإذعان. وعرض لذلك جملة من الآليات والتقنيات الحجاجية التي ميّزت نظريته، لتتوالى بعده النظريات الحجاجية؛ كنظرية الحجاج المنطقي مع "تولمين" وغيره، ونظرية الحجاج اللساني مع "ديكرو"، ونظرية المساءلة -ذات الطابع الفلسفي- مع "ميشال مايير"، وكان لكلّ نظرية من هاته النظريات وسائل وآليات حجاجية -فصّلنا فيها- انبنت عليها.

أخيرا، تمّت الإشارة إلى بعض الجهود العلمية والمعرفية في الساحة العربية، التي اشتغلت على مبحث الحجاج، إن على مستوى التنظير أو التطبيق، وخصّصنا بالذكر: "عبد الله صولة"، "طه عبد الرحمن"، "محمد العمري"، "أبو بكر العزاوي".

الفصل الثاني:

خطاب الوصية في الأدب العربي

أولاً - ماهية الوصية: (المفهوم - المصطلحات المشابهة - الأركان).

ثانياً - الوصية عبر العصور.

ثالثاً - الوصية: الخصائص والأهمية.

رابعاً - الوصية بين تفاعل الخطابات واستراتيجيات الخطاب.

خامساً - الوصية خطاب إقناعي حجاجي.

لما يتهياً الإنسان للفراق الأبدي، ويستدعي حقيقة الآخرة، ويستحضر رهبة الموت في ذهنه، ويدرك أنّها الكأس التي يشرب منها الجميع، والمصير المحتوم لكلّ بشرٍ مخلوق، فإنّه لا محالة يُراجع نفسه، ويعمل على أخذ العبر والحكم من تجارب حياته التي اكتسبها وعاشها، فكما قيل: «إنّ في حوادث الأيام لأولي الأفهام اعتباراً، وفي طوارق الليالي لأرباب الهمم العوالي اعتباراً، وفي مجاري الأقدار للدّوات الشريفة الأقدار استظهاراً»¹. ومن ثمّ يسعى هذا الإنسان إلى تأسيس وإصدار وصية جامعة مانعة، مليئة بالحكمة الخالصة والمعرفة النافعة، حاملة لسفر خبراته وثمره أفكاره، قصد تبليغها ونقلها إلى مَنْ هو أقرب إلى قلبه ونفسه. حينئذٍ ترسم هذه الوصية لهذا الموصي المسار الصحيح، والنهج المستقيم الذي وجب عليه أتباعه في حياته، حتّى يقيه ذلك المسار من إكراهات الزمن، ويعصمه من الزلل والخطأ، فتتوسع بذلك المدارك لدى الموصي، وتنتفتح الآفاق.

ضمن هذا المعطى، ارتأينا دراسة هذا الفنّ الأدبي والاستدلال على أصالته وقيّمته بين الفنون، إن من حيث الوقوف على ماهية الوصية، أو من حيث تتبع جذور وتاريخ هذا الجنس الأدبي، لما له من خصائص ومقوّمات وغايات إقناعية تأثيرية، حتّى وإن اختلفت أغراضه، وتباينت أنواعه.

أولاً- ماهية المصطلح :

1- مفهوم الوصية (Commandment):

أ- لغة:

ورد لفظ "الوصية" في المعاجم العربية بمعانٍ عدّة، منها: "العهد"، ومن ذلك تعريف "ابن منظور" (ت 711هـ): «أوصى الرجل ووصّاه: عهد إليه»²، ومعنى الوصل؛ كما ذكر "ابن فارس" (ت 395هـ): «الواو والصاد والحرف المعتل أصل يدلّ على وصل شيء بشيء، ووصيتُ الشيء: وصلته (...)»، والوصية من هذا القياس كأنّه كلام يُوصى أي يُوصل. ويقال: وصّيته توصية، وأوصيته

¹ أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تح: صلاح جرار، دار البشير، عمان، الأردن، دط، 1989م، مج: 01، ص: 94.

² ابن منظور، لسان العرب، ج: 15، ص: 227.

إيصاء»¹. في حين ربطها "الأزهري" (ت 370 هـ)، بالشخص الميّت ووصلها به، فقال: «والوصية: ما أوصيت به، وسميت وصية لانتصاها بأمر الميّت»². أمّا "أحمد مطلوب" فعرفها في معجمه، بأنها: «لونٌ من الكلام فيه توجيه أو إبلاغ»³.

وعليه يتراءى لنا من خلال هذه التعاريف، أنّ الوصية عهد أو كلام يسعى الموصي إلى تبليغه وإيصاله للموصى، بقصد الاعتبار والانقياد.

➤ الوصية في القرآن:

ذكرت الوصية في القرآن الكريم -بمختلف صيغها- في مواضع عديدة، كانت كلّها مشتقة من اللفظ (وصى)، حيث بلغت (32 موضعا) كما أحصاها "محمد فؤاد عبد الباقي" في معجمه⁴. أمّا بالنسبة لدلالات "الوصية" في القرآن الكريم، جاء معظمها بمعنى الأمر والفرض والإلزام⁵، حاملة توجيهات وتعليمات من الله تعالى لعباده، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام / الآية: 151).

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، ج: 06، ص: 116.

2 الأزهري، تهذيب اللغة، تح: أحمد عبد العليم البردوني، مرا: علي محمد البيجاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ج: 12، ص: 268.

3 أحمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 1989م، ج: 02، ص: 440.

4 ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: 752

5 ينظر: عبد الله البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً -مقاربة أسلوبية حجاجية-، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، دار

محمد علي الحامي، تونس، ط1، 2011م، ص: 32.

نعرض في الجدول* التالي بقية المواضع :

الآية	السورة	تكراره	اللفظ (الصيغة)
132	البقرة	02	وصّى
13	الشورى		
144،151 152،153	الأنعام	04	وصّاكم
131	النساء	05	وصّينا
08	العنكبوت		
14	لقمان		
13	الشورى		
15	الأحقاف		
53	الذاريات	05	تواصوا
17	البلد		
03	العصر		
31	مريم	01	أوصاني
12	النساء	01	توصون
11	النساء	01	يوصي
11	النساء	01	يُوصيكم
12	النساء	01	يُوصين
12	النساء	01	يُوصى
182	البقرة	01	مُوصٍ

* تعمّدت عدم الإشارة لمدلولات ومعاني هذه الصيغ، لأنّ المقام مقام إحصاء، لا مقام شرح وتفسير.

240 ، 180	البقرة		
12 ، 11	النساء	08	وصية
106	المائدة		
50	ياسين	01	توصية

الجدول رقم 05: مواضع لفظ الوصية في القرآن

ب- اصطلاحاً:

- إنَّ الإحاطة الشاملة بمفهوم الوصية في الاصطلاح، وتعريفه تعريفاً جامعاً مانعاً ليس بالأمر الهين، وذلك راجعٌ لأسباب عدّة منها:
- جريان المصطلح في أكثر من مجال فكري.
 - اختلاف العلوم التي وظّفت المصطلح؛ كالفقه والأدب، وغيرها.
 - تداخل لفظ الوصية مع مصطلحات مقاربة له في الدلالة؛ كالتوصية، الموعظة...إلخ.
- ولحلّ هذا الإشكال الاصطلاحي، عمدنا إلى تقديم تصنيفات مختلفة -حسب رؤى مختلف الباحثين- لمفهوم الوصية في الجانب الاصطلاحي.

1/ الوصية عصارة تجارب:

يتبادر إلى الذهن عند سماع لفظ "الوصية"، مفهومين رئيسين: أولهما؛ هو تلك الوصية التي تُصنّ على الميراث، وهو ما يُعرّف بالوصية "الفقهية"، التي أوصى الله بها في كتابه، وثانيهما: ذلك المفهوم الشائع والسائد بأنّها خلاصة تجارب حياة الإنسان آخر العمر، فهي «خلاصة موجزة عن حياة المرء في شؤون وشجون، وآخر ما يُقدّمه إلى أبنائه ودّويه في حياته أو نهايتها»¹، وهذا ما يقتضي ربط الوصية -في الغالب- بلحظة الموت ورهبته، وهو كذلك.

¹ حسين الحاج حسين، أدب العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3،

أمّا "أسامة بن منقذ" (ت 584 هـ) ذهب إلى تقسيم الوصية لوصيتين، حين قال: «الوصية وصيتان: وصية الأحياء للأحياء، وهي أدب وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وتحذير من زلل وتبصرة بصالح عمل، ووصية الأموات للأحياء عند الموت، بحقّ يجب عليهم أدائه، ودَيْن يجب عليهم قضاؤه»¹، فالأولى؛ وصية أخلاقية توجيهية، أمّا الثانية؛ فوصية -يُمكن اعتبارها ميراثية- واجبة التكليف والإلزام.

2/ الوصية الأدبية:

على الرّغم من تعدّد الدراسات حول الوصية في مجال الأدب، إلّا أنّها لم تستقرّ على مفهوم قارّ وثابت. ومن تلك المفاهيم، نعرض ما يلي:

- الوصية فنّ نثري أدبي:

يرى بعض الباحثين أنّ الوصايا فنّ من فنون النثر الأدبي، ينقل لنا رؤية كاتبه، وفلسفته في الحياة، كما يكشف عن عقلية المجتمع، وعن أفكاره واهتماماته، ومثله وآماله، بالإضافة إلى تناول هذا الفنّ جوانب اجتماعية وسياسية ودينية مختلفة².

- الوصية قولٌ بليغ:

اتّجه بعض الدارسين إلى وصف الوصية بالقول البليغ المؤثر الذي غايته نقل الخبرة العلمية، وحشد التجربة الإنسانية من الموصي إلى الموصى، وحثّه على السلوك الطيّب النافع، على نحو مثالي ونموذجي، وذلك رغبة في رفع شأنه وجلب الخير له، وعادة ما تكون هذه الوصايا من الآباء إلى

¹ أسامة بن منقذ، لباب الآداب، تح: أحمد محمد شاكر، منشورات مكتبة السنّة، القاهرة، مصر، دط، دت، ص: 01.

² ينظر: سهام الفريح، الوصايا ومدى تطورها في العصر العباسي الأول، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الكويت، الحولية السادسة، الرسالة الثانية والثلاثون، 1985م، ص: 08. وينظر أيضاً: أحمد أمين مصطفى، أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، دط، 1990م، ص: 05. وينظر أيضاً: علي حسن محمد التمر، الوصايا في عصر صدر الإسلام، مجلة جامعة تكريت للعلوم، العراق، مج: 02، ع: 01، جانفي 2012م، ص: 206.

الأبناء، كما يُشترط أن يكون الموصي شخصا يمتلك كفاءة في التعبير اللغوي والأدبي، وكفاءة في امتلاك الخبرة الإنسانية في صورتها المثالية المنشودة اجتماعيا وإنسانيا¹.

- الوصية نوع من الأدب:

هناك من اعتبر الوصية نوعا من الأدب، كـ "محمد نايف الدليمي"، الذي رأى أنّ الوصية نوعٌ من أنواع الأدب الحيّ الرفيع المنزلة، يُطلقها مُجربٌ للحياة، ويُشرّع فيها منهجًا قويمًا وسلوكًا تنظيميًا لإنسان عزيز عليه، فيُوجهه بما ينبغي عليه فعله أو اجتنابه². وهو ما أكّده "جاسم البياتي" في تعريفه للوصية بأنّها «ضربٌ من الأدب النثري»³، إذ يقصد (بالضرب) في هذا المقام (النوع)، وإن اختلفت التسمية.

- الوصية الأدبية:

لم تتم الإشارة إلى هذا المصطلح - الوصية الأدبية - بدقّة إلا في بعض الدراسات، منها: ما ذكره "لطيف محمد العكّام" في كتابه (أساليب النثر الفني)، حيث عرّفها بأنّها: «نوعٌ من الأدب غايته التوجيه والإرشاد، والحثّ على اكتساب المحامد، أو التبصير بحُسن السياسة، أو الدعوة إلى مكارم الأخلاق»⁴.

¹ ينظر: محمد رجب النجار، النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابة - فنونه، مدارسه، أعلامه -، دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 2002م، ص: 53. وينظر أيضا: علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، سوريا، ط1، 1991م، ص: 268.

² ينظر: محمد نايف الدليمي، جمهرة وصايا العرب - وصايا العصر الجاهلي -، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ج: 01، ص: 18.

³ عادل جاسم البياتي، دراسات في الأدب الجاهلي منطلقاته العربية وآفاقه الإنسانية، مكتبة الأدب المغربي، المغرب، دط، 1986م، ج: 01، ص: 118.

⁴ لطيف محمد العكّام، أساليب النثر الفني، مطبعة الآداب، النجف، العراق، ط1، 1974م، ص: 105.

أما "رونك توفيق" فالوصية الأدبية في نظرها: «هي ما يشمل الشعر والنثر على السواء، أو الاثنين معاً، ويتحدد لنا أسلوبها المميز بمجموعة من الأوامر والنواهي مضمنة الوعظ والإرشاد والتوجيه، وهو ما يُميز الوصايا الأدبية»¹.

وهو تعريف شامل يُدرج الوصية الأدبية في مجالي الشعر والنثر معاً، وإن كانت الوصية -من وجهة نظرنا- تنتمي إلى فنّ النثر أكثر ممّا هي منتمة إلى الشعر. أما "سهام الفريح" اقتصرت على مصطلح (الوصية في الأدب)؛ وقصدت به «الثمرة الفكرية التي يكتسبها الفرد من تجاربه في حياته اليومية، ومن تفاعل هذه التجارب مع بيئته ومجتمعه»²، وهذا تعريف وإن كان غير خاصّ بالوصية الأدبية، إلّا أنّه عامّ في دلالاته، قد يشمل الوصية الأدبية وغيرها .

3/ الوصية الفقهية:

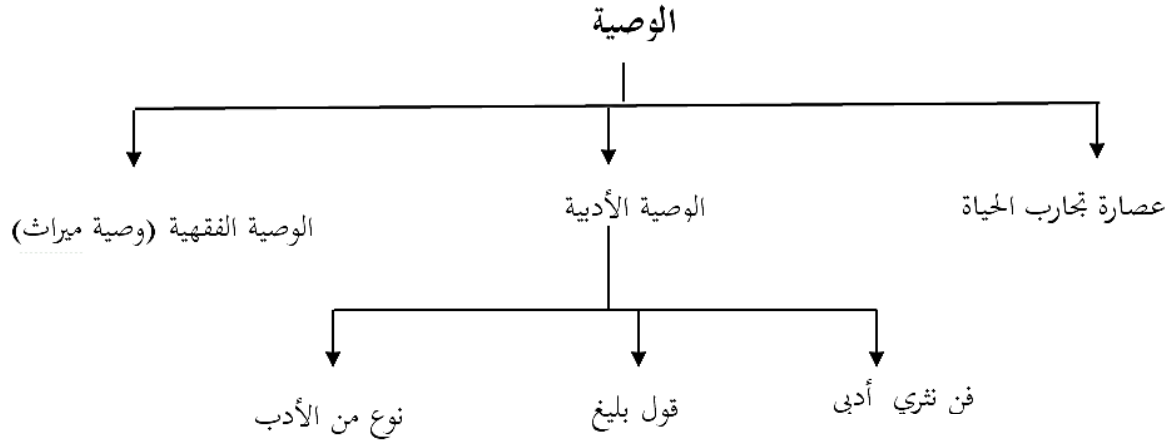
تُسمّى أيضاً بالوصية الشرعية، وهي وصية واجبة التنفيذ ألزم الله تعالى بها عباده، كوصايا الميراث، حيث يُعرّفها الفقهاء بأنّها: «تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريق التبرع»³، أي: هي كلّ ما يتركه المرء ويُخلّفه من ميراث ومتاع، فيُوصي أهله به بعد موته. أمّا أدلة مشروعية الوصية في القرآن ووجوبها، فمنها، قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة/ الآية: 180). بناءً على ما سبق، نحصر أهم المفاهيم الاصطلاحية للوصية في :

1رونك توفيق علي النورسي، وصايا الأدباء والحكماء في العصر العباسي -دراسة فنية-، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1،

جانفي 2007م، ص: 13- 14.

2سهام الفريح، أدب الوصايا في العصر الجاهلي، مجلة البيان، الكويت، ع: 208، جويلية 1983م، ص: 27.

3 محمد مصطفى شلي، أحكام الوصايا والأوقاف، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط4، 1982، ص: 22.



المخطط رقم 14: مفاهيم الوصية في الاصطلاح

2- المصطلحات المشابهة للوصية:

يقع اللبس عند كثير من الباحثين في تحديد دلالات بعض المصطلحات التي تتداخل مع الوصية معنيً ودلالة، من قبيل: (التوصية، الموعظة، النصيحة... إلخ)؛ فمنهم من ذهب إلى القول بالترادف، ومنهم من بحث عن الفروقات بين هذه المصطلحات .

2-1- التوصية (Recommendation):

تختلف الوصية عن التوصية، في أنّ الأولى تُوجّه مباشرة إلى الموصى، أمّا الثانية -التوصية- فتتطلب تدخل طرف ثالث يتوسط بين الموصي والموصى له، وهو دونهما منزلة؛ أي يقع في مرتبة اجتماعية وسطى بينهما. أمّا موضوع التوصية فيتمثل في طلب حاجة لهذا الطرف الثالث¹، كالتوصية على شخص قاصر مثلاً .

2-2- الخطبة (Sermon):

تختلف الوصية، كما تشترك، مع الخطبة في جملة من النقاط، نذكر منها :

¹ ينظر: خالد عبد العزيز التحكائي، بلاغة الوصية مقارنة بلاغية حجاجية، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،

ط1، 2021م، ص: 58. وينظر أيضاً: عبد الله البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً -مقاربة أسلوبية حجاجية-،

- الوصية باب من الخطب، وتجري على أسلوبها وتلحق بها، إلا أنّ الخطبة أوسع دائرة وأبعد مدى منها، كونها تُوجّه للجماعة، أمّا الوصية فغالبًا ما تكون من الفرد، وتُوجّه إلى إنسان مُعيّن؛ كأنّ تصدر من سيّد لعشيرته، أو أبّ لابنه، أو امرأة لابنتها، أو تكون عند الإحساس بدنوّ الأجل¹.
- الوصية تكون مرّة واحدة في الحياة، بخلاف الخطبة التي تتعدد، وتكون أكثر انتشاراً².
- الخطبة لا تصدر غالبًا إلاّ ممّن يملك القدرة والإجادة، أمّا الوصية فقد تصدر ممّن لا يملك ذلك³.
- كليهما يُراد بهما توجيه المتلقي إلى الطريق الصحيح والترغيب فيما ينفع وعمّا يضرّ⁴.
- يقتضيان وجود طرفين: متكلم ومتلقٍ.
- الخطبة تقتضي وجود تسلسل منطقي في عرض مضامينها (مقدمة، عرض، خاتمة)، أمّا الوصية ففي الغالب غير مقيدة بذلك.

2-3- الموعظة/ الوعظ (Prédication):

تدلّ الموعظة في معناها على النصّح والتذكير بالعواقب والتوجيه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (النساء/ الآية: 63). وهو الأمر الذي تهدف إليه الوصية أيضاً، بتوجيه المتلقي وإرشاده، لذلك صُعّب على الدارسين رصد الحدود الفاصلة بينهما، لأنّ

¹ ينظر: حتّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي -الأدب القديم-، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986م، ص: 119.

وينظر أيضاً: هاشم صالح متّاع، النشر في العصر الجاهلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص: 107.

² ينظر: محمد نايف الدليمي، جمهرة وصايا العرب -وصايا العصر الجاهلي-، ج: 01، ص: 19.

³ ينظر: خالد بن صالح مدّ الله السعرائي، أدب الوصايا في النشر الأندلسي، رسالة ماجستير في الأدب العربي، إشر: عبد العزيز بن

عبد الله العواد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية،

2008م - 2009م، ص: 46.

⁴ ينظر: أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر، ط1،

دت، ص: 18.

تلك الحدود «ليست واضحة تمام الوضوح، مُقنعة تمام الإقناع»¹. والوصية كما يرى "خالد التجكاني" «متى أُحيطت بتوجه ديني، اقتضى الأمر اعتبارها من باب العظة»²، ليكون هذا القول دليلاً على التداخل الكبير بين المصطلحين.

2-4- النصيحة (Conseil):

بين المصطلحين تقارب في المعنى وغايات ومقاصد مشتركة، فكلاهما يُريد الخير للمنصوح أو الموصى، وإن اختلفتا في سبل تحقيقه³. حيث ذهب "عبد المنعم خفاجي" إلى القول بترادف الوصية مع النصيحة، حين قال: «قد يُطلق اللفظان من باب الترادف على معنى واحد هو النصيحة والإرشاد والوعظ والتهذيب»⁴.

أما بخصوص التفرقة بين المصطلحين، فأجملها "التجكاني" في⁵:

- النصيحة تكون فيها التوجيهات والتحذيرات الواردة بها ظرفية مرتبطة بمكان وزمان مُعيّنين، وحدث محدّد، ونتائجها منتهية بانتهاء المقام، وهو الأمر الذي يجعل القول غير مُلزم، بينما تبقى الوصية مُلزمة، لأنها بمثابة عهد وشرف.
- تميّز النصيحة عن الوصية بأنها مُوجّهة بغير تكليف، بينما الوصية بمثابة دستور يتعيّن على مُتلقيها الالتزام والتقيد به.

¹ عبد الله البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً -مقاربة أسلوبية حجاجية-، ص: 60.

² خالد عبد العزيز التجكاني، بلاغة الوصية مقارنة بلاغية حجاجية، ص: 58.

³ ينظر: زهير الحموي، من أدب الوصايا، الناشر: سلسلة روافد، الإصدار (60)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط1، 2012م، ص: 25. وينظر أيضاً: عبد الله البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً -مقاربة أسلوبية حجاجية-، ص: 59.

⁴ محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، مصر، دط، دت، ص: 104.

⁵ ينظر: خالد عبد العزيز التجكاني، بلاغة الوصية مقارنة بلاغية حجاجية، ص: 62-63.

يُحمل ما سبق ذكره من أوجه تشابه واختلاف، في الجدول التالي :

المصطلحين	أوجه التشابه	أوجه الاختلاف
الوصية والتوصية	- الهدف منهما واحد، هو النصح والرعاية والتوجيه.	- الوصية تقتضي وجود الموصي والموصى له، أما التوصية فتستدعي تدخل طرف ثالث، هو الموصى به.
الوصية والخطبة	- الوصية باب من الخطب. - يُراد بهما توجيه المتلقي إلى الطريق الصحيح. - يُشترط فيهما وجود باث وملتق.	- الوصية تكون مرة واحدة بخلاف الخطبة. - الخطبة أوسع من الوصية. - الوصية تكون من الفرد إلى فرد مُعين في الغالب، أما الخطبة فتكون من الفرد إلى الجماعة. - الخطبة تتبّع تسلسلا منطقيا ومُلزمة به، أما الوصية فغير مقيدة بذلك. - تصدر الخطبة ممن يملك القدرة والإجادة، أما الوصية فقد تكون غير ذلك.
الوصية والنصيحة	- كِلتاهما يُريد الخير للمنصوح أو الموصى.	- النصيحة ظرفية مرتبطة بمكان وزمان معيّنين، غير ملزمة، في حين أنّ الوصية ملزمة. - النصيحة مُوجّهة بغير تكليف، أما الوصية مُوجّهة بتكليف.
الوصية والموعظة	- الغاية منهما مشتركة وواحدة؛ وهي النصح والإرشاد والتوجيه.	- إنّ الوصية إذا كانت وصية غير دينية في مضامينها، قد تخرج عن الوعظ؛ كالوصايا السياسية مثلا.

الجدول رقم 06: الفروقات بين الوصية والمصطلحات المشابهة لها

3- أركان الوصية:

تتمثّل في: الموصي، الموصى (أو: الموصى إليه)، الوصية (الشيء الموصى به).

3-1- الموصي:

هو الشخص الذي يُصدر الوصية -تُسيطر عليه في الغالب رهبة الموت-، إلى إنسان يستأمنه، يأمل منه أن يُؤدّي تلك الأشياء التي يُوصيه بها، كما أنّ الموصي في زمن الاحتضار يكون «في لحظة صدق مع النفس لا يشوبها كذب، وحق لا تعتريه الأباطيل، قد بان له ما كان عنه مخفياً، وأدرك الحقيقة بعد أن انقشعت الأوهام، وزوّده موقف الموت بأخبار حقيقة الحياة»¹، ودائماً ما يكون أعلى مرتبة من الموصى إليه²، إلا في حالات كوصايا الوعاظ للخلفاء -سنعرض لها نماذج لاحقاً-.

ينبغي أيضاً على الموصي أن يمتلك بعض الصفات؛ كالخبرة والتجربة وامتلاك المعرفة، التي تُؤهله لنقل خلاصة تجارب حياته إلى الغير، لأنّه بمثابة القدوة والنموذج الذي يتعيّن على الموصى اتّباعه والسير على نهجه، كما أنّه - الموصي - يظهر في صورة ذلك الحكيم الذي «يستخلص العبر ويؤكد أنّ الحياة سراب خلب ووهم كاذب»³.

من أهمّ سمات الموصي، نذكر :

- يتصف الموصي بالجدية في توجيه وصاياه، كونه يُودع جلّ أفكاره وخلاصة تجاربه على شكل رسائل أخلاقية تهيئية، تحمل في طياتها الدعوة إلى الهداية والنصح والإرشاد⁴.
- يُمكن اعتبار الموصي طرفاً في التواصل، وعليه ينبنى المقام التواصلية لخطاب الإيصال، الذي يسعى من خلاله إلى التأثير في الموصى وتوجيهه وإقناعه.
- كما يكون الموصي في مقام علمي وظيفي يسمح له بإصدار وصايا ذات أبعاد تربوية، أو لأغراض معرفية تعليمية؛ فيكون آنئذٍ إمّا مؤدّباً أو معلّماً أو مُربيّاً⁵.

¹ عبد الله البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً -مقاربة أسلوبية حجاجية-، ص: 13.

² ينظر: روناك توفيق علي النورسي، وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي -دراسة فنية-، ص: 16.

³ م س، ص: 193.

⁴ ينظر: روناك توفيق علي النورسي، وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي -دراسة فنية-، ص: 16.

⁵ ينظر: خالد عبد العزيز التحكاني، بلاغة الوصية مقارنة بلاغية حجاجية، ص: 167، ص: 177.

3-2- الموصى:

هو الطرف المستقبل للوصية، تجمعه في الغالب قرابة دموية ووجدانية مع الموصي، كوصايا الآباء للأبناء، لكنّ هذا لا ينطبق على جميع الوصايا¹، كوصايا الخلفاء السياسية -يرد التفصيل لهذا النوع لاحقاً-. كما أنّ الموصى يُشكّل امتداداً للموصي، ويُمثّل «أهمّ مرتكز بلاغي ضمن مقام الإيضاء عامة، وفي نصّ الوصية بصفة خاصّة، كما أنّ النظر إلى الموصى سيّجّه أكثر إلى البحث في المكونات المرتبطة به، والتي تساعد على ضمان ونجاعة تجاوبه مع الوصايا الموجهة إليه، باعتباره المدار الذي يشتغل به القول في مقام الإيضاء»²، بمعنى أنّ الموصى هو الطرف الثاني لخطاب الإيضاء الذي ينبنى عليه المقام التواصلّي.

وينقسم الموصى إلى نوعين، هما³:

- **الموصى العام:** هو ذلك المتلقي غير المقصود بالاسم أو الحاضر بشكل جليّ؛ أي: إنّ الوصايا في هذا النوع تكون موجهة إلى أشخاص غير مُعيّنين.
- **الموصى الخاص:** هو الذي ترتبط فيه الوصية بمتلقٍ محدّد بالاسم أو بالصفة، إلّا أنّ هذا لا ينفى أن يكون لتلك الوصية امتداد إلى المتلقي العام، فقد تكون الوصية صالحة لشخص آخر في زمن آخر.

3-3- الوصية:

الركن الثالث من أركان خطاب الإيضاء، وهي في الأصل «خطاب ينعقد بين متباعدين سنّاً، متفاوتين حظاً من المعارف والتجارب والحكم: يجري في الغالب بين من تقدّم به العمر فاكْتَسَب بطول البقاء حكمة وحنكة وتجربة، ومن هو في الحياة مبتدئ وعليها مُقبل، يظلّ -في نظر الموصي- صغيراً يافعاً وإن أدركه الكبر، غرّاً غافلاً وإن أدبته الأيام واستفاد من تجارب السابقين»⁴.

¹ ينظر: عبد الله البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً -مقاربة أسلوبية حجاجية-، ص: 53.

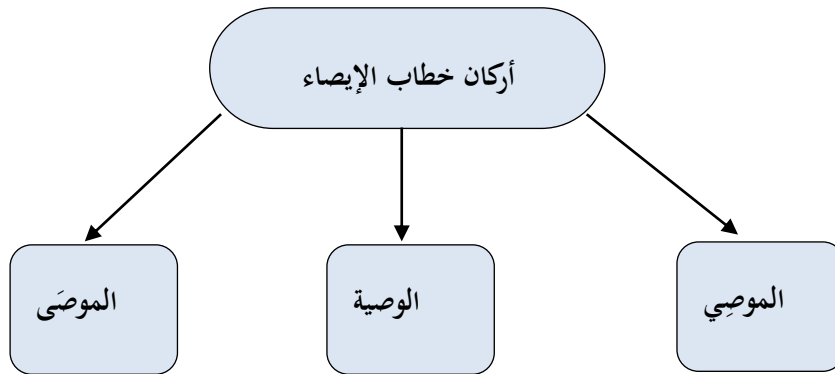
² خالد عبد العزيز التحكائي، بلاغة الوصية مقاربة بلاغية حجاجية، ص: 195.

³ ينظر: م ن، ص: 195، ص: 198.

⁴ عبد الله البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً -مقاربة أسلوبية حجاجية-، ص: 14.

تُصبح الوصية بهذا المعنى تجربة ودستورا متكاملًا يُقرّر فيه الموصي كلّ ما مضى وعاشه من تجارب، ويستشرف فيه مستقبل الموصى، فيُضمّن -الموصي في ذلك الدستور- كلّ «القضايا التي يرى أنّها كفيلة بعصمة الموصى من الزلل، ليعيش في حياة الموصي أو بعد فنائه، في وضع مأمون من الانحراف أو الفشل، ويكون مؤهلاً لخوض معركة الصراع مع الحياة وإكراهات الزمن، بصورة لا تُسلّمه إلى الندم والحسرة»¹.

وإذا ما أردنا أن نُنزل أركان خطاب الإيصاء منزلة أركان العملية التواصلية والتخاطبية، فإنّنا نحصل على الشكل التالي:



المخطط رقم 15: أركان خطاب الإيصاء

¹ عبد الفضيل أدرائي، بلاغة الوصية (وصية عليّ بن أبي طالب إلى ولده الحسن نموذجاً)، ضمن كتاب: بلاغة النص التراثي -

مقاربات بلاغية حجاجية-، إشر: محمد مشبال، ص: 122.

ثانيا- الوصية عبر العصور:

إنّ الوصية كغيرها من الفنون الأدبية، لم تكن وليدة اليوم أو الأمس، بل كانت حاضرة في تراثنا العربي منذ العصر الجاهلي، وامتدت جذورها عبر العصور التي تلتها، وسنحاول في هذا المبحث تبّيع تاريخ الوصية -من العصر الجاهلي إلى العصر الأندلسي- بضرب نماذج من الوصايا لكلّ عصر، والوقوف على أهمّ أنواعها.

1/ الوصايا في العصر الجاهلي:

عرفت الجاهلية جملة من الوصايا التي تناولت في مضامينها مختلف جوانب الحياة البدوية التي كان يعيشها الإنسان آنذاك، والتي كان قوامها مكارم الأخلاق والعفة والترغيب في الخير، ونبذ الشرّ، قصّد الحفاظ على المبادئ القويمة، والأخلاق الحميدة، والغايات النبيلة، وكذا الحفاظ على الروابط الأسرية ووحدة القبيلة.

وقد طالعنا العصر الجاهلي بأنواع متعددة من الوصايا؛ منها وصايا سيّد القبيلة لأفراد قبيلته، ومنها وصايا الآباء لأبنائهم، ووصايا الأمّهات لبناتهم، وغيرها.

1-1- وصايا الآباء للأبناء:

هي بمثابة دستور، ينقل فيه الآباء لأبنائهم خلاصة تجاربهم في الحياة، فيعمدون إلى توجيههم، وحثّهم على القيم النبيلة والأعمال الصالحة. ذلك أنّ الابن هو الامتداد الطبيعي للأبّ بعد موته، لذلك لا يحرص الأب على توريث ابنه المال فقط، وإنّما «يُورثه أخلاق ومواقف، وكأنّه يُريد من هذا الابن أن يكون صورة منه، وأن يكون نموذجا لما أراده لنفسه، سواء أكان هذا النموذج صورة له أم لِمَا كان ينشده وعجز عن تحقيقه»¹.

¹ حتّى عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا، وفنون، ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1،

من أمثلة هذا النوع من الوصايا:

أ- وصية ذي الإصبع العدواني لابنه أسيد: يقول فيها: «يا بني، إنَّ أباك قد فني وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، وإني مُوصيك بما إن حَفَظْتَه بلغت في قومك ما بلغْتُه، فاحفظ عني: ألن جانبك لقومك يُجَبِّوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يُطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يُسَوِّدُوك، وأكرم صِغارهم كما تُكرم كبارهم، يُكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صِغارهم، واسمخ بمالك، واحم حريمك، وأعزز جارك، وأعز من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرع النهضة في الصريح، فإن لك أجلاً لا يغدوك، وصن وجهك عن مسألة أحدٍ شيئاً، فبذلك يتمُّ سُؤدُوك»¹.

هي وصية سعى فيها الأب إلى دعوة ابنه للتمسك بالنصائح المذكورة، والأخلاق الحمودة من تواضع وكرم، وغيرها، حتى ينال الرفعة ويبلغ المجد والسيادة في قومه.

وقد أوجز "هاشم صالح مناع" مضمون هذه الوصية في العناصر التالية²:

1. طلب التسامح مع قومه، واللين في معاملته لهم، حتى يكتسب محبتهم واحترامهم.
2. التواضع في التعامل مع قومه، حتى يرتفع مقامه بينهم.
3. أن يكون معهم سمح الوجه، مُستبشر القسّمات، كي يكسب طاعتهم.
4. مشاركتهم في كل شيء؛ فلا يستأثر لنفسه بشيء دونهم.
5. إكرام صغارهم، كما يُكرم كبارهم.
6. التصرف في المال بحكمة.
7. المحافظة على عرضه وشرفه.
8. أن يرفع من قدر جيرانه، ويُعزّهم.
9. تجنب البخل وإجابة المستغيث، فإن إجابته من المروءة والنبل.

¹ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة - العصر الجاهلي، عصر صدر الإسلام -، الناشر: شركة مكتبة

ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1352هـ - 1933م، ج: 01، ص: 46.

² ينظر: هاشم صالح مناع، النشر في العصر الجاهلي، ص: 110 - 111.

ب- وصية عمرو بن كلثوم لبيته: لما حضرت "عمرو بن كلثوم" الوفاة، جمع بنيه، وقال لهم: «يا بني، قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحد من آبائي، ولا بد أن ينزل بي ما نزل بهم من الموت، وإني والله ما عيّرت أحداً بشيء إلا عيّرت بمثله، إن كان حقاً فحقاً، وإن كان باطلاً فباطلاً، ومن سب سباً، فكفوا عن الشتم، فإنه أسلم لكم، وأحسنوا جواركم يحسن ثنائكم، وامنعوا من ضيم الغريب، فرب رجل خير من ألف، ورد خير من خلف، وإذا حدثتم فعوا، وإذا حدثتم فأوجزوا، فإن مع الإكثار تكون الأهدار. وأشجع القوم العطوف بعد الكر، كما أن أكرم المنايا القتل، ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب، ولا من إذا عوتب لم يعتب. ومن الناس من لا يرجى خيره، ولا يخاف شره، فبكؤه خير من دره، وعقوؤه خير من بره، ولا تتزوجوا في حيكم؛ فإنه يؤدي إلى قبيح البغض».¹

حملت الوصية جملة من النصائح والتوجيهات التي سعى "عمرو بن كلثوم" نقلها إلى بنيه حتى يعملوا بها في حياتهم، لأن هذه الوصية خلاصة لتجارب الموصي وخبراته، اكتسبها طوال عمره .

وقد لخص "صالح مناع" أهم المعاني والقيم التي قيلت في الوصية، في:²

1. منع بنيه من أن يعيروا أحداً، ونهاهم عن السب والشتم، فذلك أسلم لهم .
2. حسن معاملة الجوار، حتى تفوح شمعتهم مسكاً وعطرا في الآخرين .
3. الإحسان إلى الرجل الغريب الذي يظاً أرضهم وديارهم، وكذا إكرامه .
4. الوفاء في الوعود .
5. حسن الاستماع، وتعلم فن الإصغاء .
6. الإيجاز في الكلام عند التحدث؛ فإن مع الإكثار يكون الخطأ والإهدار .
7. التحلي بالشجاعة في الدفاع عن النفس والشرف والقبيلة، فأشرف الميتات وأكرمها الموت في أرض المعركة .

¹ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة -العصر الجاهلي، عصر صدر الإسلام-، ج: 01، ص: 48-

² ينظر: هاشم صالح مناع، النشر في العصر الجاهلي، ص: 119 - 121.

8. ضرورة ضبط النفس عند الغضب .

9. عدم صرف الوقت مع مَنْ لا يَضُرُّ من الناس ولا ينفع، فذاك فيه خسارة ولا يُرجى منه خير .

10. التحذير من الزواج بالأقرباء ومصاهرة أبناء الحي الواحد؛ فذاك في نظره، قد يُسبب الضعف والخلاف.

1-2- وصايا الأمهات لبناتهم: عرف الأدب العربي في العصر الجاهلي نماذج لوصايا من الأمهات إلى بناتهم، أشهرها :

• وصية أمامة بنت الحارث إلى ابنتها أم إياس :تقول فيها: «أي بُنية: إنّ الوصية لو تُركت لفضل أدب، تُركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومُعونة للعاقل (...) يا بُنية: احلمي عني عشر خصالٍ تكن لك دُخْرًا وذكراً: الصُّحْبَةُ بالقناعة، والمعاشرَةُ بِحُسْنِ السَّمْعِ والطَّاعَةِ، والتَّعَهُدُ لِمَوْعِدٍ عَيْنِهِ، والتَّفَقُّدُ لِمَوْضِعِ أَنْفِهِ، فلا تَقْعُ عَيْنُهُ مِنْكَ عَلَى قَبِيحٍ، ولا يَشْمُ أَنْفُهُ مِنْكَ إِلَّا أَطْيَبَ رِيحٍ، والكُحْلُ أَحْسَنُ الحُسْنِ، والماءُ أَطْيَبُ الطَّيْبِ المَفْقُودِ، والتَّعَهُدُ لَوَقْتِ طَعَامِهِ، والهُدُوءُ عَنْهُ عِنْدَ مَنَامِهِ، فَإِنَّ حَرَارَةَ الجُوعِ مَلْهَبَةٌ، وَتَنَغِيصَ النَّوْمِ مَغْضَبَةٌ، والاحتفاظ بِبَيْتِهِ وَمَالِهِ، والإِرْعَاءُ عَلَى نَفْسِهِ وَحَشَمِهِ وَعِيَالِهِ، فَإِنَّ الاحتفاظَ بِالمالِ، حُسْنُ التَّقْدِيرِ، والإِرْعَاءُ عَلَى الْعِيَالِ وَالْحَشَمُ حُسْنُ التَّدْبِيرِ، ولا تُفْشِي لَهُ سِرًّا، ولا تَعْصِي لَهُ أَمْرًا، فَإِنَّكَ إِنْ أَفْشَيْتَ سِرَّهُ، لَمْ تَأْمَنِ غَدْرَهُ، وَإِنْ عَصَيْتَ أَمْرَهُ أَوْعَرْتَ صَدْرَهُ، ثُمَّ اتَّقِي مَعَ ذَلِكَ الفَرْحَ إِنْ كَانَ تَرَحًّا، والاكتئابَ عِنْدَهُ إِنْ كَانَ فِرْحًا، فَإِنَّ الخِصْلَةَ الأولى من التَّقْصِيرِ، والثَّانِيَةِ من التَّكْدِيرِ، وَكُونِي أَشَدَّ مَا تَكُونِينَ لَهُ إِعْظَامًا، يَكُنْ أَشَدَّ مَا يَكُونُ لَكَ إِكْرَامًا، وَأَشَدَّ مَا تَكُونِينَ لَهُ مُوَافَقَةً، يَكُنْ أَطْوَلَ مَا تَكُونِينَ لَهُ مُرَافَقَةً، واعْلَمِي أَنَّكَ لَا تَصْلِينَ إِلَى مَا تُحِبِّينَ حَتَّى تُؤْثِرِي رِضَاهُ عَلَى رِضَاكِ وَهَوَاهُ عَلَى هَوَاكِ، فِيمَا أَحْبَبْتَ وَكَرِهْتَ، وَاللَّهُ يَخِيرُ لَكَ»¹.

¹ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة -العصر الجاهلي، عصر صدر الإسلام-، ج: 01، ص:

- نقلت الأمّ في هذه الوصية عصارة تجاربها الزوجية لابنتها المقبلة على الزواج، إذ نجد جملة تلك الوصايا تدور حول رعاية الزوج والعناية به . وقد تمثّلت في¹:
1. التّحلّي بالقناعة والمعاشرة له بحُسن السمع والطاعة .
 2. التّعهّد لموقع عينه؛ أي العناية بالمظهر، بحيث لا يرى الزوج منها إلّا كلّ مبهج وجميل في المظهر، أو الثياب، أو المطبخ، أو في كلّ شؤون البيت .
 3. التّفقّد لموضع أنفه: بحيث لا يشمّ الزوج منها إلّا أطيب ريح، وقد أوصت "أمّامة" ابنتها في هذا الشأن، بأبسط المواد وأيسرها حصولاً، وهما: الماء والكحل .
 4. التّعهّد لوقت طعامه: فلا بدّ للزوج من أن يجدَ طعامه مُعدّاً على الشكل الذي يرغب فيه .
 5. الهدوّ عند منامه: قصدت "أمّامة" بذلك: الرّاحة والطمأنينة في النّوم، ذلك أنّ الرجل إذا تعب من كدّ نهاره، لجأ إلى بيته كي يجد السكينة فيه، ويرتاح بدّنه، وتهدأ جوارحه .
 6. الاحتفاظ ببيته وماله: إذ لا يجوز للمرأة التصرف بمال زوجها، إلّا بإذنه، حيث إنّ غنى الزوج غناها، وفقّره فقّرها .
 7. الإرعاء على نفسه وحشّمه وعياله: هذا الإرعاء، هو حُسن التدبير، ومُنتهى المحبة .
 8. التّهي عن إفشاء السرّ: إذ لا يجوز للزوجة أن تكشف أسرار زوجها، خاصّها أو عامّها، صغيرها أو كبيرها .
 9. عدم عصيان الأوامر: لا بدّ من طاعة الزوج وتنفيذ أوامره، صغيراً كان هذا الأمر أو كبيراً، حقيراً أو عظيمّاً.
- أمّا في نهاية الوصية أكدت الأمّ لابنتها، أنّ نجاح علاقتها الزوجية -وكلّ هذه الأمور- لن يتحقق، إذا لم تجد في نفسها القدرة على أن تفرح لفرحه، أو تحزن لألمه، أو أن تؤثر هواه على هواها، ورضاه على رضاها، فيما أحبّت أو كرهت².

¹ ينظر: هاشم صالح مناع، الشر في العصر الجاهلي، ص: 142-145.

² ينظر: سهام الفريح، أدب الوصايا في العصر الجاهلي، ص: 52.

خلاصة القول، إنّ الوصايا في العصر الجاهلي، لم تكن حريصة على توريث المال أو مناصب السيادة في القبيلة فقط، بل تعدّت ذلك، وحملت في ثناياها، وبأسلوب خطابي مباشر، مجموعة من الحقائق المستخلصة من تجارب الموصي، كما دعت إلى تقوية الروابط الأسرية والمعاملات الاجتماعية، وكذا ضرورة التمسك بمكارم الأخلاق والعمل بها؛ لأنّها قوام المجتمعات وأساسها.

2/ الوصايا في عصر صدر الإسلام :

طُبِعَت الوصايا في عصر صدر الإسلام بطابع إسلامي، وأصبحت وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية، لما حملته من قيم إيمانية تدعو إلى عبادة الله ورسوله، وكذا الالتزام بمبادئ الدين الحنيف . كما أنّ المتأمل في القرآن الكريم ليجدّه مليئاً بالوصايا الدينية التي تُعالج علاقة الإنسان برّبه، ومن ثمّ علاقته بنفسه، وبالمجتمع - كوصايا "لقمان لابنه"، وغيرها-، وهو الأمر الذي أدّى إلى تنوع هذه الوصايا، وتعدّد أغراضها وموضوعاتها، لتشمل مختلف نواحي الحياة الدينية والدنيوية. ولبيان ذلك نعرض بعض النماذج من وصايا "الرسول محمد عليه الصلاة والسلام"، ووصايا الخلفاء الراشدين.

أ- وصايا الرسول محمد عليه الصلاة والسلام:

رسمت وصايا سيّدنا "محمد" - عليه الصلاة والسلام- للمسلمين الطريق المستقيم، الذي ينبغي على كلّ إنسان مسلم اتّباعه، حتّى ينال ثواب الآخرة، كما دعت وصاياها إلى ضرورة التمسك بالدين الإسلامي؛ فبيّنت تعاليمه وأوامره ونواهيه، ولعلّ وصايا "الرسول" في خطبة (حجّة الوداع)¹؛ ذات الألفاظ الفصيحة والمعاني البليغة، لخير دليل على ذلك .

نذكر -على سبيل التمثيل لا الحصر- بعض الوصايا التي جاء بها "محمد" عليه الصلاة والسلام:

¹ ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة -العصر الجاهلي، عصر صدر الإسلام-، ج: 01،

- قوله صلى الله عليه وسلم: «أوصاني ربّي جلّ وعزّ بتسع، وأنا أوصيكم بها، أوصاني بالإخلاص في السرّ والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمي، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبداً»¹.

يُوصي "الرسول" عليه الصلاة والسلام أمته بمكارم الأخلاق، وإصلاح ذات البين، وصلة الأرحام، وغيرها من المعاني الجليلة التي أقرها الدين الإسلامي.

- قوله صلى الله عليه وسلم: «أوصيكم بثلاث، وأنهاكم عن ثلاث: أوصيكم بالذكر، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة/ الآية: 152)؛ وأوصيكم بالشكر، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم/ الآية: 07)؛ وأوصيكم بالدعاء، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر/ الآية: 60)؛ وأنهاكم عن البغي، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ (يونس/ الآية: 23)؛ وأنهاكم عن المكر، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر/ الآية: 43)؛ وأنهاكم عن النكث، فإنّ الله جلّ جلاله يقول: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (الفتح/ الآية: 10)»².

نلاحظ أنّ الوصية جرّت على منوال تركيبي ثنائي المبنى، تتمثّل في: الإيصاء (بالذكر، والشكر، والدعاء)، والنهي عن (البغي، والمكر، والنكث)، مستدلاً في ذلك "الرسول" عليه الصلاة والسلام على كلّ منوال بآيات من القرآن الكريم، التي أكّدت المقاصد وشرّعت الأحكام.

ب - وصايا الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - :

سار خلفاء "الرسول" عليه الصلاة والسلام من بعده على نهجه، فتمسكوا بكتاب الله وسنته، ثمّ عملوا على نشر مبادئ الإسلام وتعاليمه .

¹ ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1404هـ - 1983م،

ج: 02، ص: 256.

² أسامة بن منقذ، لباب الآداب، تح: أحمد محمد شاكر، ص: 06.

من بين وصاياهم، نخصّ بالذكر:

- وصية أبو بكر الصديق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما: يقول فيها: «إني مُستخلفك من بعدي، ومُوصيك بتقوى الله، إنَّ لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنَّه لا تُقبل نافلةٌ حتَّى تُؤدَّى الفريضة، فإنَّما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتِّباعهم الحقَّ في الدنيا وثقله عليهم، وحُقَّ لميزان لا يُوضع فيه إلَّا الحقُّ أن يكون ثقيلاً، وإنَّما خفَّت موازين من خفَّت موازينه يوم القيامة باتِّباعهم الباطل وخفَّت عليهم، وحُقَّ لميزان لا يُوضع فيه إلَّا الباطل أن يكون خفيفاً، إنَّ الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرهم قلت إني أخاف ألا أكون من هؤلاء، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرهم قلت إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً، ولا يتمنى على الله غير الحقِّ، ولا يُلقي بيده إلى التهلكة، فإذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحبَّ إليك من الموت، وهو آتيك، وإن ضيَّعت وصيتي فلا يكن غائب أبغضَ إليك من الموت ولست بمعجز الله»¹.

يؤكد "أبو بكر الصديق" -رضي الله عنه-، في هذه الوصية على تقوى الله، لأنَّها أساس النجاح والفوز في الدنيا والآخرة، كما سعى إلى تذكير "عمر بن الخطاب" -رضي الله عنه-، بجزاء أصحاب الحقِّ وأصحاب الباطل، ورسم له صورة محببة لأهل الحقِّ؛ الذين يثقل ميزانهم بالأعمال الصالحة في الآخرة، في حين أنَّ أصحاب الباطل يخفّ ميزانهم في الآخرة، ويكونون من أهل النار .

- وصية أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد -رضي الله عنهما- : يقول له فيها: «سرَّ على بركة الله، فإذا دخلت أرض العدو، فكن بعيداً من الحملة، فإني لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد، وسر بالادلأء، ولا تُقاتل بمجروح، فإنَّ بعضه ليس منه، واحترس من البَيَات، فإنَّ في العرب غرة، وأقلل من

¹ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة -العصر الجاهلي، عصر صدر الإسلام-، ج: 01، ص: 77.

الكلام، فإنّ ما لك ما وُعي عنك، وأقبل من الناس علانيتهم، وكلّهم إلى الله في سريرتهم، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه».¹

سعى "أبو بكر الصديق" -رضي الله عنه- في هذه الوصية إلى توجيه وتذكير "خالد بن الوليد" -رضي الله عنه-، بأصول القتال في الحرب، وكذا الطرق الواجب اتباعها بصفته قائد جيش المسلمين؛ كأخذ الحيطة والحذر من العدو، وغيرها من الأمور .

- وصية أبو بكر الصديق لعمر بن العاص -رضي الله عنهما-: نصّها: «أتق الله في السرّ والعلانية، فإنّه من يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته، ويُعظم له أجراً، فإنّ تقوى الله خير ما تواسى به عباد الله».²

هي وصية كالوصايا السابقة، فيها إلحاح وتأكيد على تقوى الله سرّاً وعلانية؛ لأنّها خير ما يتواسى به العباد، وبها يثقل ميزان المرء في الآخرة، وتُكفّر عنه سيئاته.

- وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص -رضي الله عنهما-: أوصاه بها حين أمّره على حرب العراق، قائلاً له: «يا سَعْدُ سَعْدَ بَنِي وَهَيْب، لَا يَغُرُّكَ مِنَ اللَّهِ أَنْ قِيلَ خَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَلَكِنَّهُ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلَّا طَاعَتُهُ، فَالنَّاسُ شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ سَوَاءٌ، اللَّهُ رَبُّهُمْ وَهُمْ عِبَادُهُ، يَتَفَاضِلُونَ بِالْعَافِيَةِ، وَيُدْرِكُونَ مَا عِنْدَهُ بِالطَّاعَةِ، فَانْظُرِ الْأَمْرَ الَّذِي رَأَيْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْذُ بُعِثَ إِلَى أَنْ فَارَقْنَا فَالْزَمَهُ، فَإِنَّهُ الْأَمْرُ، هَذِهِ عِظَتِي إِيَّاكَ، إِنْ تَرَكْتَهَا وَرَغِبْتَ عَنْهَا حَبِطَ عَمَلُكَ، وَكُنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ».³

نلاحظ من خلال هذه الوصية حرص "عمر بن الخطاب" تذكير "سعد بن أبي وقاص" -رضي الله عنهما- على عدم الغرتر والافتخار بنسبه وقربته للرسل، أو مصاحبته إياه، لأنّ الناس عند

¹ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة -العصر الجاهلي، عصر صدر الإسلام-، ج: 01، ص: 75.

² م ن، ص: 75.

³ م ن، ص: 91 - 92.

الله سواء، لا يتفاضلون بالقرابة أو النسب، وإنما يتفاضلون بأعمالهم الصالحة، ومدى امتثالهم لأوامر الله، واجتنابهم نواهيه .

- وصية عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- للمجاهدين: يقول فيها: «بسم الله وبالله، وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله، وما النصر إلا من عند الله، ولزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ولا تجبئوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تُسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هريمًا ولا امرأة ولا وليدًا، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شن الغارات».¹

في هذه الوصية يُوصي "عمر بن الخطاب" كافة المجاهدين بالتوكل على الله، ولزوم الحق والصبر على الشدائد في قتال الكفار، كما ينهاهم عن قتل الهرم والمرأة والطفل في الحروب، وغيرها من الأمور التي أوصى بها الله ورسوله بضرورة تجنبها في الجهاد.

بناءً على ما سبق، يمكن القول: إن الوصايا في عصر صدر الإسلام عرفت انتشارًا واسعًا، وتعددت في موضوعاتها، فمنها؛ وصايا تدعو إلى تقوى الله وطاعته، والثبات على مبادئ الدين الإسلامي وقيمه (كوصايا "الرسول" عليه الصلاة والسلام)، ومنها؛ وصايا متعلقة بالخلافة (كوصية أبي بكر الصديق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما)، ومنها؛ وصايا الخلفاء لقادة الجيوش (كوصية أبي بكر الصديق لخالد بن الوليد رضي الله عنهما)، ووصايا للمجاهدين أثناء الحروب (كوصية عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- للمجاهدين)، وغيرها. وهي وصايا وإن اختلفت في مضامينها، إلا أنها لم تخرج عن الإطار العام للوصية في عصر صدر الإسلام؛ ألا وهو الطابع العقائدي والإيماني المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية.

3/ الوصايا في العصر الأموي :

كثرت الوصايا في العصر الأموي، وتفرعت في محاور متعددة؛ كوصايا الآباء للأبناء، ووصايا الخلفاء للأمراء والقادة والولاة، بالإضافة إلى نوع جديد من الوصايا ظهر في هذا العصر تمثل في

¹ م س ، ص: 91.

وصايا الأمراء لمؤدبي أولادهم، غير أنّ هذه الوصايا على اختلافها، إلّا أنّها لم تخرج عن المبادئ العامة التي أقرّها الدين الإسلامي.

3-1- وصايا الخلفاء للأمراء :

- وصية عبد الملك بن مروان لأحد أمرائه: يقول فيها: «أنت تاجر الله لعباده، فكُن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربّاً اتَّجَرَ، وإلّا تَحَفَّظْ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة، حتّى تُحرز السلامة، وكُن من احتيالك على عدوك، أشدّ حذراً من احتيال عدوك عليك»¹.

تضمّنت الوصية جملة من النصائح والإرشادات التي يُوصي بها "عبد الملك بن مروان" أحد أمرائه، قصد الالتزام بها في معاملاته التجارية مع غيره، بل حتّى في معاملاته مع أعدائه .

3-2- وصايا الخلفاء للولاة :

- وصية معاوية بن أبي سفيان لزياد حين ولاه العراق: يُوصيه فيها بالقول: «يا زياد، ليكنّ حُبّك وبغضك قصداً، فإنّ العثرة فيها كامنة، واجعل للنزوع والرجوع بقية من قلبك، واحذر صولة الانحماك، فإنّها تُؤدي إلى الهلاك»².

أخذت الوصية في معناها بُعداً سياسياً، عمّد "معاوية" إيصاله "لزياد"، حتّى لا يتعثّر في ولايته على العراق، كما أوصاه بأن يتّصف بالحنكة والبراعة في إدارة شؤونه العامة، وإلّا فإنّه سيهلك .

3-3- وصايا الأمراء لمؤدبي أولادهم: ظهر هذا النوع من الوصايا في العصر الأموي، إذ لم يسبق له وجود من قبل³، ويُقصد به تلك الوصايا التي يُصدرها الأمراء لمُعَلّمي أولادهم ومُربّيهم. مثل:

- وصية عتبة بن أبي سفيان لمؤدّب أولاده: نصّها: «ليكنّ أول ما تبدأ به من إصلاح بنيّ إصلاح نفسك، فإنّ أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت،

¹ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة - العصر الأموي-، ج: 02، ص: 185.

² أحمد أمين مصطفى، أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، ص: 20.

³ ينظر: روناك توفيق علي النورسي، وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي -دراسة فنية-، ص: 20.

وعلمهم كتاب الله، ولا تُكرههم عليه فيمْلُوهُ، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم رَوَّهم من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أشرفه، ولا تُخرجهم من علمٍ إلى غيره حتى يُحكِّموه، فإنَّ ازدحام الكلام في السمع مضلَّة للفهم، وتَهْدَدُّهم بي، وأدْبُهُم دُونِي، وكُنْ لهم كالطبيب الذي لا يَعْجَلُ بالدواء قبل معرفة الداء، وجَنَّبَهُم محادثة النساء، ورَوَّهم سِيرَ الحكماء، واستزديني بزيادتك إياهم أزدك، وإياك أن تتكلَّ على عُذر منِّي لك، فقد اتكلتُ على كفاية منك، وزد في تأديهم أزدك في برِّي إن شاء الله تعالى»¹.

يحرص "عتبة بن أبي سفيان" من خلال هذه الوصية أن يكون مؤدَّب أولاده، يتميز بالكفاءة وحسن التعامل معهم، وأن يتَّصف بالتوجيهات التي ذكرها له الأمير في الوصية، لأنَّ المؤدِّبين قبل كل شيء -في نظر أبناء الأمراء- هم القدوة والنموذج الأمثل الذي يُقتدى به .

3-4- وصايا الآباء للأبناء: لا تختلف وصايا الآباء لأبنائهم في العصر الأموي في مضامينها، عن المعاني الإسلامية والقيم الأخلاقية التي أقرتها وصايا عصر صدر الإسلام؛ كتقوى الله، وصلة الأرحام، وغيرها من المبادئ الجليلة. مثل:

- **وصية الملهب بن أبي صفرة لأبنائه:** يقول: «أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإنَّ صلة الرحم تُنسى في الأجل، وتُثري المال، وتُكثر العدد، وأنْهاكم عن القطيعة، فإنَّ القطيعة تُعقب النار، وتورث الذلة والقلَّة، تباذلوا وتواصلوا تحابوا، وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا، وتباروا تجتمع أموركم، إنَّ بني الأم يختلفون، فكيف ببني العلات؟ وعليكم بالطاعة والجماعة، ولتكنَّ فعالكم أفضل من قولكم، فإني أحبُّ للرجل أن يكون لِعَمَلِهِ فضلٌ على لِسَانِهِ، واتَّقوا الجواب، وزلَّة اللسان، فإنَّ الرجل تزلُّ قدمه فينتعش من زلَّته، ويزلُّ لِسَانُهُ فيهلك...»².

¹ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة -العصر الأموي، ج: 02، ص: 212.

² م ن، ص: 272.

4/ الوصايا في العصر العباسي:

شهد العصر العباسي ازدهارا كبيرا، واتساعا في دائرة المعارف، نتيجة اتصال العرب بغيرهم من الأمم - كالفُرس مثلاً-، وانفتاحهم على مختلف الحضارات، فحصل الامتزاج وتنوعت الأساليب، وتداخلت العلوم والآداب والفنون، وطُبعت بعلاقة التأثير والتأثير كما أنّ الوصية شأنها شأن الفنون الأدبية الأخرى، لم تسلم من ذلك التواشج، فأصبحت التغيير، وتطوّرت في معانيها وأغراضها وموضوعاتها، فانقسمت إلى وصايا سياسية ومهنية، ووصايا خُلقية ودينية، ووصايا اجتماعية، وغيرها.

4-1- الوصايا السياسية والمهنية :

يتمثّل هذا النوع من الوصايا في وصايا الخلفاء العباسيين، الذين حرصوا على إدارة شؤون الدولة العباسية، والحفاظ على كيانها واستقرارها، إلّا أنّ وجه الاختلاف -في الغالب- يكمن في نوع وطبيعة الجهة الموصى إليها، حيث اتخذت وصايا الخلفاء عدّة أشكال؛ منها وصاياهم لولاة العهد من بعدهم -أي أولادهم-، ووصايا مُوجّهة من الخلفاء إلى الوزراء والكُتّاب، ووصايا القوّاد، ووصايا الخُجّاب

أ- وصايا الخلفاء لولاة العهد: رسمت وصايا الآباء الخلفاء لولاة عهدهم المسار الصحيح لسياسة الحكم التي وجب على وليّ العهد اتّباعها في تسيير أمور وشؤون الدولة الإدارية منها أو التنظيمية، وكذا في معاملة رعيّته معاملة عادلة .

من النماذج الدالّة على ذلك:

- وصية أبو جعفر المنصور لابنه المهدي: يقول فيها: «أتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي، يجعل لك فيما كُربك وحَزَنك مخرجا، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب، احفظ يا بُني محمداً صلى الله عليه وسلّم في أمته، يحفظ الله عليك أمورك، وإياك والدم الحرام، فإنّه حُوب عند الله عظيم، وعارٌ في الدنيا لازم مقيم، والزم الحلال، فإنّ فيه ثوابك في الآجل، وصلاحك في العاجل، وأقم الحدود، ولا تَعْتِد فيها فتبور، فإنّ الله لو علم أنّ شيئا أصلح لدينه، وأزجر عن معاصيه من الحدود، لأمر به في كتابه (...)، ولا تُجاوز ما أمر الله به في مُحْكَم القرآن،

واحكم بالعدل ولا تُشيطط، فإنّ ذلك أقطع للشغب، وأحسم للعدوّ، وأنجع في الدواء، وعفّ عن الفئء، فليس بك إليه حاجة مع ما أخلّفه لك، وافتتح عملك بصلة الرّحم وبرّ القرابة، وإيّاك والأثرة، والتبذير لأموال الرعية، واشحن الثغور، واضبط الأطراف، وأمن السُّبل، ونُصّ الواسطة، ووسّع المعاش، وسكّن العامّة، وأدخل المرافق عليهم، وأصرف المكاره عنهم، وأعدّ الأموال واخزنها، وإيّاك والتبذير، فإنّ النوائب غير مأمونة، والحوادث غير مضمونة...»¹.

وجّه "أبو جعفر المنصور" لابنه "المهدي" مجموعة من النصائح والوصايا، أهمّها :

1. تقوى الله.

2. الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام.

3. لزوم الحلال واجتناب الخمر.

4. إقامة الحدود.

5. الحكم بالعدل.

6. صلة الأرحام.

7. عدم تبذير الأموال.

8. توفير المعاش والسكن والمرافق.

9. تحصين البلاد وتأمينها.

10. صرف المكاره عن الرعية.

- وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله: مضمونها: «عليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته ومراقبته ومزايلة سُخطه وحفظ رعيّتك، والزّم ما ألبسك الله من العافية بالذكر، لمعادك، وما أنت صائر إليه، وموقوف عليه، ومسؤول عنه، والعمل في ذلك كلّ بما يعصمك الله، ويُنجيك يوم

¹ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة - العصر العباسي الأول-، ج: 03، ص: 31 - 32.

القيامة من عذابه، وأليم عقابه، فإنّ الله قد أحسن إليك، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل عليهم، والقيام بحقّه وحدوده فيهم...»¹.

جمعت هذه الوصيّة بين أمور الدّين والدنيا، وقد قيل عنها: «ما أبقي طاهر شيئاً من أمر الدين والدنيا، والتدبير والرأي، والسياسة وإصلاح الملك والرعية، وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة، إلّا وقد أحكمه وأوصى به»².

بناءً على النموذجين السابقين، نستنتج أنّ وصايا الخلفاء لولاة العهد، على الرغم من توجهها السياسي، إلّا أنّها طُبِعَت بالوعظ الديني الذي يُحْت على تقوى الله والافتداء بنبّيه.

ب- وصايا الخلفاء إلى الوزراء والكتّاب : لم تتضح معالم الوزارة، ومنصب الوزير، إلّا في العصر العباسي، فقد قيل: «والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها، إلّا في دولة بني العباس. فأما قبل ذلك فلم تكن متقنة القواعد، ولا مقرّرة القوانين، بل كان لكلّ واحد من الملوك أتباع وحاشية، فإذا حدث أمر استشاري بذوي الحجا والآراء الصائبة، فكلّ منهم يجري مجرى الوزير، فلمّا ملك بنو العباس، تقررّت قوانين الوزارة، وسُمّي الوزير وزيراً، وكان قبل ذلك يُسمّى كاتباً أو مشيراً»³.

أمّا بالنسبة للكتّاب، فالغالب منهم كانوا كتّاباً في الدواوين، "كأبي عبد الله معاوية" وزير "المهدي"، الذي كان كاتبه ونائبه، ثمّ أصبح وزيراً له، و"يحيى بن خالد البرمكي" الذي كان كاتباً "لهارون الرشيد" ونائباً له قبل توليه الخلافة، وبعد ذلك استوزره "الرشيد" في عهده، ومنحه سلطة مطلقة في تصريف الأمور⁴. ووُصفوا -الكتّاب- بأنّهم: «نظام الأمور، وكمال الملك، وبهاء السلطان، وهم الألسنة الناطقة عند الملوك، وخزّان أموالهم، وأمناءهم على رعيّتهم وبلادهم»⁵.

¹ م س-، ج: 3، ص: 134 - 135.

² سهام الفريخ، الوصايا ومدى تطورها في العصر العباسي الأول، ص: 30.

³ م ن، ص: 34.

⁴ ينظر: م ن، ص: 39 - 40.

⁵ م ن، ص: 40.

نقتصر في هذا المقام على وصية من الوصايا الموجهة إلى الوزراء، وهي وصية "عبد الله المأمون" عند اختياره لأحد وزرائه، قائلاً: «أني التمسيت لأُموري رجلاً جامعاً لخصال الخير ذا لطف في خلّاقه، واستقامة طرائقه، قد هدّبه الآداب وأحكمته التجارب. إن ائتمن على الأسرار كتمها، وإن قلّد مهمات الأمور نهض بها، يسكنه الحلم، وينطقه العلم، تكفيه اللحظة وتُغنيه اللوحة. له صولة الأمراء وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الأدباء. يسترق قلوب الرجال بحلاوة حديثه، ويُعجز الفضلاء بفصاحة لسانه وحُسن بيانه، ويُودع محبته القلوب بلطائف إحسانه، إن أُحسن إليه شكر، وإن ابتُلّي بالإساءة صبر وانتظر، فهذا الذي يصلح أن تعقد به الأمور، وتفوض إليه سياسة الجمهور»¹.

ج- وصايا الخلفاء للقوّاد: يُوجّه هذا النوع من الوصايا، من الخلفاء إلى قادة الجيوش في الحروب، من أجل تذكيرهم بآداب الحروب في الإسلام؛ كالدعوة إلى حُسن معاملة الشيوخ والنساء والأطفال، وغير ذلك، وكذا الإقدام في الحرب والجرأة في لقاء العدو، ونبد الخوف والضعف². كما نجد هذه الوصايا تنزع إلى البساطة في الشكل واستخدام الخطاب المباشر، لأنّ الغاية ممّا ينشده الموصي فيها- وصايا القوّاد- «سلامة العبارة وصحتها مع رصانة الألفاظ وقوة تأثيرها، لتوضيح المعنى وتوصيله إلى الموصي له، ولعلّ سبب ذلك أنّ هذه الوصايا صدرت كأوامر للقوّاد، لذلك كادت تخلو من أيّ تزويق لفظي أو معنوي»³، وكذا خلّوها من التكليف والتعقيد.

ومن وصايا القوّاد في هذه الفترة، التي نعرضها؛ وصية "الخليفة المنصور" التي أوصى بها "عيسى بن موسى" - من أمراء بني العباس وقادّتها- لما أرسله إلى الحرب ضدّ "محمد بن عبد الله" في المدينة المنورة، قائلاً له: «يا أبا موسى إذا صرت إلى المدينة فادعُ محمد بن عبد الله بن الحسن إلى الطاعة

¹ سهام الفريخ، الوصايا ومدى تطورها في العصر العباسي الأول، ص: 38.

² ينظر: م ن، ص: 79. وينظر أيضاً: روناك توفيق علي النورسي، وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي -دراسة

فنية-، ص: 32- 34.

³ م س، ص: 83.

والدخول في الجماعة، فإن أجابك فاقبل منه، وإن هرب منك فلا تتبعه، وإن أبى الحرب فناجزه واستعن بالله عليه»¹.

من الوصايا كذلك وصية "هارون الرشيد" التي أوصى بها "علي بن عيسى" -أحد قادة الدولة العباسية-، بقوله له: «يا علي تيقظ في أمورك، واحترس من عدوك، وشاور ذوي الأسنان والتجارب، تُفتح لك أبواب المطالب، واتق الله يُعطيني عليك، ولا تعصه يُسلطني عليك»².

نلاحظ من خلال هذه النماذج حرص الخلفاء على توجيه قادتهم في الحروب، حتى يكون النصر حليفهم، شريطة عدم الإخلال بآداب الحروب الإسلامية .

د- وصايا الخلفاء إلى الحُجّاب: أخذ الحُجّاب في الخلافة العباسية يشغل مناصب إدارية مهمة، حيث أضحت صلة الاتصال بين الخليفة والرعية، وهذا ما أدّى بالخلفاء العباسيين إلى منع الناس عن ملاقاتهم إلا إذا كان الأمر بالغ الأهمية، وبعد أخذ الإذن من الحُجّاب. كما راح الخلفاء يُعظّمون منصب الحُجّابة، لأنّه في نظرهم منصب عظيم المنزلة، كَوْن الحُجّاب يُحسن معاملة الناس، ويُقدّر مقاماتهم ومنازلهم، ويقف عند حاجات الرعية ويُلبّيها³.

ومن نماذج الوصايا على ذلك، ما أورده الخليفة "أبو جعفر المنصور" عن حاجبه، حين قال: «إنّك بولايتي عظيم القدر، وبحجابتي عريض الجاه»⁴.

4-2- الوصايا الدينية والخُلُقِيّة :

غلب على هذا النوع من الوصايا في الخلافة العباسية الطابع الديني الذي نهل من القرآن والسنة، وما تمّ توارثه من العصور السابقة من حكم وأمثال، بالإضافة إلى ما نقلته الخلافة العباسية من علوم وفنون وآداب من الأمم الأخرى إلى العربية. ولعلّ أهمّ الوصايا التي برزت في هذا النوع:

¹ سهام الفريخ، الوصايا ومدى تطورها في العصر العباسي الأول، ص: 82.

² م ن ، ص: 83.

³ ينظر: رونك توفيق علي النورسي، وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي -دراسة فنية-، ص: 45-47.

⁴ م ن، ص: 47.

وصايا الخلفاء والكتّاب إلى المؤدّبين والمعلّمين، وصايا الوعاظ إلى الخلفاء، وصايا الوعاظ لعامة المسلمين، وصايا الحكماء .

أ- وصايا الخلفاء والكتّاب إلى المؤدّبين والمعلّمين: إذا كان العصر الأموي اقتصر على ظهور وصايا الخلفاء إلى المؤدّبين فقط، فإنّ العصر العباسي وسّع من ذلك، إذ لم تعد تصدر الوصايا إلى المؤدّب عن طريق الخليفة أو الأمير فحسب، بل إنّها أخذت تصدر أيضا عن بعض الأدباء والكتّاب ورجال الفكر كافة، كوصايا "بشر بن المعتمر"، وغيره من كتّاب العصر ممّن امتهن التعليم¹. إلّا أنّ الوصايا التي حظيت باهتمام كبير في هذه الفترة هي وصايا الخليفة إلى المؤدّب بدرجة أولى، ومن ثمّ وصايا الكاتب أو رجل الفكر إلى المؤدّب بدرجة ثانية. ممثّل لذلك بـ:

- وصية الخليفة "هارون الرشيد" لـ "علي بن المبارك الأحمر" مؤدّب ولده "الأمين": يقول فيها: «يا أحمر، إنّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مَهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطه، وطاعته لك واجبة، فكُن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام، وبدئه، وامنعه من الضحك إلّا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرّن بك ساعة إلّا وأنت مغتنم فائدة تُفيده إيّاها، من غير أن تُحزنه، فثميت ذهنه، ولا تُمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالثرب والملاينة، فإنّ أباهما فعليك بالشدة والغلظة»².

يرسّم "هارون الرشيد" في هذه الوصية صورة المنهاج التعليمي والتربوي الذي وجّب على مؤدّب ولده اتّباعه في تعليمه إيّاه، ذلك أنّ المؤدّب إذا أعدّ نفسه جيّدًا لهذه المسؤولية، ونجح في تأديتها على أحسن وجه، فإنّه قد يرتفع إلى أعلى مكانة ومقام عند الخليفة، أمّا إذا فشل في هذه المهمة، فسينزل إلى أدنى مكانة.

¹ ينظر: سهام الفريح، الوصايا ومدى تطورها في العصر العباسي الأول، ص: 66.

² أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة - العصر العباسي الأول، - ج: 03، ص: 82

وترى "سهام الفريح" في هذا الصدد، أنّ أهمّ المبادئ والأسس التي أوصى بها الخلفاء والكتّاب إلى مؤدبي أولادهم، تتمثل في:¹

1. التعليم الديني: تتمثل في التركيز على الدعوة إلى تعلّم القرآن الكريم والسنة الشريفة، وقد أولى الخلفاء لهذا الجانب عناية خاصة في تأديهم للأبناء .

2. الاهتمام بقراءة الأخبار والسير للتعرف على أخبار الماضين من العرب ومن الأمم الأخرى، حتّى يكون المتأدّب أكثر فهماً وتعرّفاً لطبيعة مجتمعه، ومطلعاً على مشاكله، وعلى الأحداث السياسية وأساليب حلّها، فيأخذ منها بعد ذلك عبرة تُعينه في تدبير أمور الحكم عند توليه السلطة .

3. اللغة وعلومها: نالت الاهتمام الكبير في وصايا الخلفاء لمؤدبي أولادهم خاصّة، وفي وصايا المعلّمين عامة، وقد لا تخلو وصيّة من من هذه الوصايا من الدعوة إلى الاهتمام باللغة وعلومها، لأنّ إتقان اللغة يُعتبر من مستلزمات الحكم الأساسية، فيها يُفند حُجج خصومه، وتقوى حُجّته.

ب - وصايا الوعاظ إلى الخلفاء: اتّسعت طبقة الوعاظ في العصر العباسي بكثرة، ولعلّ ذلك راجع إلى ردّ الفعل على الظواهر الاجتماعية والسلوكية الجديدة التي طرأت على واقع المجتمع العباسي نتيجة الامتزاج بالأمم الأجنبية -في مقدّمهم الفرس-، حيث تنافّت بعض السلوكات مع سلوك العرب وتعاليم دينهم. ولأجل ذلك تكفّلت طبقة من الوعاظ في توجيه وصاياهم الوعظية للخلفاء العباسيين مُتخذة من تسامح الخلفاء وسعة صدورهم لسماع نُصحتهم وإرشادهم، طريقاً لتوجيه وصاياهم الوعظية².

كما انطبعت هذه الوصايا بالطابع الديني الخالص، وتميّزت «بفصاحة اللفظ وبلاغة المعنى وإثارة الشعور، وإذعان النفس، فكانت تُبهر سامعها بما أشاعوا فيها من الإيمان الشديد والتقوى، يستمدون لوصاياهم ممّا في الذكر الحكيم والحديث الشريف وأقوال الصحابة والتابعين»³.

¹ ينظر: سهام الفريح، الوصايا ومدى تطورها في العصر العباسي الأول، ص: 71 - 73.

² ينظر: روناك توفيق علي النورسي، وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي -دراسة فنية-، ص: 50 - 51.

³ م س، ص: 64.

ومن أمثلة ما جاء في وصايا الوعاظ؛ وصية "الأوزاعي" للخليفة "المنصور" عندما أرسل بطلبه، فقال له: «... فحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظرا، ولما استطاع من عوراتهم ساترا، وبالقسط فيما بينهم قائما، لا يتخوف محسنهم منه رهقا، ولا مسيئهم عدوانا...»¹.

إنّ استماع الخليفة "المنصور" لـ "الأوزاعي"، للدليل واضح على اتّساع صُدور الخلفاء في العصر العباسي، وتقبّلهم للإرشاد والتوجيه والنصح الديني، كما أن هذه الوصية هي دعوة صريحة لحثّ الخلفاء والحكّام إلى العناية بالرعية وتدبير مختلف أمور حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية، وغيرها.

ج- وصايا الوعاظ لعامة المسلمين: نظرا للفوضى وتدهور الحياة السياسية في الخلافة العباسية وضياح هيبتها - نتيجة الامتزاج بالأجانب وظهور بعض السلوكات السلبية، كما أشرنا سابقا- كان لزامًا على طبقة الوعاظ أن يتوجهوا إلى توصية عامة الناس -وليس الخلفاء فقط- وتذكيرهم بما ينبغي على المسلم فعله بُجاء خالقه ودينه؛ من التزام بمبادئ الدين وقيمه الإسلامية الفاضلة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، كما سعى الوعاظ إلى تحذير الناس من ملذات الدنيا وشهواتها².

من الأمثلة؛ وصية أحد الواعظين لرجلٍ من بغداد، ينصحه بتقوى الله وطاعته، وفعل الخير، وحفظ الأمانة، وصدق الحديث، إذ يقول له: «اتَّقِ اللَّهَ فِي سِرِّكَ وَعَلَانِيَتِكَ، وافعل الخير ما أمكنك، ولا تُضِعْ أمانة مَنْ ائتمنك، أو صدّق الحديث ساءك أو أحزنك»³.

د- وصايا الحكماء: إنّ لوصايا الحكماء أهمية بالغة في معالجة مختلف ضروب الحياة الدينية والدنيوية، لأنّ الحكيم حين يُصدر وصيته، يكون قد أصدرها نتيجة عصارة تجارب وخبرات مختلفة في الحياة، مليئة بالعبر والعظات، في شكلٍ مُوجز اللفظ، بليغ المعنى، دقيق التعبير، واضح الأسلوب، قويّ الحجّة والأثر على العقول والقلوب .

¹ روناك توفيق علي النورسي، وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي -دراسة فنية-، ص: 51.

² ينظر: م ن، ص: 54- 55.

³ م ن، ص: 56.

ومن وصايا الحكماء التي نعرضها، ما جاء في وصية حكيم لابنه، ينصحه قائلاً: «يا بُني كُن جَوَادًا بِالمال في موضع الحقِّ، ضَنِينًا بالأسرار عن جميع الخلق، فإنَّ أحمدَ جُود المرء الإنفاق في وجه البرِّ، والبخل بمكتوم السرِّ»¹، حيث يُوصيه هاهنا بالجود في المال، وحفظ السرِّ. كذلك يُوصي أحد الحكماء بضرورة طلب العلم وتعليم الآخر، فيقول: «عَلِّم مَنْ يجهل وتعلَّم مَنْ يعلم، فإذا فعلت ذلك حفظت ما علمت، وعلمت ما جهلت»².

4-3- الوصايا الاجتماعية :

يشمل هذا النوع مختلف الجوانب الاجتماعية التي تُؤطر علاقة الفرد بمجتمعه، وكذا معاملاته، نحو:

- وصايا حُسن الاستماع للغير: هي وصايا مرتبطة بأداب الحديث مع الآخر، وحُسن الاستماع إليه، مثل وصية "ابن المقفع" (ت 142هـ)، التي يقول فيها: «تعلَّم حُسن الاستماع كما تتعلَّم حُسن الكلام، ومن حُسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضي حديثه، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم والوعي لما يقول...»³.

- وصايا في الصداقة والإخوان: تتوجه هذه الوصايا إلى الأصدقاء والإخوان، كما تُبين وتُحدّد علاقات الإنسان بأفراد مجتمعه، ومن نماذج ذلك؛ ما وقف عنده الخليفة "المأمون" في وصيته لأبنائه، حين أقرّ بتنوع الإخوان والأصحاب، فقسّمهم إلى ثلاثة أقسام⁴، في قوله: «الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يُستغنى عنه، وطبقة كالدواء لا يحتاج إليه أحياناً، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبداً»⁵.

¹ رونك توفيق علي النورسي، وصايا الأدياء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي -دراسة فنية-، ص: 62.

² م ن، ص: 62.

³ أحمد أمين مصطفى، أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، ص: 76-77.

⁴ ينظر: سهام الفريح، الوصايا ومدى تطورها في العصر العباسي الأول، ص: 49، ص: 54.

⁵ م ن، ص: 54.

إنّ ما سبقت الإشارة إليه من أنواع للوصايا في الخلافة العباسية (وصايا سياسية مهنية، وصايا دينية خلقية، وصايا اجتماعية)، يقودنا إلى استنتاج مفاده أنّ هذه الوصايا -رغم تعددها- اتّسمت بالوضوح والبساطة في مضامينها، بعيداً عن التكلّف والتعقيد، كما أنّ الطابع الديني طغى عليها بصفة كبيرة، وإن كانت قد عاجلت جوانب دنيوية في الحياة. وهذا ما أكّده "أحمد أمين مصطفى" بقوله: «فجميع الوصايا سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو دينية ترتبط بالوصايا الدينية من قريب أو بعيد»¹.

5/ الوصايا في العصر الأندلسي:

إنّ العصر الأندلسي كغيره من العصور التي سبقتة شهد أنواعاً متعددة من الوصايا، سنقتصر على ذكر نماذج مقتضبة منها -لأننا في الفصل اللاحق سنشرع في دراسة وصية شاملة لموضوعات متعددة، أغتننا عن التنظير لهذا العصر- دون تبّعها جميعاً.

أ- **وصايا الاستخلاف:** تكون هذه الوصايا من الحُكّام -الخلفاء أو السلاطين- إلى ولاة عهدهم، بهدف «وضع المناهج السليمة التي يهتدي إليها ولاة العهد، وإيجاد قوانين ملزمة يعملون بمقتضاها في إدارة شؤون دولهم وممالكهم، وذلك بالعمل بالنصائح والوصايا التي تصدر عن الأمراء والحكماء، الذين يعتمدون إلى نقل تجربتهم السياسية، وخبرتهم الطويلة في ممارسة السياسة وشؤونها، وذلك من أجل خدمة الإسلام وحماية المسلمين في بلاد الأندلس، وكذلك تجنب المستخلفين الوقوع في الأخطاء والزلل، كونهم معرضين لذلك، ولثقل تلك المسؤولية أمام الله ورعيته»².

إنّ هذه الوصايا -وصايا الاستخلاف- إذن، بمثابة دستور يتركه الحُكّام لمن يستخلفهم، حتّى يسيروا على نهجه ويعملوا به في إدارة شؤون بلادهم السياسية والاجتماعية.

¹ أحمد أمين مصطفى، أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، ص: 166.

² بغدادى بشرى، الوصية في الأدب الأندلسي وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده -دراسة حضارية فنية-، رسالة ماجستير في الأدب الأندلسي والحضارة المتوسطية، إش: كروم بومدين، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر

بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2010م- 2011م، ص: 24.

ومن الأمثلة نستدل بـ :

- وصية الأمير الحكم بن هشام لابنه عبد الرحمن (ولي عهده): «يا بُني، احفظ ما أقول لك وأوصيك به، وأصغ إليه بسمعك وذهنك (...)، اعلم أنّ أولى الأمور بك، وأوجبها عليك، حفظ أهلك ثمّ عشيرتك، ثمّ الذين يلونهم من مواليك وشيعتك، فهُمْ أنصارك وأهل دعوتك ومشاركوك في حُلوك ومُرك، فِهم أنزل ثقتك (...)، وختام وصيتي إيتك بإحكامك في أحكامك. فاتّق الله ما استطعت وإلى الله أكلك، وإياه أستحفظك»¹.

هاهنا، يتوجه الأمير "الحكم بن هشام" إلى ولي عهده بأوامر وإرشادات في مختلف المجالات؛ سياسية، اجتماعية دينية، وغيرها، التي وَجِبَ اتّباعها في تدبير شؤون الحُكم والرعية المسؤول عنها.

ب-وصايا الوزراء إلى السلاطين والأمراء: كوصية "لسان الدين بن الخطيب" (ت 776هـ) لسلطانه: «واعلموا أنّ سوء الأدب مع الله يفتح أبواب الشدائد، ويسدّ طرق العوائد، فلا تطلوا بالتوبة أزمانكم، ولا تأمنوا مكر الله فتغشوا إيمانكم، ولا تعلقوا متابكم بالصّرائر، فهو علاّم السرائر، وإِنّما علينا أن نصحكم وإن كنّا أولى بالنصيحة، ونعتمدكم بالموعظة الصريحة، الصادرة -علم الله تعالى- عن صدق القريحة، وإن شاركناكم في الغفلة فقد سبقناكم إلى الاسترجاع والاستغفار، وإِنّما لكم لدينا نفس مبدولة في جهاد الكفار، وتقدم قبلكم إلى مواقف الصبر التي لا ترضى بالفرار، واجتهاد فيما يعود بالحُسن وعُقبى الدار، والاختيار لله وليّ الاختيار، ومُصَرّف الأقدار»².

يسعى الوزير "لسان الدين بن الخطيب" من خلال وصيته إلى تذكير سلطانه بالعواقب التي تنجم عند مخالفة أوامر الله، وعدم الامتثال لتعاليم الدين الإسلامي. لأنّ المرء مهما كانت مرتبته أو

¹ ابن حيان القرطبي، المُقتَبَس من أبناء أهل الأندلس، تح: محمود علي مكّي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1973م، ص:

229 - 230.

² المُقَرَّب، نفح الطيب من عُصْن الأندلس الرّطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1369هـ - 1949م، ج: 10، ص: 244 - 245.

منزلته ومنصبه في السيادة والحكم، فإنّ ذلك لا يشفع له أو ينفعه في الآخرة، بل الذي يشهد له؛ عمله الصالح، وطاعته لله ورسوله.

ج- وصايا الوزراء إلى أبناء السلاطين: كوصية "لسان الدين بن الخطيب" إلى أحد أبناء السلطان "أبي الحسن المريني" يدعوه فيها إلى نصرته الدين حين تشتد الصعاب، فيقول: «وإذا تداعت أمم الكفر نصرته لدينها المكذوب، وحمة لصلبيها المنصوب، فمن يُستدعى لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيه إلّا أهل ذلك الوطن؟ حيث المآذن بذكر الله تملأ الآفاق، وكلمة الإسلام قد عمّت الربا والوهاد (...)، وهذا أوان الاعتناء، واختيار الحماة، وإعداد الأوقات، قبل أن يضيق المجال، وتمنع الموانع (...)، ويُدّ الله مع الجماعة، والمسلمون يدّ على من سواهم، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً، والتعاون على البرّ والتقوى مشروع، وفي الذكر الحكيم مذكور»¹.

يُنَبّه الوزير في وصيته ابن السلطان بضرورة التآزر والتكافل نصرة لدين الإسلام حين تضيق السبل، ويكثر الفساد، لأنّ الأولى بالحكم وتحمل المسؤولية بعد السلطان هم أولاده، فلذلك وجب العمل على إرساء هذا الدين وبعث مقوماته، ليكون قادرا على مجابهة أمم الكفر التي تترصده في كل حين.

د- وصايا من المُعلّمين لتلامذتهم: من النماذج ما أوصى به "عبد الحق بن سبعين" تلامذته، قائلا لهم: «حفظكم الله، حافظوا على الصلوات، وجاهدوا النفس في اجتناب الشهوات، وكونوا أوّابين، توابين، واستعينوا على الخيرات بمكارم الأخلاق، واعملوا على نيل الدرجات السنية، ولا تغفلوا عن الأعمال السنية، وحصلوا مخصص الأعمال الإلهية ومهملها، وذوقوا مفصل الذات الروحانية ومحملها، ولازموا المودة في الله بينكم، وعليكم بالاستقامة على الطريقة، وقدموا فُرس الشريعة على الحقيقة»².

¹ م س، ج: 06، ص: 148.

² لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1،

تضمنت الوصية جملة أوامر وتوجيهات تقضي بضرورة التحلي بمكارم الأخلاق والعبادات، واجتناب الشهوات والملذات؛ ففي اتباع الأولى فوز وفلاح، وفي اتباع الثانية خسران وإخفاق.

هـ- وصايا دينية تربوية: تهدف هذه الوصايا إلى تنشئة الفرد الأندلسي على السلوك السليم، والخلق الحسن القويم، وفق ما أمر به الدين الحنيف.

من النماذج نقف على:

1- تقوى الله وطاعته: مثل وصية "ابن الجيان" للأمراء وعامة الناس، إذ يقول: «فأول ما نوصيكم به وأنفسنا تقوى الله في كل حال، ومراقبة أوامره ونواهيه عند كل انتحاء وانتحال، والوقوف عند حدود الله التي حدّها، وأرصدها بإزاء موجباته وعدّها»¹.

2- تعليم القرآن: كقول "ابن الجيان": «ومُرُوهم بأن يُعلِّموا أولادهم كتاب الله، فإنّ تعليمه للصغار يُطفئ غضب الربّ ونعم الشفيع هو يوم القيامة، والمتوسل فيما يُتوجّج القارئ وأباه تاج الكرامة، وأرشدوا للخير ما استطعتم، واتَّبِعُوا سبيله فهو أشرف ما اتَّبِعْتُمْ، والله وليّ التوفيق والإرشاد، والملجئ بالهداية إلى طريق الفوز والسداد»².

ونُتَوّه في هذا المقام إلى أنّ تعليم القرآن، ليس المقصود به مجرد حفظه، بل تدبّره وفهم إعجازه وبلاغته ونظمه العجيب الذي لا يقدر على حصره وتحديد دلالاته أيّ أحد من البشر، وفي ذلك يقول "فاضل صالح السامرائي": «إنّ إعجاز القرآن مُتعدّد النواحي، مُتشعّب الاتجاهات، ومن المتعذر أن ينهض لبيان الإعجاز القرآني شخص واحد ولا حتّى جماعة في زمن ما مهما كانت سعة علمهم

¹ المقرئ، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 264.

² م ن، ص: 269.

وأطّاعهم وتعدّد اختصاصاتهم. إنّما هم يستطيعون بيان شيء من أسرار القرآن في نواحٍ متعدّدة حتّى زماخهم هم»¹.

3- العدل: هو ميزان المساواة بين أفراد المجتمع، لذلك ركّز عليه بعض الموصين في وصاياهم، كما يجب على الحاكم أن يتّصف بالعدل في معاملاته وأوامره اتجاه رعيته، حتّى لا يضيع حقّ الناس. وقد أوصى "ابن الجيان" بالعدل قائلاً: «العدل العدل فيه قامت السموات والأرض، وبإقامته أُقيمت السنّة والفرض، اعدلوا هو أقرب للتقوى، وأقوى ما تشتدّ به أركان الدين وتَقْوَى»².

عموماً، نستنتج أنّ وصايا العصر الأندلسي مُوطّرة في مجملها ضمن مطلب عام، مفاده الدعوة إلى تقوى الله والامتثال لمبادئ الدين الإسلامي، بتثبيت دعائمه وحماية مقدساته من الفساد والمنكرات، والانحلال الذي عرفته الأندلس آنذاك.

¹ فاضل صالح السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ط3، 1423هـ- 2003م، ص: 05.

² المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب -، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج: 10، ص: 264.

ثالثا- الوصية: الخصائص والأهمية :

أ- خصائص الوصية :

- بعد اطلاعنا وتتبُّعنا لتاريخ الوصية عبر مختلف العصور، وعرضنا لنماذج متعددة من الوصايا، توصلنا إلى استنتاج مجموعة من الخصائص والسمات التي اتَّصف بها هذا الجنس الأدبي، نُحملها في :
- تعدُّد وتنوع مجالات استعمال الوصية، إذ لم تقتصر على الشعراء والأدباء فقط، بل «وظَّفها السياسيون والفقهاء والشعراء والمتصوفة والبلاغيون وكتاب الأدب العام وغيرهم»¹.
 - عدم الخضوع للتسلسل المنطقي، إذ لا يُلزم الموصي نفسه بالخضوع «لتنظيم بين مُحكم، ولا لرؤية تأليفية مسبقة أو صارمة، بقدر ما يستسلم لحرِّيته ولِمَنطق كتابته الخاصّ، ولِمَنطق مقام التوصية والترشيد الذي يُتيح له التحرك ضمن مساحة واسعة لاستيعاب كثير من القضايا الإنسانية»².
 - الدقّة والسهولة والوضوح، والإيجاز الوافي الذي يجمع بين البراعة وبلاغة الأسلوب وحلاوته.
 - الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي، وأقوال الصحابة والتابعين، والحكم والأمثال، إذ تُعتبر هذه المصادر المنهل والمرجع الأساس الذي يستند عليه الموصي في إنشاء خطاب الإيضاء.
 - السلاسة والإيجاء، وخلوها من الغموض والتعقيد.
 - تكون بعض أنواع الوصايا خطابا حجاجيا إقناعيا بامتياز: (كالوصايا الوعظية...).
 - البُعد عن الركافة والابتدال والتكلّف في التصوير.
 - نُدرة الصور البيانية في الوصايا، وما يحضر منها يأتي «عفو الخاطر لتوضيح المعنى المراد، وإبرازه محسوسا، ونحسّ أنّها مألوفة قريبة إلى النفوس ليس فيها جزء غريب نحسّ أنّه دخيل على الصورة»³.
 - تُوظَّف الوصايا في مضامينها التأثير العاطفي الوجداني الذي يُؤثّر في النفوس.

¹ عبد الفضيل أدرائي، بلاغة الوصية (وصية عليّ بن أبي طالب إلى ولده الحسن نموذجاً)، ضمن كتاب: بلاغة النص التراثي -

مقاربات بلاغية حجاجية-، إش: محمد مشبال، ص: 119.

² م ن، ص: 122.

³ أحمد أمين مصطفى، أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، ص: 206.

- خطاب الوصايا خطابٌ صادقٌ وواقعيٌّ؛ فصادقٌ، لأنّه ينبع من ذات مُوصيةٍ تَمَلِّكُها لحظة الموت-أو تستحضرها وتتصورها-، خصوصاً أنّ موضوعاتها مقرونة بقيم إنسانية. وواقعيٌّ، لأنّه خلاصة تجارب وخبرات واقعية وحقيقية عاشها الموصي في حياته، ويسعى إلى نقلها للموصى.
- تَلْزَم الوصايا الفصاحة في ألفاظها.
- تَلْزَم الوصايا حُدود الأدب واللباقة، إذ قلّما نجد فيها الألفاظ النابية والبذيئة.
- الوصايا مليئة بالعبر والحكم والعظات.
- الإكثار من الأساليب الإنشائية، وبخاصّة الأمر والنهي.
- توظيف أساليب التوكيد والقصر والقسم والشرط.
- الإكثار من توظيف المحسنات البديعية، وبخاصّة السجع والطباق.
- الافتتاح بالبسملة أو الحمدلة في بداية الوصية.
- لا تقتصر الوصايا على شكل واحد؛ فقد تكون طويلة أحياناً، وقصيرة موجزة في أحيان أخرى.
- تتعدد فيها أنواع الخطاب واستراتيجياته -نُفَصِّل في ذلك لاحقاً-، وفي هذا الصدد يذهب "هيثم محمد سرحان" إلى تقديم وصفٍ جامعٍ لخطاب الوصية، بأنّه: «رجائيّ توسليّ وعظيّ ظاهريّ، وإلزاميّ وإذعائيّ وإرضائيّ باطنيّ، وخطابٌ حضورٍ وتحلٍّ وحيّة رمزيّ، وخطابٌ أفولٍ وتلاشٍ وموتٍ واقعيّ»¹.

أي: إنّ الذات الموصية في ظاهر القول تُصرِّح وتطلبُ وتترجى الموصى، إلّا أنّها في باطنه -أي القول- تُلْزِم وتفرض على الموصى الإذعان والانقياد لهذا الخطاب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإنّ هذه الذات الموصية حاضرة رمزيّاً، إلّا أنّها في حقيقة الأمر ذاتٌ مُودَّعة على مشارف الغياب والعَدَم والأفول والتلاشي، امتلكت الحكمة والخبرة فيما مضى، وتسعى إلى توريثها لما هو آتٍ.

¹ هيثم محمد سرحان، شعرية الوصية في نماذج من السرد العربي الكلاسيكي، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة،

ب - الغاية والأهمية :

إنّ الوصية عموماً تحوي صفوة الكلام، وتُتوج التجربة الإنسانية للذات الموصية بخلاصة الخبرات، وما استُخلص منها من عِبَرٍ وحِكَمٍ وحقائق، فتتشابك حينئذ الغايات والمقاصد، التي يسعى الموصي إلى نقلها للموصى وتوريثها إيّاه، فتكون بذلك الوصية «تعلّماً وتبصرة، وإرشاداً وموعظة، وتذكيراً للعاقل ومنبهة للغافل»¹، غايتها الأسمى «إيصال الخبرة ونقل التجربة ومدّ جسور المعرفة التي يتناقلها البشر بُغية تحقيق الخير لهم بشكل عامّ أيّا كان ميدان تلك الوصية»²، كما أنّها تُرغّب في فعل الخير وتنهى عن فعل الشرّ، وهي بهذا المعنى «خطاب اعتراف بالفضائل وإنكار للذائل»³. ويمكن إجمال أهمية الوصية في⁴:

- الوصية ثمرةٌ وخلاصةٌ لتجارب متنوعة اكتسبها الموصي، فصاغها في قالب بليغ، يجمع بين العبرة والاتعاظ وتُموّ التعبير بمشاعر وجدانية صادقة.
- حاجة الفرد والجماعة في كلّ زمان ومكان إلى النصيح والتوجيه، والتنبيه من الغفلة، ولا يتحقق ذلك إلّا عن طريق الوصايا التي تضمن الرأي السديد والسلوك السليم الأمثل.
- الجُمع بين الترغيب والترهيب، فالترغيب يكون في أمور هي من مصلحة الموصى، لما فيها من خير وصلاح ورشاد، أمّا الترهيب، فيكون بالتحذير من الاغترار بالدنيا وملذاتها.
- اكتساب الوصية أهميتها من القرآن الكريم، فهو المصدر الذي ينهل منه الموصون في وصاياهم، وقلّما ما نجد وصايا خالية من الاستشهاد بالقرآن.
- الوصايا ذات أبعاد تربوية وأخلاقية ودينية، تُقوّم حياة الأفراد وسلوكاتهم.

¹ عبد الله البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً -مقاربة أسلوبية حجاجية-، ص: 12.

² حذيفة عبد الله عزام، الوصايا في الأدب الأندلسي، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، إشراف: صلاح جرار، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، الأردن، جوان 2007م، ص: 08.

³ هيثم محمد سرحان، شعرية الوصية في نماذج من السرد العربي الكلاسيكي، ص: 84.

⁴ ينظر: خالد بن صالح مدّ الله السعري، أدب الوصايا في النثر الأندلسي، ص: 45.

- تُعدّ الوصية في غالب الأحيان وثيقة تاريخية للعصر الذي قيلت فيه.
- تعمل الوصايا على تجميع أكبر قدر من الحقائق والمعلومات والعبر، قصد إبلاغها للموصى.

رابعاً- الوصية بين تفاعل الخطابات واستراتيجيات الخطاب:

1/ الوصية وتفاعل الخطابات:

إذا كان الخطاب في مفهومه العام يُوصف بكونه «استراتيجية التلفظ»¹، ويُقصد به كلّ متتالية أو وحدة لسانية (لغوية) ينتجها الباثّ (المتكلّم) تتعدى وتتجاوز أبعاد الجملة²، بهدف التأثير في الآخر وإفهامه. فإنّ الناظر والمتأمل لفنّ الوصايا -على سبيل التمثيل الوصايا التي عرضناها سابقاً- سيلحظ لا محالة حضور هذه الوحدة اللغوية في مضامينها، بل الأصح أن نقول وحدات لغوية متعددة، وبمعنى أدقّ خطابات متنوعة، ذات أبعاد تواصلية، ضمن نسيج الوصية الواحد. إنّ الوصايا تجمع بداخلها أكثر من نوع خطابي، وهو ما يُصطلح عليه "تفاعل الخطابات"³ (Interaction Discours)، أيّ؛ إنّ مقام الإيضاء الواحد يحمل «خطابات متنوعة ومتراصة، ويبقى البحث عن نوع الخطاب الذي يحمل المركزية في المقام التواصلية، هو ما قد يُساعد على تبين أيّ خطاب يخدم الآخر في ظلّ ذلك التفاعل»⁴، كأن يتداخل الخطاب الديني مع الخطاب السياسي، أو يتداخل الخطابين التربوي والديني، وغير ذلك بكثير، فيُكَمَّل أحدهما الآخر، فيُصبح لدينا : (خطاب مركزي + خطاب ثانوي).

واستناداً إلى ما أشرنا إليه سابقاً من أنواع للوصايا، نضرب الأمثلة التالية:

- **تفاعل الخطابين التربوي والاجتماعي:** مثل وصية "أمامة بنت الحارث" التي حملت جُملة من القيم التربوية، بُغية توظيفها لغرض اجتماعي تمثّل في العلاقة التي ستجمع ابنتها بزوجها في المستقبل وكيفية معاملتها له.

¹ عبد الواسع الحميري، ما الخطاب وكيف نحلّله، الناشر: بَحث المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1،

1430هـ- 2009م، ص: 09.

² ينظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن-السرد-التبعية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1997م، ص: 22.

³ ينظر: خالد عبد العزيز التحكاني، بلاغة الوصية مقارنة بلاغية حجاجية، ص: 154.

⁴ م ن، ص: 154- 155.

- **تداخل الخطابين الديني والتربوي:** كوصايا "الرسول" عليه الصلاة والسلام، وإن كانت وصاياه لا تقتصر على هذا التداخل فقط أو تُحصر فيه، لأنها ذات دلالات ومعاني شاملة لمختلف جوانب الحياة.

- **تداخل الخطابين الديني والسياسي:** كالوصية التي أوصى بها "أبو بكر الصديق" لـ "عمر بن الخطاب" رضي الله عنهما، حين استخلفه، فهذه الوصية وعلى الرغم من اشتغالها على كثير من المعاني الدينية، إلا أنها ذات غايات سياسية بدرجة أولى. كما يُمثّل هذا التداخل أيضاً؛ وصايا الخلفاء والسلطين والأمراء لولاة عهدهم، مثل ما عرضنا من نماذج في العصر الأموي، والعباسي، والأندلسي.

- **تداخل الخطابين الديني والاجتماعي:** مثل الوصايا التي تكون في الصداقة والإخوان، فقد ينصح الصديق صديقه ويوجهه إلى الطريقة المثلى في التعامل مع الآخرين، هذا من ناحية، ويُذكّره بالمعاني الدينية والقيم الخلقية التي نصّ عليها الدين الإسلامي في باب المعاملات مع الغير، من ناحية أخرى. فيتفاعل بذلك ما هو اجتماعي بما هو ديني في آن واحد.

- **تداخل الخطابين التربوي والسياسي:** لا يكاد يخرج هذا التداخل عن إطار التداخل بين الخطابين الديني والسياسي، ذلك أنّ القيم التربوية مثلها مثل القيم والمعاني الدينية تأتي خادمة للغرض السياسي.

وعليه، يمكن القول إنّ خطاب الوصية يحمل في نسيجه ومضامينه خطابات تواصلية وظيفية متنوعة ومتباينة فيما بينها، بيد أنّها حين تجتمع داخل خطاب الإيضاء، فإنّها تترابط وتتآلف وتتفاعل فيما بينها، لتحقيق غاية واحدة؛ هي التأثير في المتلقي وإقناعه.

2/ الوصية واستراتيجيات الخطاب:

إنّ الغاية من إدراج هذا المبحث؛ استراتيجيات الخطاب (Stratégies de Discours) ضمن الوصايا، هو محاولة منّا للوقوف على ماهية استراتيجيات الخطاب وأنواعها أولاً، ومن ثمّ تحديد أهمّ

وأنجع الاستراتيجيات التي ينطوي عليها خطاب الإيضاء بصفة عامة، ومدى تمثّل وحضور هذه الاستراتيجيات في هكذا جنس أدبي من الخطابات، الذي يختلف عن غيره من الخطابات.

لأنّنا في خطاب الوصية «إزاء عملية خطابية من نوع خاصّ وحوار ليس كسائر أنواع الحوار. إنّنا إزاء حوار يبدؤه الطرف الأول قولاً ويُنهيهِ الطرف الثاني فعلاً، أو هو تبادل أقوال بأفعال، يتكلّم الطرف الأول فيخلق بالأقوال قوّة إنجازية يسعى بها إلى أن يجعل الطرف الثاني مُهيّئاً لتحويل الرّغبة المنشودة واقعاً متحقّقاً وتحويل الحلم القائم في النّفس عملاً مادياً محسوساً»¹.

ولما كانت هذه الميزة هي التي يتميز بها خطاب الإيضاء عن غيره من الخطابات، في انطلاقه من ذاتٍ موصية على شكل أقوال وصولاً إلى ذاتٍ أو ذواتٍ أخرى مُستقبلية -أو الموصى بلغة خطاب الإيضاء- على شكل أقوال أيضاً، لكنّها قابلة لأن تُصبح أفعالاً وواقعاً مُتحقّقاً، ارتأينا في هذا المقام طرح السؤال التالي: هل يجوز لنا في هكذا حالة أن نتحدث عن استراتيجيات خطابية في الوصايا؟

2-1- مفهوم استراتيجيات الخطاب:

يُعرّفها "عبد الهادي بن ظافر الشهري" بأنّها عبارة عن «المسلّك المناسب الذي يتّخذه المرسل للتلقّظ بخطابه، من أجل تنفيذ إراداته، والتعبير عن مقاصده، التي تُؤدي لتحقيق أهدافه، من خلال استعمال العلامات اللغوية وغير اللغوية، وفقاً لما يقتضيه سياق التلقّظ بعناصره المتنوعة، ويستحسنه المرسل»².

أي: هي الطريقة التي يتّبعها باثُ الخطاب في إنشاء خطابه، وصياغته على نحو سليم قادر على التعبير عن مقاصد المرسل وغاياته وأهدافه، وفقاً للسياق الذي قيل فيه ذلك الخطاب.

¹ عبد الله البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً -مقاربة أسلوبية حجاجية-، ص: 336-337.

² عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب -مقاربة لغوية تداولية-، ص: 62.

2-2- معاير اختيار الاستراتيجية المناسبة :

إنّ التنوع في استراتيجيات الخطاب لدى مستعمليها، ليس من قبيل الاعتبارية، بل هو خاضع لمعايير تُوجّه ذلك المتكلّم أو المرسل في اختياره للاستراتيجية الملائمة، أهمها :

2-2-1- معيار العلاقة بين طرّفي الخطاب: يرى "الشهري" أنّ المجتمع لا يخلو من العلاقات بين الناس؛ فقد تكون علاقات اجتماعية أو وظيفية أو غيرها، ولذلك يُمكن عدّها من عناصر السياق المؤثرة في إنتاج الخطاب. كما أنّ المعرفة المشتركة في قسط منها هي نتيجة من نتائج تلك العلاقة، وهذا ما يعني اضطلاعها بدور في افتراضات المرسل المسبقة، وبالتالي تُصبح المعرفة المشتركة - والافتراضات المسبقة - بين طرفي الخطاب، من العناصر الأساسية التي تُسهم في اختيار استراتيجية الخطاب¹.

ويقوم معيار العلاقة بين طرفي الخطاب على محورين رئيسين، هما²:

أ - محور العلاقة الأفقية (المحور الاستعمالي): تتبلور العلاقة فيه، في أكثر من خصيصة، أهمها:

- خصائص الدين: (مسلم، مسيحي...).
- خصائص الجنس: (الذكورة، الأنوثة).
- خصائص السن: (صغار، كبار، شيوخ).
- خصائص المهنة: (أساتذة، طلبة، ضباط، عمال... إلخ).
- العلاقات التعاطفية: من قبيل: (علاقة وُدّ، علاقة صدّ، علاقة قُرْب أو بُعد...).

ب - محور العلاقة العمودية (المحور الاستبدالي): تتبلور هذه العلاقة في مراتب تصاعدية للناس داخل بني المجتمع (درجة أعلى، أو درجة أدنى)، ممّا يجعلهم ينتمون إلى سلّم تراتبي، يقع فيه كلّ طرف من طرّفي الخطاب في إحدى درجاته؛ سواء أكان سلّمًا اجتماعيًا أم سلّمًا وظيفيًا. وهذا ما يحتاج المرسل إلى إدراكه، بل واستحضاره، فيترتب على ذلك كثير من الأمور. بيد أنّ هذا التصنيف

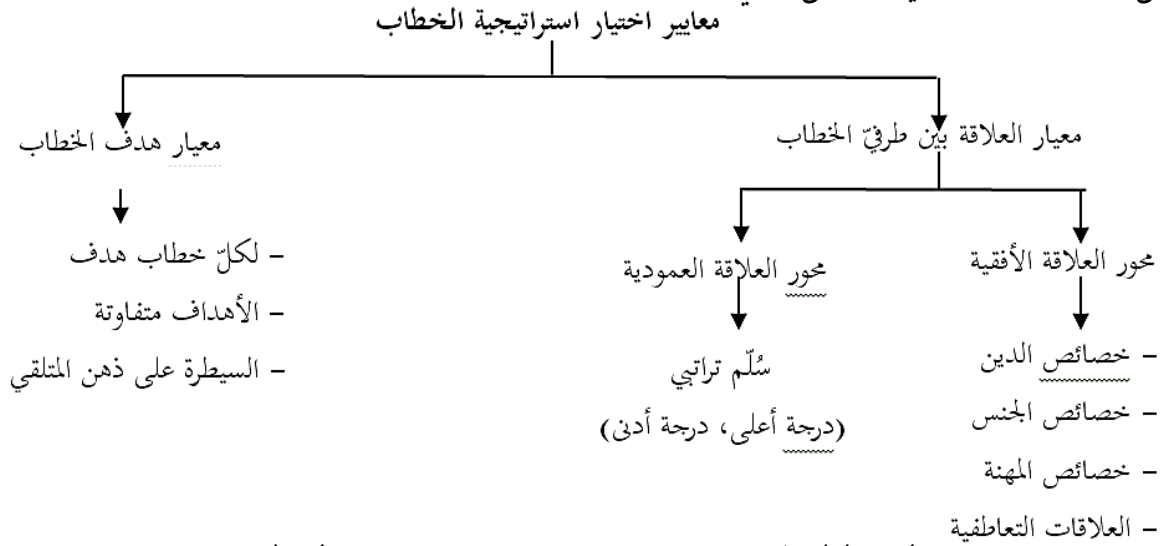
¹ ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية -، ص: 88.

² ينظر: م ن، ص: 89 - 90.

العمودي، وإن كان يُصنّف النَّاس في سلّم تراتبي، إلّا أنّه لا يقوم بمعزل عن التصنيف الأفقي، بل يمتزجان معًا.

2-2-2- معيار هدف الخطاب: يُعدُّ من أهمّ المعايير في تحديد نوع استراتيجية الخطاب واختيارها، حيث إنّ المرسل لا يُنتج خطابه عبثًا، بل يُنتجه من أجل تحقيق هدف مُعيّن، فتتفاوت هذه الأهداف من حيث أهميتها الخطابية، من جهة، ومن حيث ما تتطلبه من عمل ذهني ومخزون لغوي لتحقيقها، من جهة أخرى.¹ ذلك أنّ هدف المخاطب هو السيطرة على ذهن المخاطب والتأثير فيه وتوجيهه، وبناءً عليه -أي هدف الخطاب- يكون اختيار المرسل للاستراتيجية التي يراها ملائمة.

نُمثّل للمعايير السابقة في الشكل التالي :



المخطط رقم 16: معايير اختيار استراتيجيات الخطاب

2-3- أنواع استراتيجيات الخطاب:

بعد الإشارة إلى مفهوم استراتيجية الخطاب، وأهمّ المعايير التي يبيّن عليها المرسل اختياره للاستراتيجية المناسبة، نقف الآن عند أهمّ أنواع الاستراتيجيات الخطابية، وهي: الاستراتيجية التضامنية، الاستراتيجية التوجيهية، الاستراتيجية التلميحية، استراتيجية الإقناع.

2-3-1- الاستراتيجية التضامنية (Stratégie de Solidarité): هي استراتيجية يحاول المرسل من خلالها أن «يُجسّد بها درجة علاقته بالمرسل إليه ونوعها، وأن يُعبّر عن مدى احترامه لها ورغبته في

¹ ينظر: م س، ص: 149.

المحافظة عليها، أو تطويرها بإزالة معالم الفروق بينها، وإجمالاً هي محاولة التقرب من المرسل إليه، وتقريبه»¹. بمعنى أنّها تعزيزٌ لدرجة العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، بإزالة كلّ الفوارق والصعوبات التي يمكن أن تعترض هذه العلاقة. أمّا إذا كانت العلاقة بسيطة بين طرفيّ الخطاب أو غير موجودة، فإنّ «المرسل يسعى إلى تأسيسها بال تلفظ بالخطاب؛ بأن يتقرب من المرسل إليه، بما يجعله واثقاً بأنّ المرسل يميل إليه ميلاً طبيعياً خالياً من أيّ دوافع أو أغراض منفعيّة»²، وكأنّ بالمرسل يؤسّس لعلاقة بينه وبين المرسل إليه.

ومن شأن الخطاب بمهاته الاستراتيجية أن يُساوي بين درجات الخطاب، وأن يُقلّص المسافات، ممّا يضيق معه إطار الفرق، ويتنفى عوامل التشتت، فتُصبح العلاقة في نهاية الخطاب أفضل ممّا كانت عليه في بدايته، وهنا تتحقّق سمة التضامن؛ من أنّه علاقة التكافؤ المفترضة التي من شأنها أن تربط بين الناس في جماعات تشترك في اهتماماتها، وسلوكها وتمثيل ذاتها³.

بناءً على ما سبق، نستطيع حصر الاستراتيجية التضامنية، في كونها :

= علاقة تعزيز ← إذا كانت توجد قرابة وعلاقة بين المرسل والمرسل إليه.

= علاقة تأسيس ← إذا لم تكن هناك علاقة بين المرسل والمرسل إليه.

➤ مُسوّغات استعمال الاستراتيجية التضامنية: لها عدّة مُسوّغات، منها⁴:

- تأسيس الصداقة بين طرفيّ الخطاب، أو إعادتها بين طرفين فُرّق بينهما، فابتعدا كثيراً عن بعضهما البعض، أو العمل على تمرير العلاقة بين طرفين لهما علاقة دائمة.

- التركيز على حُسن التعامل مع صاحب السلطة بطريقة تُحقّق الأهداف، وتنقل المقاصد وتؤسّس العلاقات الطيّبة معه، أو تُبقي عليها.

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب -مقاربة لغوية تداولية-، ص: 257.

² م ن، ص: 257 - 258.

³ ينظر: م ن، ص: 258.

⁴ ينظر: م ن، ص: 261.

- تحسين صورة المرسل أمام الآخرين، إذا كان معروفاً بالتشدد في آرائه، أو التسلط في تعامله.
- تفعيل التضامن في حياة الناس، بما ينعكس على التفاعل الخطابي، وتطوير حقهم في ممارسة الحياة بحرية.

- أهمية استعمال هذه الاستراتيجية في الحقول التعليمية، حيث يكون التأدب والتخلق في الخطاب مع الطالب، وسيلة تُيسّر الفهم، فتُصبح بذلك طريقاً للعلم، وسبيلاً إلى المعرفة.

2-3-2- الاستراتيجية التوجيهية (Stratégie de Derectives): يرى "الشهري" أنّ الخطاب الذي يعتمد الاستراتيجية التوجيهية، يُعدُّ ضغطاً وتدخلاً، ولو بدرجات متفاوتة على المرسل إليه، بتوجيهه لفعلٍ مستقبليٍّ مُعيّن¹. كما أنّها استراتيجية تتّسم «بالوضوح في التعبير عن قصد المرسل، فوضوح القصد سبب في عدم حيرة المرسل إليه، ممّا يضمن تحقيق هدف المرسل»². أي؛ إنّها استراتيجية واضحة ومباشرة تعتمد أفعال التوجيه والإرشاد، يسعى من خلالها المرسل إلى التأثير على المرسل إليه أو توجيهه نحو سلوكات وأفعال يرغب هو -المرسل- في تحقيقها وإنجازها.

➤ مُسوِّغات استعمال الاستراتيجية التوجيهية: أهمّها³:

- عدم التشابه في عدد من السمات المعرفية، مثل: السمة المعرفية (الطالب / الأستاذ).
- الشعور بالتفاوت في مستوى التفكير بين طرفيّ الخطاب، أي؛ التفاوت في الدرجة بين المرسل والمرسل إليه، فقد يكون الأول خبيراً في مجال ما، أمّا الثاني فيكون غيّراً في ذلك المجال.
- تهميش ما قد يُحدثه استعمال هذه الاستراتيجية من أثر عاطفيٍّ سلبيٍّ على المرسل إليه، فيُقصي المرسل اعتبار هذه التأثيرات على نفسيّة المرسل إليه، متجاهلاً إيّاها.

2-3-3- الاستراتيجية التلميحية (Stratégie D'allusion): هي استراتيجية لا يستعمل فيها المرسل التعبير المباشر، وإنّما يعدل إلى التعبير غير المباشر، الذي ينتج عنه دلالات ضمنية مستلزمة،

¹ ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب -مقاربة لغوية تداولية-، ص: 322.

² م ن، ص: 327.

³ ينظر: م ن، ص: 328.

حيث يُعرّفها "الشهري" بأنّها: «الاستراتيجية التي يُعبّر بها المرسل عن القصد بما يُغايّر معنى الخطاب الحرفي، لينجز بها أكثر ممّا يقوله، إذ يتجاوز قصده مجرّد المعنى الحرفي لخطابه، فيُعبّر عنه بغير ما يقف عنده اللفظ مستثمرا في ذلك عناصر السياق»¹، كاستعمال الاستعارة والمجاز في الخطابات.

➤ مُسوّغات استعمال الاستراتيجية التلميحية: أبرزها²:

- التأدّب في الخطاب، وهو من أهمّ الأسباب، حيث يتمّ استعمال التلميح مراعاة لما تقتضيه بعض الأبعاد: كالبعد الشرعي؛ وما يُملّيه من ضرورة اطّراح فاحش القول، والبعد الاجتماعي؛ بضرورة احترام أذواق الآخرين وأسماعهم، والبعد الذاتي؛ وهو صيانة الذات عن التلفظ بما يُسيء إليها، أو بما قد يعكس دناءة المرسل في أذهان الآخرين.

- إعلاء المرسل لذاته على الآخرين وإضفاء التفوق عليها؛ بذكر معاييرهم أو الانتقاص من أقدارهم، كقول المرسل مثلاً: (فلان لا يفقه في أمور الحياة شيئاً)، إذ يستلزم: أنّه هو وحده الذي يفقه الكثير في أمور الحياة.

- رغبة المرسل أحياناً في التملص والتهرّب من مسؤولية الخطاب.

- الاستغناء عن إنتاج عدد من الخطابات، والاكتفاء بإنتاج خطاب واحد يؤدي معيّنين، هما: المعنى الحرفي والمعنى المستلزم في الآن نفسه، لأنّ المرسل قد يُعبّر في هذه الاستراتيجية عن قصد مباشر وآخر غير مباشر بخطاب واحد، مثل: (يتمّ تعبئة خزانات المياه المنزلية يومي السبت والثلاثاء)، فقول المرسل ها هنا يستلزم معيّنين: أحدهما هو قصده المباشر الظاهر في لغة الخطاب، والآخر؛ هو قصده غير المباشر، والذي تمثّل في أنّ هذه الخزانات لا تُعبأ في بقية أيام الأسبوع.

2-3-4- استراتيجية الإقناع (Stratégie de Persuasion): هي استراتيجية تداولية، يسعى من خلالها المرسل إلى تحقيق أهدافه بواسطة الخطاب. وتتمثل تلك الأهداف والمقاصد في إقناع المرسل

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب -مقاربة لغوية تداولية-، ص: 370.

² ينظر: م ن، ص: 370 - 373.

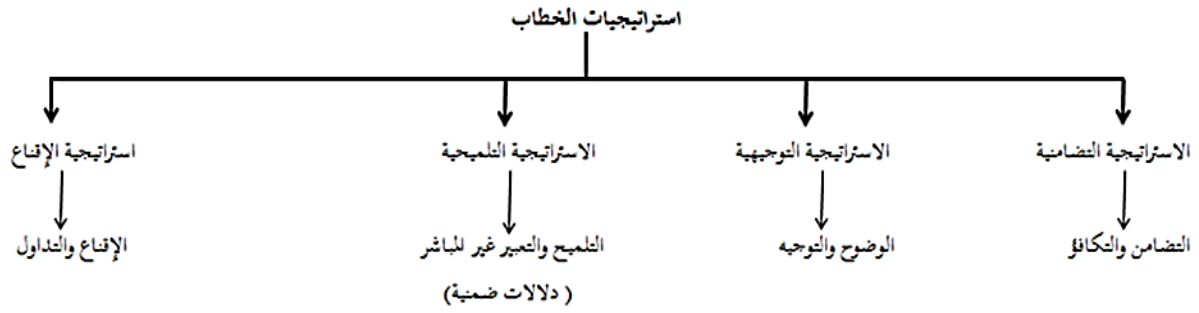
إليه بما يراه هذا المتكلم مناسباً، وذلك بإحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي لديه، حتى يقتنع بما يُطرح عليه من آراء وأفكار¹.

➤ **مُسَوِّغات استعمال استراتيجية الإقناع:** من بين المسوّغات التي تُرجّح استعمال هذه الاستراتيجية، ما يلي:²

- تأثيرها التداولي في المرسل إليه أقوى، ونتاجها أثبت، وديمومتها أبقي.
 - الرغبة في تحصيل الإقناع، إذ يعدّ هو الهدف الأسمى لكثير من أنواع الخطاب.
 - شمولية استراتيجية الإقناع، حيث إنّها تُمارس على جميع الأصعدة، فيمارسها الحاكم والفلاح والطفل والمرأة، كلّ ذلك بوعيٍ منهم.
 - الأخذ بتنامي الخطاب بين طرفيه عن طريق استعمال الحجاج -لأنّه شرط في ذلك- حتّى تتحقّق الإقناعيّة، كما أنّه من الممكن المزاجية بين أساليب الإقناع وأساليب الإمتاع في استراتيجية الإقناع، لتكون ذات تأثير أقوى على المخاطب.
 - ما تحقّقه من نتائج تربوية، حيث تُستعمل الاستراتيجية الإقناعية كثيراً في الدعوة، ولعلّ معالمها الواضحة في القرآن الكريم، وفي أقوال "الرسول" عليه الصلاة والسلام الداعية للإسلام، لخير دليل على ذلك.
 - قد تُستعمل هذه الاستراتيجية خشية سوء تأويل الخطاب، فيكون الإقناع بمثابة حلّ لتلك الاعتقادات غير الصحيحة التي تعترض الخطابات، فيدحضها بالحجّة والدليل.
- إجمالاً لما سبق نحصر الاستراتيجيات الخطابية في المخطط التالي:

¹ ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب -مقاربة لغوية تداولية-، ص: 444.

² ينظر: م ن، ص: 445 - 447.



المخطط رقم 17: أنواع استراتيجيات الخطاب

2-4- اشتغال استراتيجيات الخطاب في الوصايا:

ارتكازا على ما سلف من مهاد نظري لاستراتيجيات الخطاب وأنواعها، يمكن القول إنّ خطاب الوصايا، رغم كونه عملية خطابية مختلفة عن باقي الخطابات - تنطلق على شكل أقوال، لتصل إلى ذات مستقبلية فتصبح أفعالا-، إلّا أنّه لا يخلو من الاستراتيجيات الخطابية، لأنّ الوصية قبل كلّ شيء خطاب، ولكلّ خطاب هدف يروم صاحبه من خلاله التأثير في الآخر المتلقي لذلك الخطاب، باستعمال واتباع استراتيجية خطابية واحدة تسمح له بالتعبير عن مقاصده وغاياته، وفق سياق مُعيّن، بل قد نجد أكثر من استراتيجية خطابية في النصّ الواحد، وهذا ما قد يتجسّد في خطاب الإيصاء. وتعليلنا لهذا الحكم - أي؛ خطاب الإيصاء يجمع بين أكثر من استراتيجية خطابية في الوصية الواحدة- يُمكن أن نُبرّره بالمعادلة التالية :

• خطاب الإيصاء = تفاعل الخطابات ← يستلزم: تفاعل الاستراتيجيات الخطابية

أي: إذا كانت الوصية تحتوي وتشمل أكثر من نوع خطابي؛ ديني، سياسي، اجتماعي، أدبي- كما عرّجنا لذلك من قبل-، وأنّ لكلّ نوع من هذه الخطابات استراتيجياتها الخطابية ووسائله اللغوية وغير اللغوية، فإنّنا بالتالي أمام تفاعل لاستراتيجيات خطابية متعدّدة ضمن نسيج الوصية الواحدة. فيُشكّل ذلك التفاعل* فضاء فسيفسائيا، ودعامة رئيسة قادرة على التأثير في الموصى بشكل أقوى وأبلغ.

* سنعمل لاحقا في أنموذجنا التطبيقي على تبيان كيفية اشتغال الاستراتيجيات الخطابية وتفاعلها داخل خطاب الوصية.

خامسا - الوصية خطاب إقناعي حجاجي :

لما كانت المقاربة الحجاجية في بحثنا مسألة جوهرية وعليها مدار البحث، عمدنا إلى بيان البُعد الحجاجي لهذا النوع من الفنون الأدبية. ذلك أنّ الوصية، وإنّ تباينت طُرُق الصياغة فيها وتعدّدت أنواعها وأغراضها، إلّا أنّها تتوسل إلى الحجاج وتستند عليه في إقناع الموصى. لأنّها نمطُ «من الخطاب الإقناعي الذي يستهدف منه المنشئ إيصال المتلقي إلى أعلى درجات القبول والتأثير»¹، وهي -الوصية- بهذا المعنى خطاب وظيفي تواصل، يتّبع استراتيجيات خطابية كفيلة بحمل النفوس على الإذعان، من أجل تحقيق المقاصد المنشودة، والغايات المسطرة ذات الأبعاد الدينية والتربوية والأخلاقية والمعرفية، وغيرها.

إذن، خطاب الوصايا، خطابٌ مُوجّه يهدف إلى الإقناع، وما دام كذلك، فهو خطاب حجاجي بامتياز، قائم على توظيف جملة من التقنيات والآليات الحجاجية²، يروم من خلاله الموصي استمالة الموصى بضرورة تصديق أقواله والعمل بها «واعتناق اقتناعاته أو تأكيدها، وذلك بإحداث تأثيرات في ذاته تجعله مُهيأً لإنجاز العمل المطلوب إنجازه. وعلى هذا الأساس تتنزل الوصية في صلب الخطاب الحجاجي بما هو خطاب يتوسل فيه الموصي أساليب تعبيرية مخصوصة يهدف بها إلى الإقناع والتأثير وتجاوز الغاية التصديقية إلى الغاية العملية، وذلك بتحويل الأقوال أفعالا، والمطالب المنشودة واقعاً مُتجسداً»³.

¹ فريال عبد الله هديب، الخطاب الأخلاقي في وصايا العصر الإسلامي -مضامين وأساليب-، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، الحولية السابعة والعشرون، الرسالة الخامسة والخمسون بعد المئتين، ديسمبر 1427هـ - 2006م، ص: 63.

² ينظر: علاء الدين أحمد الغرايبة، أمل شفيق العمري، آليات الحجاج البلاغي لوصايا الحكماء في العصر الجاهلي -مقاربة تداولية-، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، غزة، فلسطين، مج: 27، ع: 03، 2019م، ص: 183.

³ عبد الله البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً -مقاربة أسلوبية حجاجية-، ص: 119.

بمعنى أنّ الغرض الأساس من هذا كلّه، لا يكمن في استمالة الموصى والتأثير فيه فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى دفعه للعمل بتلك الأقوال لتُصبح أفعالاً وأعمالاً مجسّدة في الواقع. وعليه، يُمكن إثبات المقصدية الحجاجية للوصية، وإنزالها في صميم الخطاب الحجاجي - كما يرى "عبد الله البهلول" - مبنًى ومقصداً، إذ يقول: «من حيث المبنى تقوم الوصية على طلب يُرفقه الموصي بحجة أو حُجج تردُّ في صُور وأشكال تركيبية متنوعة، أمّا المقصد من الوصية فقائم على الرغبة في الإقناع والتأثير، ونقل الموصى له من وضع أوّل في التفكير، قوامه الرّفْض أو الشكّ أو التّرّدّد، إلى وضعٍ ثانٍ قوامه التّسليم بما يُقترح عليه والإذعان له وإظهار أثر التّصديق والاعتقاد في العمل والسلوك»¹.

المقصود من القول، هو أنّ المبنى؛ يتمثّل في تلك الصُور والأشكال التعبيرية والتركيبية، والتقنيات الحجاجية والبلاغية، التي يُوظّفها الموصي في وصيّته، لما لها من دور في إنجاح خطاب الإيضاء وانسجامه. أمّا المقصد؛ فيتمثّل في نية الموصي ورغبته في إقناع الموصى، ونقله من حالة الرّفْض أو الشكّ أو التّرّدّد إلى حالة القبول والتّسليم والإذعان، لما يُعرض عليه، ومن ثمّ يحدث التغير ويظهر أثر التّصديق، فتتحقّق حينئذ الاستجابة العملية بتلك الوصية.

➤ ضوابط التداول الحجاجي :

إذا كانت الوصية بوصفها خطاباً إقناعياً حجاجياً، يستند إلى الحجاج من أجل التأثير في الموصى، فإنّها لا محالة، ستخضع إلى ضوابط التداول الحجاجي كغيرها من الخطابات التواصلية. وعلى المرسل - بصفة عامّة - أو الموصي - بصفة خاصّة -، التقيّد والالتزام بتلك الضوابط والأسس من شأنها أن تؤدي إلى نجاح العملية الحجاجية، وبلوغ الغايات والمقاصد المسطرة. ومن بين هذه الضوابط*، نذكر²:

¹ م س، ص: 23.

* وجب التنويه إلى أنّ هذه الضوابط في كتاب "الشهري" هي ضوابط متعلّقة بالتداول الحجاجي بصفة عامّة، أمّا نحن في هذا العنصر حاولنا إسقاطها على خطاب الوصايا شرحاً وتفصيلاً، لاعتبار واحد؛ هو أنّ الوصية خطاب حجاجي بدرجة أولى.

² ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية -، ص: 145 - 146.

- أن يكون الحجاج ضمن إطار الثوابت، مثل الثوابت الدينية أو الثوابت العرفية، إذ هناك الكثير من المسلمات التي وجب احترامها. وصاحب الوصية ملزمٌ باتباع معتقداته الدينية وثوابت مجتمعه العرفية.
- أن تكون دلالة الألفاظ محدّدة، والمرجع الذي يُحيل عليه الخطاب محدّد، لئلا ينشأ عن ذلك مشكلة في تأويل المصطلحات.
- ألا يقع المرسل في التناقض بقوله أو فعله، كمن يدّعي أنّه عضو في لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان ثمّ يستعمل في ادّعاءه حُججًا واهية، أو أن يرتكب أفعالاً تتنافى وحقوق الإنسان. وهذا ينطبق أيضا على الموصي؛ إذ في وصيته عليه أن ينقل ما عاشه وجربه بصدقٍ وحقيقة إلى من يستقبل تلك الوصية دون تزييف.
- ضرورة توفرّ المعارف المشتركة بين طرفيّ الخطاب، ممّا يُسوّغ قبول المرسل إليه الحُجج المرسل، أو إمكانية مناقشتها أو تنفيذها، وإلا انقطع الحجاج بينهما، وتوقفت عملية الفهم والإفهام، بل الإقناع. فإذا كان الموصي لا تجمععه معرفة مشتركة ومُسبقة بالموصى، فإنّ المقاصد والغايات التواصلية والأبعاد التداولية قد تتعطل وتفشل.
- مناسبة الخطاب الحجاجي للسياق العام؛ لأنّه هو الكفيل بتسويق الحجج الواردة في خطاب الوصية من عدمها، فقد تكون المحاجة والأدلة الموظّفة ضمن نسيج الوصية صحيحة نظريا، لكنّها غير مناسبة للسياق.
- موافقة الحجاج لما يقبله العقل، وإلاّ بدأ زيف الخطاب ووُهن الحجة. ومثّل لذلك بالوقائع والأحداث التي ممكن أن يعيشها الموصي في حياته، لا الأحداث غير المنطقية أو المتخيّلة، التي يرفض العقل والواقع على حدّ سواء قبولها.
- ضرورة خلوّ الوصايا من الحجاج المغالطي والابتعاد عنه، لأنّ الوصايا في مفهومها العام نقلٌ لتجارب صادقة، حقيقية وواقعية، إلى الموصى.

خلاصة الفصل:

توصلنا في هذا الفصل إلى أنّ الوصية عصارة تجارب حياة الإنسان مسكوكة سكا في ألفاظ ومعانٍ جليلة، وغايات ومقاصد نبيلة -دون تزويق أو تنميق- قائمة على الخير، وإن اختلفت سُبُل تحقُّقه. يروم صاحبها توريثها - كما وكيفا ونوعا - ونقلها على نحوٍ مثالي ونموذجي إلى الموصى، الذي يظلّ في نظره غرّا صغيرا غافلا .

كما تبين لنا كذلك في المفهوم الاصطلاحي للوصية، أنّها لم تستقرّ على تعريف جامع مانع؛ فهناك من الباحثين من قرنها بلحظة الموت ودُنُو الأجل، وهناك من عرفها بأنّها فنّ أدبي أو قول بليغ، وغير ذلك من المفاهيم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ فإنّ تداخل الوصية مع كثيرٍ من المصطلحات المقاربة لها في الدلالة (كالتوصية، الخطبة، الموعظة... إلخ) صعب أيضا من استقرار مفهوم الوصية وضبطه بشكلٍ أدقّ. وخلصنا كذلك إلى أنّ الوصية تقوم على ثلاثة أركان أساسية؛ (الموصي، الموصى، الوصية) هي بمثابة المرتكز الأساس الذي ينبنى عليه خطاب الإيضاء .

ثمّ عمدنا إلى تتبّع المسار التاريخي للوصية في التراث الأدبي العربي عبر العصور، بدءًا بالعصر الجاهلي، وصولًا إلى العصر الأندلسي. ووقفنا في ذلك على بعض أنواع الوصايا، التي حملت في مضامينها غايات ومقاصد دينية، وتربوية، واجتماعية، وسياسية، وغيرها. وهو الأمر الذي قادنا إلى استنتاج خصائص هذا الفنّ الأدبي، ومدى أهميته بين العلوم والفنون .

لننتقل بعد ذلك من محطة التاريخ للوصية، إلى محطة الاشتغال داخل الوصية؛ وتوصلنا إلى أنّ خطاب الوصية يجمع في طياته خطابات واستراتيجيات متعددة تتفاعل فيما بينها في نسيج واحد متكامل، يعزّز من قوّتها الحجاجية والإقناعية في استمالة الموصى والتأثير فيه، وهو ما سنحاول الوقوف عليه في الفصل اللاحق.

الفصل الثالث:

وصية لسان الدين بن الخطيب

مقاربة حجاجية

أولاً - التعريف بالوصية وصاحبها.

ثانيا - الاستراتيجيات الخطابية في الوصية.

ثالثا - المقاربة التداولية.

رابعا - المقاربة الحجاجية.

خامسا - المقاربة البلاغية.

يأتي هذا الفصل ليتدارس وصية من وصايا الأدب الأندلسي، وأي وصية؟ إنها وصية الأب لابنه، وقرّة عينه، وفلذة كبده، ولله درّ القائل :

وإنّما أولادنا بيننا
لو هبّت الرّيح على بعضهم
أكبّادنا تمشي على الأرض
لامتنعت عيني من الغمض¹

ونخصّ بالذكر في هذا المقام "لسان الدين بن الخطيب" الذي ترك لبيّنه وصية جامعة وافية، لخصّ فيها عصارة تجاربه، حين استشرّ قُرب أجله، وبني سقفها وهيكلها على عماد الوعظ، ودعامة النصّح والإرشاد، حتّى تكون لهم هذه الوصية خير ميراث يلجؤون إليه عند الحاجة. ولما كان هذا الميراث أدبيّاً، عقدنا العزم على تقسيم تركته، من خلال ثلاث مقاربات تطبيقية تحليلية، هي: المقاربة التداولية، المقاربة الحجاجية، المقاربة البلاغية.

أولاً- التعريف بالوصية وصاحبها:

1-1- لسان الدين بن الخطيب سيرة ومسيرة:

يُعدُّ "لسان الدين بن الخطيب" (ت 776هـ) أحد أعظم أعلام الأندلس، وأشهر أدباء عصره، وصّفه "المقرّي" (ت 1025هـ) في نفحه بأنّه: «الوزير، الشهير الكبير، لسان الدين الطائر الصّيت في المغرب والمشرق المزري عَزَفُ الثناء عليه بالعنبر والعبير، المثلّ المضروب في الكتابة والشعر والطبّ ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها ومُصنّفاته تُخبر عن ذلك ولا يُنبئك مثل خبير، علّم الرؤساء الأعلام، الوزير الشهير الذي خدّمته السيوف والأقلام»²، و«قصرت ألسن البلغاء عن علاه، وزانت صدور الدواوين لحلاه، وجمع خلالاً حسناً، وكان للدين لساناً، وزاحمت مفاخره بالمناكب الكواكب، وازدانت بمرآه النوادي والمواكب، ونفحات الأزهار من آدابه، ونسمات الأسحار عطر أذياله وأهدابه،

¹ الخطيب التبريزي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، دت، ج: 01، ص: 102.

² المقرّي، نفح الطيّب من غصن الأندلس الرّطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

والسحر من كتابته، والسحر من كنياته»¹. وهذا ما جعل منه قُطْبًا هامًا من أقطاب الفكر الأندلسي.

فيما يلي عرضٌ موجزٌ لسيرته²:

أ - نسبه ومولده ونشأته: هو محمد بن عبد الله سعيد بن عبد الله بن علي بن أحمد السلماني، وُلِدَ في مدينة (لُوشَة) -وهي مدينة أندلسية غرب غرناطة- سنة (713هـ - 1313م)، ثم انتقل إلى مدينة (غرناطة) مع أسرته، فتعلَّم القرآن ودرَسَ اللغة والشريعة والأدب وغيرها من العلوم.

ب - شيوخه: تتلمذ على يدّ شيوخ عدّة، منهم:

- أبو الحسن بن الجياب: أبرز شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم، وأخذ عنه مختلف العلوم.

- الإمام عبد الله بن الفخار الألبيري: لازمه في قراءة العربية والفقه والتفسير.

- الإمام زكريا بن يحيى بن هذيل: أخذ عنه الطبّ والتعليم.

- عبد الله أحمد بن مرزوق: درّسه الشريعة والفقه.

- أبو عبد الله بن أبي بكر الأشعري: كان من القضاة في المغرب، وكان عارفًا بالأحكام والقراءة،

حافظًا للأنساب، مشاركًا في الأصول واللغة والحساب، وقد استفاد منه "ابن الخطيب" في ذلك.

ج - تلامذته: أشهرهم:

- ابن زمرك: أبرز تلامذته، وكان شاعرا ووزيرا.

- ابن المهنا: كان طبيبا، وقد شرح ألفية "ابن سينا".

- ابن جُزَي الكلي: أديب كاتب، روى عن "لسان الدين" معظم تأليفه.

¹ م س، ج: 01، ص: 82.

² ينظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مج: 01، ص: 22-55، مج: 04،

ص: 439-462. وينظر أيضا: المقرئ، نفح الطيب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج: 10، ص: 04، ص: 142-

149. وينظر أيضا: محمد بن أبي بكر التطواني، ابن الخطيب من خلال كتبه، دار الطباعة المغربية، محمد مولاي الحسن، تطوان،

المغرب، دط، 1954م، ص: 42-46.

د- أولاده: خلّف ثلاثة أولاد، وهم: "عبد الله" و"محمد" و"علي"، فأما "عبد الله" فتولّى القيادة والكتابة بالأندلس، في حين نال "محمد" حظّه من التصوف وعزف عن الدنيا، وكان "علي" شاعرًا، واختصّ بالسلطان "أحمد بن أبي سالم المريني" أحد سلاطين المغرب.

هـ- مناصبه: تقلّد عدّة مناصب، فقد منحه سلطان غرناطة "أبو الحجاج يوسف" رتبة الوزارة والكتابة سنة (749هـ) بعد وفاة شيخه "ابن الجياب" الذي كان يشغل المنصب آنذاك. ولما تُوفي السلطان "أبو الحجاج يوسف" خلّفه في الملك ولّده السلطان "أبو عبد الله محمد" الملقّب بـ: "الغني بالله"، واستمر معه "لسان الدين" في منصب الوزارة، إلى حين حدوث الانقلاب بالأندلس، حيث فقّد السلطان "الغني بالله" عرشه، فقرّر هاربًا مع وزيره "ابن الخطيب" إلى المغرب عند السلطان "أبو سالم المريني"، وهناك التقى "ابن خلدون".

ولما استرجع "الغني بالله" حكمه على غرناطة سنة (763هـ) كتّب لوزيره من جديد يطلب منه العودة إلى شغل منصب الوزارة، وهو ما وافق عليه "لسان الدين بن الخطيب"، فعاد مجدداً إلى مكانته في الوزارة، لكنّه هذه المرّة أُهْمَ بالزندقة والإلحاد، من طرف خصومه -ولا سيما "ابن زمرك" تلميذه-، فقرّر هاربًا مرّة أخرى إلى المغرب عام (773هـ)، ولجأ إلى "بني مرين" بـ: (مدينة فاس)، إلى غاية وفاته.

و- ألقابه: من الألقاب التي أُطلقت عليه، واشتهر بها:

- ذو الوزارتين: هو لقب يُطلق على من جمع بين وزارتيّ السيف والقلم.
- ذو العمرين: اُشتهر بهذا اللقب، نتيجة قضائه النهار في الإدارة والحكم، والليل في الدراسة والقراءة، لأنّه كان قليل النوم بسبب إصابته بالأرق.
- ذو القبرين: لأنّه دُفِنَ ثمّ بُشِ قبره وتمّ إخراجه، ليُعاد دفنه مرّة أخرى.
- ز- مؤلفاته: كان "ابن الخطيب" حريصًا على الكتابة والتأليف، ودليل ذلك ما تركه من مؤلّفات كثيرة في شتى العلوم، نذكر منها :

➤ مؤلفات في اللغة والأدب:

- جيش التوشيح.
- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب.
- المنح الغريب في الفتح القريب.
- مؤلفات في التاريخ والبلدان والتراجم:
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية.
- طرفة العصر عن تاريخ دولة بني نصر.
- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.
- الإحاطة في أخبار غرناطة.

- أعمال الأعلام فيمن بُويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام.
- أوصاف الناس في التواريخ والصلوات.

➤ مؤلفات في التصوف والفلسفة والسياسة:

- روضة التعريف بالحبّ الشريف.
- تخصيص الرياضة بتلخيص السياسة.

➤ مؤلفات في الطبّ:

- الوصول لحفظ الصحة في الفصول.
- البيطرة والبيزرة.
- رسالة الطاعون.

ح - وفاته: بعد اتّهامه بالزندقة والإلحاد من طرف خصومه، تمّت مطاردته إلى أن قُبِض عليه بالمغرب وسُجِن، ثمّ قتلوه خنقاً في سجنه، ودُفِن بفاس، ثمّ أخرجت جُثّته في اليوم التالي وطُرحت فوق القبر، وأُحرقت ثمّ أُعيدت إلى القبر مرّة أخرى، وكان ذلك سنة (776هـ - 1374م).

1-2- التعريف بالوصية:

هي وصية شاملة جامعة لأسمى المعاني والقيم الدينية والدينية، حرص من خلالها "لسان الدين بن الخطيب" -الأبّ العطوف المشفق- على نقلها لأولاده بصدق وإخلاص، حتى يتم العمل بما جاء فيها من عبرٍ ونصائح وإرشادات، فتكون لهم نبراساً مثيراً في حياتهم، يُجنبهم العثرات والزلات، وتراكمات الحياة التي عاشها والدهم من قبل وأثقلت كاهله.

إذن، هي وصية «شاملة وافية بالعرض، لمن أراد أن يتعظ ويتعلم، فلم يترك فيها شاردة ولا واردة من الأمور الضرورية للدنيا والآخرة، فالدنيا لا تُساوي شيئاً ولا تستحق الاهتمام إلاّ بالمقدار الذي تتطلبه العبادة للعبور إلى الآخرة بقلب سليم مطمئن حيث النعيم الموعود»¹.

➤ موضوعات الوصية:

لما أحسن "لسان الدين بن الخطيب" بقرّب أجله، بعد تأمر خصومه على الفتك به، اندفع إلى كتابة وصيته، التي حملت في ثناياها عدّة وصايا في مواضيع ومجالات مختلفة . جاءت مفاصلها كالآتي²:

1/ الحمد والثناء: استهلّ وصيته بالحمد والثناء على الله في مقدّمة مطوّلة، ثم أعقبها بالصلاة والسلام على الرسول، وعلى آله وصحبه.

2/ الإحساس بقرّب الأجل: تمثّل في تأكيده لحقيقة كبره وإحساسه بالموت، وهو الدافع الأساس الذي قاده إلى كتابة هذه الوصية، ومن جهة أخرى ذهب إلى تذكير أولاده بأنّ الدنيا فانية، وأنّ الموت هو المصير المحتوم لكلّ إنسان.

¹ أحمد حسن بسبح، لسان الدين بن الخطيب عصره، بيئته، حياته وآثاره، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994م، ص: 103.

² ينظر: المقرّي، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج: 10، ص: 247-261.

3/ بيان قيمة الوصية: أشار "ابن الخطيب" إلى أهمية وصيته في مواضع كثيرة، فعمل على حثهم للأخذ بها والإفادة منها، لأنها عصارة تجاربه في الحياة.

4/ الدعوة إلى التوحيد: دعا أولاده إلى تقوى الله وعبادته، وعدم الشرك به، وكذا الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه.

5/ التمسك بالدين: بالتزام شعائره، والإعلاء من شأن الإسلام ومقامه.

6/ طاعة الرسل والافتداء بهم: فقد بعثهم الله رحمة للعباد، لذلك وجب الاقتداء بهم والإخلاص في طاعتهم، ثم خص "ابن الخطيب" في وصيته خاتم النبيين "محمد عليه الصلاة والسلام"، وحث بنييه على اتباع هديه والعمل بسنته.

7/ وجوب محبة الصحابة: بإجلالهم ومحبتهم وتوقيرهم.

8/ تعظيم العلماء والفقهاء: أوصى أولاده بالسير على خطى وآثار العلماء، لأنهم فقهاء الأمة وورثة الرسل.

9/ التحذير من مهلكات الدنيا: حذر الموصي بنييه من الاغترار بالدنيا ومفاتها، لأنها متاع زائل، يوجب الشقاء. وفي مقابل ذلك أوصى بوجوب التمسك بكتاب الله حفظاً وتلاوة، والتدبر في آياته ومعانيه، والامتثال لأوامره ونواهيه.

10/ أداء فرائض الإسلام: انتقل "لسان الدين" من الحث على تقوى الله، وطاعة رسله، إلى التوجيه والحث على أداء فرائض الإسلام والالتزام بها.

حيث أوصى بـ:

- إقامة الصلاة: لأنها عماد الدين والشرعة، وأم العباد، والناحية عن الفحشاء والمنكر، ثم دعا الموصي إلى الصبر على أدائها وإقامتها في أوقاتها، مع المحافظة على أداء النوافل، لينتقل إلى التنويه على أهمية الطهارة باعتبارها شرطاً أساسياً في صحة الصلاة. ثم أوصى بنييه بمراعاة النية في الصلاة، وفي كل عمل يقومون به.

- أداء الزكاة: شبهها "لسان الدين" بالأخت الحبيبة للصلاة، لأنها مفتاح السعادة وفرض واجب أقره الله، كما أوصى بضرورة إخراجها إلى أصحابها.

- الصيام: أوصى "ابن الخطيب" أولاده، بالتزام الصيام، وخاصة صيام رمضان، فهو عبادة السرّ المقربة إلى الله، والتي تكون خالصة لوجهه، ثم نبّه الموصي إلى أنّ الصيام لا يكون مجرد إمساك عن الأكل والشرب، بل يكون بصيام الجوارح عن الآثام والفواحش. كما أنّ المرء كلّما اعتكف في القيام والتهجد، كان أفضل له أجرا وثوابا.

- الحجّ: تدرّج "ابن الخطيب" في عرضه لأركان الإسلام، حتى وصل إلى الركن الخامس، ألا وهو الحجّ، الذي لا بدّ من تأديته إذا كان الإنسان قادراً على ذلك.

- الجهاد في سبيل الله: مثله مثل الحج، دعا "ابن الخطيب" أولاده إليه، إذا كانت لهم القدرة بالنفس أو المال، أمّا إذا لم تكن لهم القدرة، فنصّحهم بإعانة من يستطيع فعل ذلك.

11/ الدعوة إلى تحصيل العلم النافع: أوصى بأهميّة العلم، فهو -في نظره- وسيلة النفوس الشريفة والموصول إلى السعادة في الآخرة، وشرطه خشية الله تعالى، وقليله ينفع، وكثيره يرفع. ثمّ خصّ "ابن الخطيب" علوم الشريعة، لأنها أفضل العلوم، وفي مقدّمتها؛ تجويد القرآن، حفظ الحديث، أصول الفقه، وغيرها.

12/ التحذير من العلوم القديمة: نهي "ابن الخطيب" أبناءه عن الخوض في العلوم القديمة -وقصد الفلسفة والمنطق-، لأنها داعية إلى زرع الظنون والشكوك، واستشهد كمثال على ذلك ب: "ابن رشد" (ت595هـ)، الذي أقبل على هذه العلوم في زمانه، وأتهم بالإلحاد بسببها، ثمّ استدرك "ابن الخطيب" حكمه على ذمّ العلوم القديمة، واستثنى النافع منها، مثل: (علوم الحساب والفلاحة والطب)، وحثّ أولاده عليها.

13/ التمسك بالأخلاق الفاضلة: عرض "ابن الخطيب" في وصيته جملة من الأخلاق والقيم الفاضلة، دعا أولاده إليها، ليعملوا بها، وفي المقابل نقر من بعض الرذائل وأمر باجتنابها.

نذكر بعض القيم على سبيل التمثيل لا الحصر:

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- التزام الصدق واجتناب الكذب.
- أداء الأمانة وحفظها، واجتناب الخيانة.
- الوفاء بالعهد.
- النهي عن البخس في الكيل أو الميزان.
- تحريم الظلم.
- التحذير من النميمة، والنهي عن الحسد.
- تحريم الغيبة.
- النهي عن البخل.
- تجنب مواقع الخزي والفضائح.
- التضرع إلى الله بالدعاء.
- شكر الله على نِعَمه.
- اللجوء إليه في السراء والضراء.
- 14/ التحذير من ارتكاب الفواحش: مثل:
- النهي عن سفك الدماء (قَتْل النفس).
- اجتناب الزنى، والتماس الحلال (الزواج).
- اجتناب الخمر.
- التحذير من الربا.
- النهي عن أكل مال الآخر بغير حق.
- عدم اللجوء إلى المشابهة إلا عند انعدام الحلال.
- 15/ المجال الاجتماعي: حثّ "ابن الخطيب" أولاده على التحلي بجملة قيم اجتماعية في معاملاتهم فيما بينهما، أو مع أفراد مجتمعهم، وفي المقابل نهى عن بعض القيم السلبية.

وأهمّ ما جاء في وصيته من توجيهات اجتماعية، نذكر :

- إفشاء السلام.
- العطف واللطف على ذوي العاهات (أصحاب الأمراض المزمنة).
- إطعام المساكين.
- الإكثار من الصدقات.
- رعاية حقوق الجار.
- صلة الأرحام.
- اجتناب شهادة الزور.
- اجتناب الرشوة.
- اجتناب الميسر.
- عدم مخالطة أهل الباطل.
- الالتزام بالمواعيد.
- النهي عن القسم كذبًا.
- تحريم الكهانة وادّعاء علم الغيب في التعامل مع الغير.
- الصبر على الأذى، وعلى حوادث الأيام.
- التعاضد والتناصر فيما بين الإخوة.
- ترك التنافس على الأمور السخيفة.
- عدم إبطال الصدقات بالمنّ والأذى.
- الدعوة إلى ستر الفضائح وعدم التشهير بها.
- التحذير من طاعة النساء في كلّ الأمور.
- الزهد في مصاحبة أهل الدنيا.
- عدم إفشاء الأسرار.

- حُسن التصرف في الأموال.

16/ المجال السياسي: بِحُكم تجربته السياسية كوزير في غرناطة، ذهب "لسان الدين" إلى التوصية بطاعة ولاة الأمر، والامتثال لأوامرهم فيما يُرضي الله. كما حذّر من طلب الولايات والأمارات رغبة، لأنّها تُلحق الضرر بالمروءات والأقدار، وهي محنة وفتنة؛ فقد ترفع صاحبها إلى أرفع المراتب، وقد تقوده إلى حتفه، ثمّ نبّه الموصي بنيه إلى أنّ هذه الولايات في حالة ما امتحنوا بها في حياتهم، فليقبلوها بسعة صدر، وأن تكون أعمالهم فيها خالصة لوجه الله، لأنّ هذه الولايات زائلة وليس لها دوام، ولن ينفعهم سوى العمل الصالح.

17/ ختام الوصية: قبل ختامه لوصيته، أعاد "ابن الخطيب" القول في بيان قيمة وصيته وأهميتها، وشبّهها بالتجارة، التي تركّها لهم - أي؛ أولاده - والدهم، كي يعملوا بها في حياتهم لما تحتويه - هذه الوصية - من قيم ومعانٍ سامية، ثمّ أرشدهم والدهم إلى تقوى الله في حالة ما استثقلوا وصيته (...). لينهي وصيته بالدعاء لهم، ويُحييهم بتحية الإسلام، وهي في الحقيقة تحية وداع وتوديع.

ثانيا- الاستراتيجيات الخطابية في الوصية :

أ- أركان العملية التخاطبية :

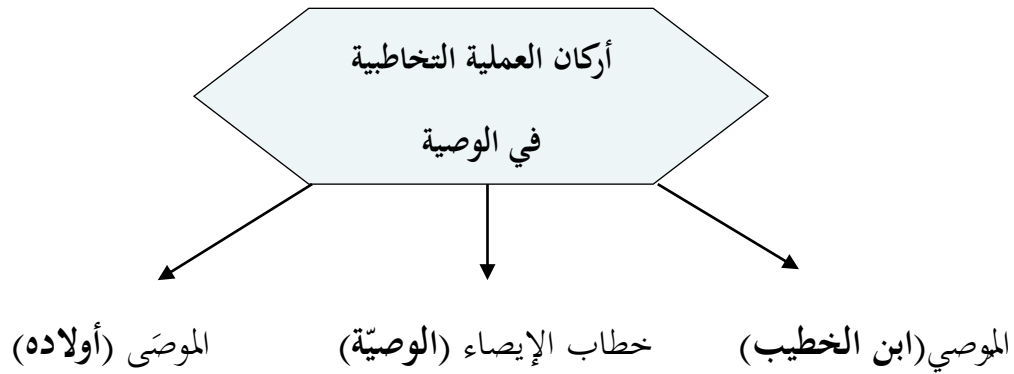
إنّ الوصية كغيرها من الخطابات تحمل وظائف وغايات تواصلية، يسعى الموصي إلى نقلها للموصى من خلال عملية تخاطبية وجاهية مباشرة، أو غير مباشرة، بغية تحقيق مقاصد معينة. ووصية "ابن الخطيب" هي أحد النماذج الدالة على ذلك، حيث توفرت على جميع أركان عملية التواصل، مضبوطة ومحددة. أهمها:

1. المرسل (المخاطب): لسان الدين بن الخطيب.

2. المرسل إليه (المخاطب): أولاده؛ عبد الله، علي، محمد.

3. الرسالة (الخطاب): الوصية.

تمثل لها بلغة خطاب الإيصاء في الخطابة التالية :



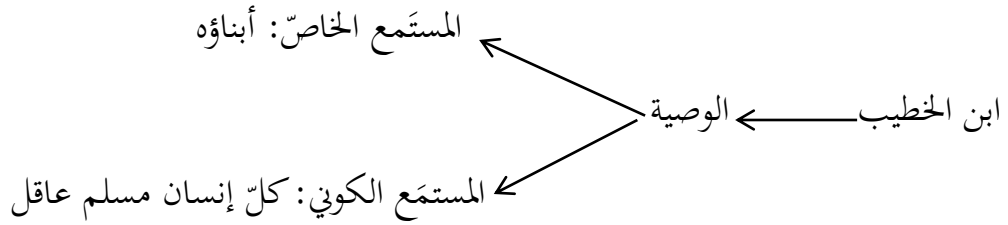
المخطط رقم 18: أركان الخطاب الإيصائي في وصية ابن الخطيب

ب- بين المستمع الخاص والمستمع الكوني:

أشرنا سابقا إلى مفهومَي المصطلحين، وحددنا أركان العملية التخاطبية في الوصية، بأنّها من أبّ إلى أبنائه، لكنّ هاهنا نطرح السؤال التالي: هل المضامين التي طرقتها وصية "لسان الدين" تنطبق على أولاده فقط؟ أم أنّها صالحة لأن تتعدى هؤلاء الأبناء - بصفتهم مُستمعين خواصّ - لتشمل كلّ إنسان عاقل عقيدته الإسلام؟

الجواب: يكون بالقول إنها وصية صالحة لأن تتعدى أبناء "ابن الخطيب"، لأنها بمثابة إرشادات ونصائح عامة، وتوجيهات دينية وخلقية واجتماعية وتربوية، وغيرها، تصلح لكل زمان ومكان، وبإمكان كل مسلم -خصيصة الدين- أن ينجح إلى العمل بها، ويتشرب معانيها وقيمها.

فتتحول بذلك الوصية من كونها وصية خاصة موجهة لثلاثة أبناء، إلى وصية عامة، غير مقيدة بزمان معين، وبعبارة أخرى نقول: إن آفاق خطاب الإيضاء الذي جاء به "ابن الخطيب" لم يقتصر على مستمع خاص بعينه -حتى وإن تمّ تحديده في الوصية-، بل اتسع في دلالاته ليشمل مستمعاً كونياً.



ج- أنواع الاستراتيجية:

لم يقتصر "ابن الخطيب" على تبني استراتيجية خطابية واحدة في التعبير عن مقاصده وغاياته، بل استعمل أكثر من استراتيجية، تكاملت فيما بينها فصد تحقيق الأهداف المنشودة. نذكر منها:

1- الاستراتيجية التوجيهية: هي الاستراتيجية البارزة في الوصية، التي تمّ اعتمادها بشكل واضح ومباشر، وقد تمثلت في توجيه الموصي لأولاده، من أجل العمل بجملة من القيم والإرشادات والنصائح؛ (الطاعات، العبادات، الأخلاق الفاضلة... إلخ)، واجتناب مجموعة من النواهي والردائل؛ (ارتكاب الفواحش، المحرمات، الكبائر... إلخ). وهو الأمر الذي جعل من مسار الوصية التواصلية يسير وفق منوال ثنائي تقابلي، من قبيل :

- افعَل ↔ لا تفعل
- التزم ↔ اجتنب
- حثُّ وترغيب ↔ تنفير وترهيب

2- الاستراتيجية الإقناعية: تمثلت في ذلك الأثر الذي ابتغى "ابن الخطيب" تحقيقه، من خلال ذلك المنوال التقابلي، الذي حصر به أولاده في ثنائية -متناقضة لكنها متكاملة- لا ثالث لها؛ فإما اتعاض وامتنال (هو المقصد الإقناعي الذي يرغب الموصي تحقّقه)، مآله الجزاء والثواب في الآخرة، وإما ابتعاد وانتهاك (وهو ما لا يرغب الموصي في تحقّقه)، مصيره الهلاك والعقاب في الآخرة.

د- معايير اختيار الاستراتيجية: من المعايير التي كانت سبباً في اختيار هاتين الاستراتيجيتين، نذكر:

1- معيار العلاقة بين طرفي خطاب الإيضاء: يتمثل في العلاقة التي تربط بين الموصي والموصى من معارف مشتركة، أو صلة دموية، أو غير ذلك. ويُمكن أن نعرض لهذا المعيار من خلال وصية "ابن الخطيب" على النحو التالي:

1-1- محور العلاقة الأفقية: تبلور في أكثر من خصيصة، أهمها:

- خصائص الدين: تمثلت في (الإسلام).

- خصائص الجنس: تمثلت في (الذكورة)؛ إذ الوصية ها هنا، موجّهة من أبّ إلى ثلاثة ذكور، وهو ما أدى إلى استعمال ضمير تخاطبي واحد (أنتم).

- خصائص السنّ: حيث اختلف السنّ في الوصية بين طرفي الخطاب؛ فكانت صادرة عن أبّ كبير خبر الحياة وتجاربها، إلى ثلاثة أولاد في مُقبل العمر - وإن كانوا يافعين إلّا أنّهم دون تجربة وخبرة- تنتظرهم صِعاب الدنيا ومشاعلها.

- خصائص الصلة (العلاقات التعاطفية): نجدها متمثلة في علاقة قرابة، أو بالأحرى علاقة أبوة، جعلت من الأقوال تنفذ إلى الأذهان والقلوب بانسيابية وسهولة.

1-2- محور العلاقة العمودية: يشمل هذا المحور العلاقات التراتبية بين الناس، أي؛ الدرجات (درجة أعلى أو أدنى)، وفي الوصية توزعت الدرجات بين درجة أعلى؛ هي الموصي (ابن الخطيب)، ودرجة أدنى؛ تمثلت في (أولاده).

لكنّ في هذا النموذج الذي بين أيدينا، نتساءل: هل حاول "لسان الدين بن الخطيب" بحكم سلطته - الأبوية - إلزام أولاده بمضمون الوصية وفرض سيطرته؟ أم أنّ خطابه أخذ منحى آخر؟

فنجيب: إنّ "لسان الدين" في وصيته تنازل عن ممارسته لتلك السلطة الأبوية الإلزامية الآمرة، إلى معنى الوعظ والنصح والإرشاد، إذ جاءت معظم أوامره ونواهيه حاملة معاني التوجيه الإرشادي الوعظي الخالص، والتذكيري النافع، الذي قد يُجنّب أولاده من عثرات الحياة، ونوازل الدهر.

2- معيار هدف الخطاب: يُعدّ من المعايير الأساسية في اختيار الموصي لاستراتيجياته الخطابية، لأنّه بناءً على هدف الخطاب الإيصائي الذي يروم الموصي تحقيقه، يكون اختياره لنوع الاستراتيجية. وهذا ما تجسّد إلى حدّ كبير في وصية "ابن الخطيب"، التي توافّق هدفها -ألا وهو حمّل أبناء الموصي على الانتقال من موضع التقصير والغفلة في التزام أوامر الله واجتناب نواهيه، إلى موضع التجسيد والممارسة الفعلية على أرض الواقع- مع الاستراتيجيتين التوجيهية والإقناعية، وتأتّى ذلك عن طريق الوعظ والإرشاد والتوجيه.

هـ- تفاعل الخطابات: إنّ المتأمل لموضوعات الوصية، سيلحظ تنوع مجموعة من الخطابات في اتجاهات عدّة داخل مضمونها العام، حيث ركّز "ابن الخطيب" في بداية وصيته على الخطاب الديني؛ وشمل وصايا الالتزام بالعبادات والطاعات ومقاصد الشريعة، ثمّ انتقل الخطاب إلى الحثّ على مجموعة من القيم الأخلاقية الفاضلة، واجتناب قيم أخرى رذيلة، ثمّ طرّق الموصي بعض الوصايا في باب المعاملات الاجتماعية -سواء أكانت بين أولاده أو بينهم وبين أفراد المجتمع- التي يجب الاتّصاف بها، ليصل بعد ذلك الخطاب الإيصائي مع "لسان الدين" إلى التعرّيج عن موضوع سياسي، تمثّل في طلب الولايات وما قد ينجم عنها من عواقب.

أي؛ إنّ الوصية اشتملت على خطابات عدّة (خطاب ديني، خطاب أخلاقي، خطاب اجتماعي، خطاب سياسي...)، تداخلت فيما بينها، وشكّلت بنيةً ونسيجاً واحداً ملتحمًا، خدّم الغرض العام لوصيته، المتمثّل في (الخطاب الوعظي الإرشادي).

ثالثا - المقاربة التداولية:

3-1- الإشارات: توزعت الإشارات في الوصية إلى¹:

أ- الإشارات الشخصية: هي الأكثر حضورا في الوصية، وقد تمثّلت في مجموعة من الضمائر؛ انقسمت إلى ضمائر عائدة على الذات الموصية، نقصد بها: (ابن الخطيب)، وضمائر عائدة على الذوات المستقبلية وهم: (أولاده).

وكأنّ المسار الإشاري في الوصية، سار على النحو التالي :



- الإشارات الشخصية العائدة على ذات ابن الخطيب: مثل: (علائي، قلْتُ، رُضِعْتُ، عثاري، أسفْتُ، آثاري، ندمْتُ، أنا رهين فوات، حسبي، ذنبي، نصحي، جنبي، انسكابي، ركابي، قطعْتُ، جعلتُ... إلخ).

- الإشارات الشخصية العائدة على الأبناء: جاء معظمها في صيغة الجمع، مقرونا بالأمر والنهي، مثل: (اعلموا، آمنوا، تمسكوا، لا تستأثروا، اذكروا، أظهروا، احذروا...).

ب - الإشارات المكانية: لم تكن حاضرة بقوة في الوصية، باستثناء بعض الإشارات التي دلّت على أماكن خدمت الغرض العام للوصية، كالإشارة إلى: (القبور، دار البقاء...)، وكأنّ بالموصي في إشارته لهاته الأماكن يُرسل دلالات ضمنية لأبنائه، مفادها أنّ الدنيا زائلة، والخلود لا يكون إلّا في دار البقاء، فمن عمل شرا، مصيره جهنّم، ومن عمل خيرا، فمستقرّه الجنة والفردوس؛ التي هي «دار الخلود بلا فناء، والأمن بلا خوف، والاستقرار بلا زوال»²، فيكون بذلك المقصد التداولي الوظيفي من هاته الإشارات المكانية، هو التحذير من العقاب، والتبشير بالثواب.

¹ ينظر: المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب -، تح: محمد محي الدين عبد

الحميد، ج: 10، ص: 247-261.

² سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، ط2، 1423هـ - 2003م، مج: 05، ص: 2457.

بالإضافة إلى هذين النوعين، تُوجد إشارات أخرى - ضمائر - كانت الإحالة فيها عائدة على بعض موضوعات الوصية، من قبيل:

- الوصية: مثل: (اقتنوها، زادها، فروعها، لآئها...).

- الشريعة: نحو: (جادّتها، أقمارها...).

- الدين: (شرائعه، فروضه...).

- القرآن: (آياته، معانيه، أوامره، نواهيه...).

- الصلاة: (أوقاتها، أدائها...).

3-2- متضمنات القول: إنّ أيّ لغة من اللغات تحمل أقوالاً ضمنية مضمرة، لا يتضح معناها إلّا من خلال سياقات الخطاب التي تُحدّد مقصديتها ودلالاتها، ومن المتضمنات التي نقف عليها في وصية "ابن الخطيب"، ما يلي:

أ- الافتراض المسبق: لم ترد الافتراضات المسبقة بكثرة في الوصية، ومن الأمثلة التي نستدل بها:

1- قول ابن الخطيب: «وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه».¹ في القول افتراض مُسبق، تقديره: (وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب ابن مالك)، لأنّه المذهب الذي كان يتّبعه أهل الأندلس آنذاك.

فيُصبح لدينا :

- (أ): اقرؤوا المسائل الفقهية على مذهب إمامكم.

أي: - (ب): اقرؤوا المسائل الفقهية على مذهب ابن مالك.

2- قول ابن الخطيب: «ولا تستعظموا حوادث الأيام كلّما نزلت، ولا تضجّوا للأمراض إذا أعضلت»².

¹ المقرّي، نفع الطيّب من عُصْن الأندلس الرّطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 255.

² م ن، ص: 258.

المفترض :

- استعظام أولاده لحوادث الزمن ومصائبه من قبل.

- أولاده ضجّوا من الأمراض حين أصابتهم.

إنّ "ابن الخطيب" من خلال هذا القول يُنبّه أولاده ويُحذّرهم من استعظام حوادث الدنيا، أو الفرع من الأمراض المعضلة حين تُصيبهم مرّة أخرى، لأنّ كلّ هذه الحوادث -مصائب الدنيا أو الأمراض- ستمضي وتنتهي. ولو كان المقصود من كلامه غير هذا المعنى، لقال: (إذا نزلت حوادث الأيام عليكم فلا تستعظموها، وإذا أعضتكم الأمراض فلا تضعّوا منها).

3- ما قاله "لسان الدين" في حديثه عن الخمر: «وقد تركها في الجاهلية أقوام»¹.

نُقدّر الافتراضات المسبقة، في:

- الخمر كانت موجودة في الجاهلية.

- بعض الأقوام في الجاهلية لم تكن تشرب الخمر وتركها.

ب - الأقوال المضمرة: نجد الأقوال المضمرة حاضرة بشكل مُكثف في الوصية، منها:

1- حديثه عن الصلاة: «ولا تُفضّلوا عليها الأشغال اليدوية»² ← هو قول مضمّر يستلزم أداء الصلاة في أوقاتها.

2- حديثه عن الزنى: «فالحلال لم تضيق عن الشهوات أنواعه»³ ← إشارة من "ابن الخطيب" إلى الزواج، بمعنى عليكم بالزواج واجتنبوا الزنى.

¹المقرّي، نفح الطيب من عُصْن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 257.

² م ن، ص: 252.

³ م ن، ص: 257.

3- قوله: «واعلموا أنّ الله سبحانه بالمرصاد، وأنّ الخلق بين زرع وحصاد (...)»، واعلموا أنّ الخير أو الشرّ في الدنيا مُحال أن يدوم»¹.

يتضمن القول قولين مضميرين، هما:

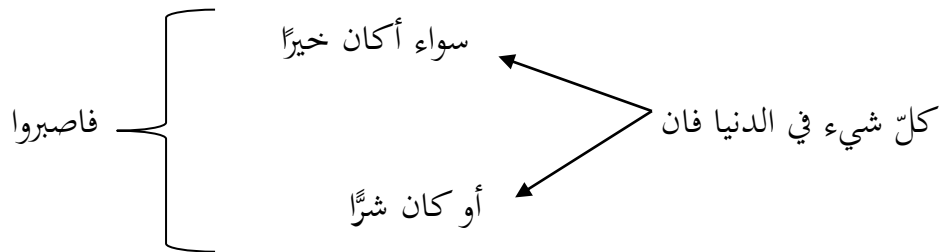
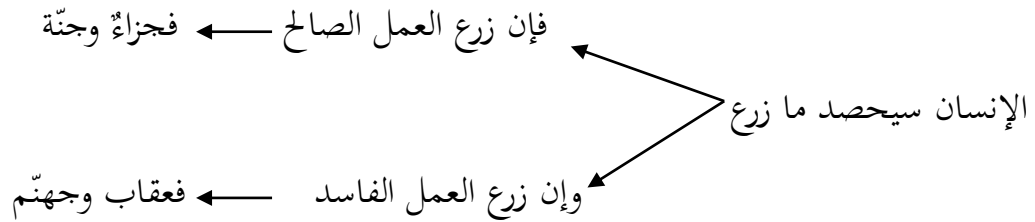
أ- وأنّ الخلق بين زرع وحصاد ← ستحصدون ما زرعتم.

فإذا تبنى الإنسان في حياته العمل الصالح والخلق الفاضل، فإنّه سينال الجزاء والثواب في الدار الآخرة، أمّا إذا فعل العكس، فلينتظر الشقاء والعذاب في دار البقاء. والغرض من القول في هذا المقام؛ هو تذكير الموصي أولاده وتنبيههم على ضرورة اختيار وتحديد طريقهم في الحياة.

ب- واعلموا أنّ الخير أو الشرّ في الدنيا محال أن يدوم ← أي: اصبروا فكلّ شيءٍ فان.

والمعنى المضمّر؛ هو التأكيد على أهمية الصبر، وتقدير الكلام: (إذا كنتم في نعمة الخير، فاحمدوا الله، ولا تعزّونكم الحياة الدنيا؛ لأنّها متاع غرور، وذلك الخير قد يزول. أمّا إذا كنتم في نقمة؛ فأيضاً اصبروا واحمدوا الله لعلّ فرجه قريب، وذلك الشرّ سينقضي).

نُمثّل للقولين السابقين، بالتميز التالي:



¹ م س، ص: 258.

3-3- مبدأ التعاون وقواعده:

برز مبدأ التعاون جلياً في الوصية، يبد أن مظهرات قواعد التعاون انقسمت إلى فرعين: تارة تمت المحافظة عليها، وتارة أخرى تم خرقها.

أ- الحفاظ على قواعد التعاون: من نماذج المحافظة على قواعد مبدأ التعاون في الوصية، ما ذكره "ابن الخطيب" بخصوص القرآن الكريم، قائلاً: «وتمسكوا بكتاب الله حفظاً وتلاوة، واجعلوا حمله على حمل التكليف علاوة، وتفكروا في آياته ومعانيه، وامثلوا أوامره ونواهيه، ولا تتأولوه ولا تغلو فيه»¹، وكأن الموصي في إجابة عن سؤال ضمني من أولاده؛ (كيف نتمسك بكتاب الله؟).

أما قواعد التعاون التي يمكن استنتاجها من القول، نحصرها في :

- قاعدة الكم: استخدم "لسان الدين" القدر المطلوب من الكلمات في نصحه لأبنائه حول كيفية التمسك بالقرآن الكريم.

- قاعدة الكيف: حيث كان نصحه صادقاً، ووصيته بشأن القرآن واضحة ومباشرة.

- قاعدة الملاءمة: ما قاله "ابن الخطيب" من توجيهات ووصايا يتوافق مع الموضوع، الذي خصص الحديث عنه، ألا وهو الدعوة إلى التدبر في القرآن وحفظه وترتيبه، وامثال أوامره ونواهيه.

- قاعدة الجهة أو الطريقة: جاءت موجزة مرتبة، وواضحة مباشرة، بعيدة عن الإبهام والغموض.

ب- خرق قواعد التعاون: انتهك الموصي في مواضع عديدة قواعد التعاون، مثل:

- خرق قاعدة الطريقة: تجلّى ذلك بوضوح في ختام وصيته، حين قال: «والسلام عليكم من حبيبكم المودّع، والله سبحانه يُلئمه حيث شاء من شمل مُتصدّع، والدم محمد بن عبد الله بن الخطيب ورحمة الله وبركاته»².

¹ المقرئ، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب -، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 252.

² م ن، ص: 260 - 261.

نلاحظ في القول إطناباً -نُبِّين دلالته لاحقاً- من طرف "لسان الدين" في تعبيره، فقد خرق مقولة من مقولات قاعدة الطريقة، وهي (الإيجاز)، إذ كان يكفي أن يقول: (والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

3-4 - أفعال الكلام:

لا يكاد مضمون الوصية يخلو من الأفعال الكلامية الإنجازية التأثيرية، أهمها:

أ- الأمر: أكثر الموصي من استعمال أفعال الأمر، التي تجاوزت (130 فعلاً)؛ منها ما جاء بصيغة (افعلوا)، وبعضها جاء (على شاكلة فعل المضارع المسبوق بلام الأمر)، وبعضها الآخر ورد (جواب شرط). وهي أفعال رغم اختلاف صيغها، إلا أنها أسهمت في توجيه الموصي (الأبناء) ضمن مطلب عام، مداره قائم على النصح والإرشاد، لا الإلزام الإجمالي، لأنَّ مجمل الأوامر في الوصية خرجت عن معناها الحقيقي، إلى معنى ضمني؛ هو الوعظ والإرشاد والتوجيه، وذلك بهدف التأثير في أبناء "ابن الخطيب" وحثهم على إنجاز ما هو مطلوب منهم.

ومن بين أفعال الأمر: (اعلموا هداكم الله، استشعروا حبه، عُوا مرأشده، استعيذوا برضا الله، ارفعوا آمالكم، كفكفوا الشُّبه، تمسكوا بكتاب الله، تفكروا آياته، امثلوا أوامره ونواهيه، صونوا شعائر الله، احفظوا القواعد، أحكموا أوضاعها، أتبعوا النوافل، استحيوا من الله، خالفوا الشيطان، اغتتموا رضاه، أعينوا مَنْ يستطيعه، عليكم بالعلم، التمسوه لبنيتكم، اطرخوا الحسد، أفشوا السلام، صونوا المواعيد، أظهروا التعاضد، وليصُن الديانة...).¹

ب- النهي: في مقابل الأوامر، عرض "ابن الخطيب" جملة من النواهي جاءت متلاحقة، مُكمِّلة ومتداخلة مع تلك الأوامر، وذلك لاعتبار أنَّ مدار الوصية ككلّ هو أمرٌ بفعل شيء، ونهيٌ عن فعل شيء آخر.

¹ ينظر: المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب -، تح: محمد محي الدين عبد

وقد حضرت النواهي في وصية "ابن الخطيب" في أكثر من (35 موضعا)، تمثل مُعظمها في النهي عن المنكرات والردائل والمعاصي، ومن نماذج ذلك: (لا تهملوا -أي الصلاة-)، لا تتأولوه - القرآن-، لا تقربوا الفتنة، لا تبخسوا الناس أشياءهم، لا تقربوا الزنى، لا تقربوا الربا، لا تأكلوا مال أحد، لا تشاركوا أهل البطالة، لا تكلفوا الكهانة، لا تضجوا للأمراض، لا تطغوا في النعم، لا تنسوا الفضل بينكم..¹

وعليه، يمكن القول إنّ الأمر والنهي من الأفعال الكلامية التوجيهية التي غرضها توجيه المتلقي إلى إنجاز المطلوب، وبهما اكتسبت وصية "ابن الخطيب" قوة إقناعية تداولية في الحثّ على المأمورات والزجر عن المنهيات، فهما -كما ترى "سامية الدريدي"- أسلوبان «نابضان بالإثارة قادران على تحريك الوجدان وإحداث ما ينشد المتكلم تحقيقه في المتلقي من انفعال»².

ج- التحذير والإغراء: هما من آليات التوجيه بصفة خاصة، والأفعال الكلامية بصفة عامة «باعتبارهما يهدفان إلى التأثير في المخاطب وحمله على أداء فعل ما، فإذا رغب المتكلم من المخاطب أن يجتنب أمراً مكروها أدى رغبته تلك بالتحذير، وإذا أراد منه أن يفعل أمراً محموداً أدى له تلك الرغبة بالإغراء»³. فكلاهما إذن دعوة وعمل توجيهي، بيد أنّ الإغراء هو دعوة إلى أفعال محمودة (ترغيب)، أمّا التحذير فهو دعوة إلى ترك أفعال مذمومة (ترهيب).

نُحْمَلُ صُورَ التحذير والإغراء المذكورة في الوصية، في⁴:

1- التحذير: حذّر "ابن الخطيب" أولاده من عدّة أفعال وردائل مذمومة، وبَيَّنَ عواقبها الوخيمة، نحو: - إيتاكم والظلم.

¹ ينظر: م س، ص: 251 - 260.

² سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص: 153.

³ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب -دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي-، ص: 213.

⁴ ينظر: المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد

الحמיד، ج: 10، ص: 254 - 260.

- إيتاكم والغيبة.
- إيتاكم وطلب الولايات رغبة.
- احذروا شهادة الزور.
- إيتاكم والعلوم القديمة.
- إيتاكم والكذب.
- احذروا القواطع.
- احذروا معاداة الرجال.
- 2- الإغراء: رغب "ابن الخطيب" أولاده بقيم عديدة، وأفعال وفضائل محمودة، بُغية العمل بها، نحو:
 - الترغيب في العلم.
 - الترغيب في علوم الشريعة.
 - الترغيب في الحلال.
 - الترغيب في قيم خلقية كالصدق والأمانة والوفاء بالعهد...إلخ.
- د- الشرط: ارتكز "لسان الدين" في بناء وصيته على الجمل الشرطية، التي بلغت حوالي (40 جملة شرطية)، لما لها من قوة إقناعية تأثيرية تحصر المتلقي بين فعل شرط، وجواب يتوق لسماعه ومعرفته، وهذا ما يجعل الجمل الشرطية قادرة على أن «تُحقق مقصدين متكاملين: مقصدًا فنيًا جماليًا مُتمثلاً في إكساب القول قدرًا من بلاغة التعبير، ومقصدًا تأثيريًا متأنيًا أساسًا من نقل الكلام من حال إلى حال، ليكون أقدر على إثارة مُتقبله والنفاذ إلى ذهنه ووجدانه»¹.
- نعرض في هذا المقام -سنترك جزءًا من الجمل الشرطية للتحليل الحجاجي- بعض الأمثلة من الوصية:²

¹ عبد الله البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجريًا -مقاربة أسلوبية حجاجية-، ص: 164.

² ينظر: المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد

الحמיד، ج: 10، ص: 252، ص: 254، ص: 259.

- إذا قُورنت بالشواغل - الصلاة - فلها الجاه الأصيل — شرطُ غرضه بيان أهمية الصلاة، فهي أسمى من أن تُقارن في مرتبة واحدة مع مشاغل الدنيا وأمورها. وكأنَّ "بابن الخطيب" يُمرّر في رسالة ضمنية لأبنائه بأن يؤدّوا الصلاة في وقتها، حتّى وإن شغلتهم وأهتتهم الدنيا بمفاتنها.

- مَنْ لم ينلّه - العلم - فهو ذليل — يتضمّن القول علاقة شرطية سببية ضمنية موجّهة لأبنائه، من قبيل: (حصّلوا العلم ولا تكونوا أدّلاء).

- إذا أسديتم معروفا فلا تذكروه، وإذا برز قبيح فاستروه، وإذا أعظم النساء أمراً فاحقروه — يتضمّن القول علاقات شرطية مضمرة، هي:

1- إذا أسديتم المعروف — لا تذكروه — كلّ معروف يكون سرّاً.

2- إذا برز قبيح — فاستروه — كلّ قبيح يُستر.

3- إذا أعظم النساء أمراً — فاحقروه — كلّ مستعظم عند النساء يُستحقر.

وإنّ كنّا نتفق مع ما قاله الموصي في العلاقتين الشرطيتين الأولى والثانية، فإنّنا لا نتفق معه بخصوص العلاقة الشرطية الثالثة (إذا أعظم النساء أمراً فاحقروه)، فهل كلّ ما يُعظّمه النساء يُستحقر؟

الإجابة؛ طبعاً، ستكون بالنفي، لأنّ موقف "ابن الخطيب" في هذه الحالة موقفٌ شخصي، ربّما ناجم عن تجربة شخصية عاشها من قبل، قادتة إلى إصدار هذا الحكم.

هـ- النداء: يُعدّ النداء أحد الأساليب التوجيهية التنبهية، التي تُوجّه المتلقي وتلفت انتباهه، وتُبرز الصلة الوثيقة بين المرسل والمرسل إليه، إن كانت قريبة أو بعيدة. والنداء في الوصايا «من أكثر الأساليب التي تضمن الربط الوثيق بين المتكلّم والمخاطب، وهو ما يدعم حاجيتها وتأثيرها في المتلقي داخل خطاب الوصية»¹، حتّى وإن لم تكن أدوات النداء حاضرة.

¹ خالد عبد العزيز التحكّاني، بلاغة الوصية مقارنة بلاغية حجاجية، ص: 253.

وهذا ما لحظناه في وصية "ابن الخطيب" التي لم يرد فيها النداء بشكل ظاهر -ربما ليُعدّه عن أولاده- بل كان ضمنيا، من قبيل: «وعليكم بالصدق (...)»، وعليكم بالأمانة»¹.

أي: - يا بنيّ عليكم بالصدق.

- يا بنيّ عليكم بالأمانة.

باستثناء موضع واحد ورد فيه النداء بالأداة صريحا ظاهرا، في قول الموصي: «فاعملوا يا بنيّ بوصية من ناصح جاهد، ومشفق شفقة والد، واستشعروا حبه الذي توافرت دواعيه، وعُوا مرشد هديه فيا فوزَ واعيه»².

نُقسّم القول بحكم إحالاته إلى قسمين: الأول؛ عائد على "ابن الخطيب"، أمّا الثاني؛ سياق الحديث فيه يعود على "الرسول" عليه الصلاة والسلام.

- ق 1: فاعملوا يا بنيّ بوصية من ناصح جاهد، ومشفق شفقة والد.

يحمل النداء في (يا بنيّ) دلالات معنوية مشحونة بالصدق ومليئة بالعاطفة (ناصر، مشفق)، تمثّلتها ذات "ابن الخطيب" الأب الناصح المشفق على أبنائه، الذي لا يرغب لأولاده إلاّ الخير، من ناحية، والمقيل على أجله، من ناحية أخرى. وكأنّ كتلة الأحاسيس والمشاعر التي غمرته لحظة كتابته الوصية، جعلته يتوهم قُرب أولاده منه -وكأنهم بجانبه-، فضلا على أنّ هذه المفردات العاطفية تُخاطب الوجدان والقلوب أكثر ممّا تُخاطب العقول، ليكون بذلك الغرض من النداء ترغيب الأبناء بالوصية.

- ق 2: واستشعروا حبه الذي توافرت دواعيه، وعُوا مرشد هديه، فيا فوزَ واعيه.

¹ المقرئ، نفخ الطيب من عُصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 256.

² م ن، ص: 250-251.

ينتقل "ابن الخطيب" من دعوته إلى العمل بوصيته، إلى مرتبة أسمى وأعظم وأشرف؛ هي دعوة أولاده للاقتداء بالرسول وتعظيمه، واستشعار حبه في القلوب -لئلا يغفلوا عن ذلك-، ثم التمسك بهديه وسنته، لأنّ نتيجة ذلك هي الفوز في الآخرة بالنعيم الذي يرغب به كلّ مؤمن (يا فوز واعيه). كأنّ مدار القول ومقصوده، على النحو التالي:

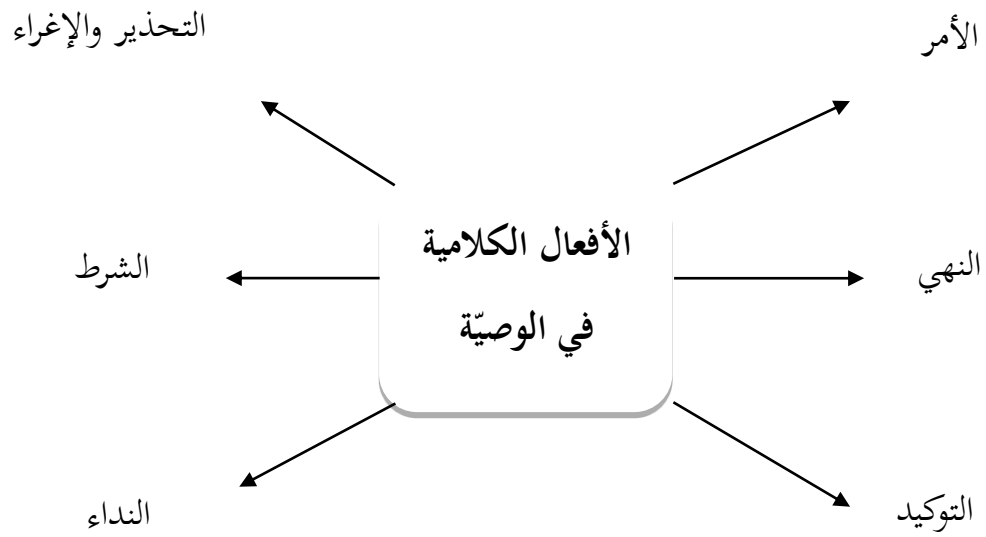
- يا بَنِيّ إذا أردتم الفوز بالآخرة، فاستشعروا حبّ الرسول، وعُوا مراشد هديه.
وفعل الأمر (عُوا)؛ حمل في طياته قوّة إنجازية تأثيرية بليغة، ذلك أنّ الوعي بمراشد هدي الرسول، والاتعاظ والسيّر على سنته لا يُدرکه إلاّ الإنسان الواعي الناضج المدرك؛ الذي يُغلب الآخرة الباقية على الدنيا الفانية.

و- التوكيد: يُوظّف الموصي التوكيد في وصيته من أجل تثبيت وترسيخ قيم وثوابت في ذهن الموصى. وهذا ما ذهب إليه "ابن الخطيب" في وصاياه لأبنائه؛ حيث سعى إلى تقرير وتمكين بعض المعاني والقيم الفاضلة في نفوسهم، من جهة، ومن جهة أخرى؛ استعمل "لسان الدين" التوكيد لغرض التنبيه والتحذير من العواقب الوخيمة التي قد تنجم عن فعل المنكرات والمعاصي.
ومن تجليات أسلوب التوكيد في الوصية، نعرض ما يلي¹:

- واعلموا أنّ بالعلم تُستعمل وظائف هذه الألقاب ————— التأكيد على أهمية العلم.
- واللّه قد أعدّ للزاني عذابا وببلا ————— التأكيد على مصير الزاني؛ وهو العذاب الشديد.
- واللّه قد جعلها -الخمر- رجسا محرّما على العباد ————— التأكيد على تحريم الخمر.
- ولا تقربوا الرّبا، فإنّه من مناهي الدين ————— التأكيد على ضرورة اجتناب الرّبا.

صفوة القول، إنّ الأفعال الكلامية في الوصية توزعت في شكل أوامر ونواهٍ، وترغيبات وترهيبات، حصّر من خلالها "ابن الخطيب" أولاده في ثنائية واحدة؛ تأرجحت بين (افعلوا/ لا تفعلوا)، فرسمت بذلك معالم الوصية، وحدّدت أطرها.

¹ ينظر: م س، ص: 254، ص: 257.



المخطط رقم 19: الأفعال الكلامية في وصية ابن الخطيب

رابعا - المقاربة الحجاجية:

1-4- مقدمات الحجاج :

هي المنطلقات والمسلّمات التي ينطلق منها أيّ متكلم في خطابه، وتكون مقبولة لدى المتلقي. وقد اتّكأ "ابن الخطيب" في وصيته على مجموعة من المعارف المشتركة المسلّم بها، والتي كانت بمثابة الأرضية والبناء الأساس في تمرير خطابه الإيصائي.

أ- الوقائع: نجدها متنوعة في الوصية، أهمها:¹

- الوقائع العقدية: كاستشهاد "ابن الخطيب" بالآيات التي تتحدث عن الوصايا -لا نعني في هذا المقام الآية في حدّ ذاتها، بل الواقعة والحديث-، وذلك قصد تذكير أولاده بأهمية وصايا الأنبياء والحكماء لأبنائهم، مثل (وصايا "لقمان" لابنه)، من ناحية، وتمرير رسالة ضمنية مفادها؛ (تمسكوا واعملوا بوصيتي، لتكون سبيل نجاحكم) من ناحية أخرى.

- الوقائع المنقولة: هي وقائع منقولة من التاريخ، يتمّ توظيفها في الخطاب، ومن صُورها؛ ما ذكره "ابن الخطيب" عن "ابن رشد" حين اتّهموه بالزندقة والإلحاد، نتيجة إقباله على دراسة العلوم القديمة والاهتمام بها.

- وقائع تجريبية (محسوسة): نقصد بها تلك الوقائع التي يُعايشها الموصي بنفسه، فيستحضرها في خطابه الإيصائي، لتكون عبرة لمن يُوجّه له الخطاب، وفي الغالب تتخذ هذه الوقائع صيغة المنهي عنه. ومن أمثلتها: تحذير "ابن الخطيب" أولاده من طلب الولايات، لأنّها في حقيقة الأمر فتنة ومحنة -في نظره-، وهو حُكّم لم يُصدره الموصي عبثا، بل كان ناجما عن تجربة طويلة في السياسة، عانى خلالها الولايات والنكبات حينما كان وزيرا.

بالإضافة إلى تحذيره من مخالطة أهل الدنيا ومصاحبتهم، كيف لا، وهو الذي عاش غَدْر أصحابه وتلامذته، كغَدْر تلميذه "ابن زمرك" له، حين اتّهمه بالزندقة.

¹ ينظر: المقرّي، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج: 10، ص: 249-250، ص: 255، ص: 259-260.

ب- الحقائق: تأسست جملة الحقائق في الوصية على ثوابت دينية مُسلم بها، مأخوذة من المشترك الديني والعقائدي -الإسلامي-، لا يمكن إنكارها بأي شكل من الأشكال، وإنما يُؤتى بها للتذكير، والتأكيد على أهميتها في حياة الإنسان سواء في الدنيا أو الآخرة .
من أبرز الحقائق، نذكر:¹

- حقيقة الموت التي أصبحت تلاحق "ابن الخطيب"؛ (وأنا رهين فوات وفي برزخ أموات، أيّ مُودّعكم، وصية محتضر...)، فهي إذن، من المسلّمات الحتمية على كلّ البشر، إذ لا ملاذ للإنسان إلّا في دار البقاء. وكأنّ الموصي باستحضاره لهاته الحقيقة، يُريد أن يُنبّه أولاده ويذكرهم بدنوّ الدنيا الزائلة الفانية، التي لا ينفع منها إلّا العمل الصالح، عندها تكون لحظة الموت وحقيقته عاملاً أساسياً في تجاوب وقبول الموصى إليهم لفحوى الوصية.

- حقيقة التوحيد وعبادة الله، والعمل بسنة رسوله.

- حقيقة المواظبة على أداء فرائض الإسلام (من صلاة، وزكاة، وصوم، وحجّ، وجهاد... إلخ).

- حقيقة العذاب الويل لكلّ منتهكٍ لمقاصد الشريعة الإسلامية (قتل النفس، الزنى، الخمر، الربا... إلخ).

ج- القيم: هي الأساس الذي سعى إلى تحقيقه "ابن الخطيب" -من بعد الحقائق الدينية- في خطابه، حيث عرّض مجموعة قيمٍ توزعت في اتجاهين متقابلين متعارضين؛ أحدهما: إيجابي دعا إليه الموصي ترغيباً، وثانيهما: سلبي نقرّ منه الموصي ترهيباً.

تمثّل لأهم القيم التي تضمنتها الوصية في الجدول التالي²:

¹ ينظر: المقرّي، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد

الحמיד، ج: 10، ص: 248-257.

² ينظر: م ن، ص: 254-260.

القيم الإيجابية المحمودة	القيم السلبية المذمومة
العلم النافع، الصدق، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الوفاء بالعهد، شكر الله على النعم، إفشاء السلام، العطف على ذوي العاهات، صلة الأرحام، الصبر، العمل الصالح.	الكذب، الخيانة، البخس في الكيل والميزان، النميمة، الحسد، الغيبة، البخل، مواقع الخزي والفضائح، الرشوة، إفشاء الأسرار.

الجدول رقم 07: أنواع القيم في وصية ابن الخطيب

4-2- الموجهات التعبيرية:

تعدّ وسيلة من وسائل الاستراتيجية التوجيهية، تضطلع بدور حجاجي في الخطابات، وهي في خطاب الوصايا تُعبّر عن رغبات الموصي وأمنيّاته التي يبتغي تحقّقها.

أ- الموجه الإلزامي: صيغته هي الأمر، وكان "ابن الخطيب" قد أصدر في وصيّته جملة أوامر لأبنائه، أخذت طابع النصح والوعظ والإرشاد -أشرنا لذلك في الأفعال الكلامية-، غير أنّ بعض هذه الأوامر لم تخرج عن معناها الحقيقي، وكانت الغاية منها الإلزام بالتنفيذ أو الترك. من أمثلة ذلك¹:

- تمسكوا بكتاب الله.

- صونوا شعائر الله.

- حافظوا عليها، أي؛ أركان الإسلام.

- عليكم بالصدق؛ بمعنى الزموا.

- اجتناب الزنى؛ بمعنى الابتعاد عنها بصفة مطلقة.

ب- الموجه الاستفهامي: هو من الآليات التوجيهية التي تُستعمل للسيطرة على ذهن المتلقي. وقد وردت الاستفهامات في الوصية بشكل ضئيل، لكنّها أدّت وظائف تأثيرية إقناعية، نحو :

¹ ينظر: م س، ص: 251 - 257.

- 1- قول ابن الخطيب: «فكيف وأدوات السفر تُجمع، ومُنَادَى الرحيل يُسمع؟»¹؛ استفهام تقريرى يُؤكّد على حقيقة الأجل التي لا مجال للهرب منها، وقد جيء به -الاستفهام- ليُذكر أولاده، بأن يتجهزوا ويكونوا على استعداد دائم في كلّ وقت للرحيل ولقاء ربّهم.
 - 2- قوله: «وأين حقّ من يموت من حقّ الحي الذي لا يموت؟»²؛ يحمل هذا الاستفهام -من وجهة نظرنا- دلالات العظمة والوحدانية لله عزّ وجلّ الحي الذي لا يموت، فكلّ ما سواه هالك.
 - 3- ما قاله "ابن الخطيب" في سياق حديثه عن اجتناب الزنى: «ومَن غلبت غرائز جهله، فليُنظر: هل يجب أن يُزنى بأهله؟»³؛ والغرض من هذا الاستفهام التنفير والتحقير، وكأنّ "بلسان الدين" يستدرج أذهان أبنائه -ويعرض أمامهم الحلّ المناسب لاجتناب هذه الفاحشة- ليتأملوا وينظروا (فليُنظر)، ويتخيلوا حال الإنسان وهو يرى أهله يرتكبون هذه الفاحشة، في منظرٍ بشعٍ وكرهه.
- وعليه، فإنّ الاستفهام في هذا المقام، دعوة صريحة ومباشرة لأبنائه، بل لكلّ من سوّلت له نفسه ارتكاب هذه الرذيلة، بأن يجتنبوا هذه المعصية، وإن غلبتهم شهواتهم ودفعتهم لفعل ذلك، لأنّها من المحرّمات والمنكرات، وجزاء فاعلها العذاب الشديد، وهذا ما أكّده الموصي، حين أتبع استفهامه، بجملة تقريرية تأكيدية دالة على ذلك؛ «والله قد أعدّ للزاني عذاباً وبئلاً»⁴. ثمّ ألحق كلامه بحجّة ودليل قاطعٍ يُحرّم الزنى، حين استشهد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْىَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء/ الآية: 32).

ج- الموجه بالتمني: لا يُمكن للموصي إغفال هذا الموجه في وصيته، لأنّه حين يكتُبها، فإنّه بطبيعة الحال يتمنى قبولها والعمل بها، وهو ما يجعل الوصايا «من الأشكال الأدبية التي تُفيد مقاماً تلفظياً

¹ المقرئ، نفخ الطيب من عُصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 249.

² م ن، ص: 252.

³ م ن، ص: 257.

⁴ م ن، ص: 257.

يغلب عليه التمني دون أن تبدو به القرائن البلاغية بارزة مثل: ليت، لعل، وغيرها (...)، فالموصي عندما يُوجّه الخطاب إلى المتلقي المقصود، فهو في ذلك يتمي ما يُريد تحقيقه في الموصى له، أو ما يتوجب عليه فعله مما يتمي حصوله»¹.

أبرز صور هذا الموجه في الوصية، تمثلت في:

- ما تمنّاه "ابن الخطيب" لأبنائه، بأن لا يسيروا في الطريق الذي خاض غماره والدهم - كالسياسة مثلاً - حتى لا يقعوا في المصائب والعثرات، وهذا ما أكّده حين قال: «ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري. إن سلك وعسى أن لا يكون ذلك على آثاري»².

- تمّي "ابن الخطيب" أن تُقبل وصيته من طرف أبنائه، فيعملوا بها حتى تكون لهم كالمصباح المنير الذي يهتدون به للخروج من الظلمات إلى النور، بقوله: «هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها، وتجاري التي لربحكم أدرتها، فتلقوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء صبحها»³.

3-4- المقاربة الحجاجية المنطقية :

نحاول التركيز من خلال المقاربة الحجاجية المنطقية على عنصرين أساسيين، هما: الخطاطة الحجاجية والقياس المضمر.

أ- الخطاطة الحجاجية: هي تلك الخطاطة المنطقية -عرّفنا بها من قبل- التي اعتمدها "تولمين" في حجاجه المنطقي، والتي تركز على مجموعة من العمليات المنطقية والخطابية، ولا يمكن فهمها إلا عند تتبع عمليات الربط المنطقي بإعمال الذهن، حتى يتم الوصول إلى استنتاجها -نظراً لصعوبة صياغتها-. وقد حاولنا من خلال وصية "ابن الخطيب" العمل على تحديد خطاطتين حجاجيتين - قد تحتملان الصواب أو الخطأ، وحسبنا في ذلك أننا لم نجد من قبل أيّ باحث من الباحثين العرب

¹ خالد عبد العزيز التحكاني، بلاغة الوصية مقارنة بلاغية حجاجية، ص: 254.

² المقرئ، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 248.

³ م ن، ص: 260.

قد عرّض نموذجًا لهاته الخطاطة في دراساته، باستثناء نموذج "عبد الله صولة" في مؤلّفه (الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية)، وكنا ذكرناه سابقا- تمثّلنا في تحذير "ابن الخطيب" أولاده من:

1- العلوم القديمة.

2- طلب الولايات.

1- الخطاطة الحاجية الخاصّة بالعلوم القديمة : تمثّلت في قول "ابن الخطيب" : «وإياكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة، فأكثرها لا يُفيد إلّا تشكيكا، ورأيًا ركيكا، ولا يُثمر في العاجلة إلّا اقتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار (...)»، هذا ابن رشد قاضي المصّر ومفتيه، ومُلمّس الرشد ومُوليه، عادت عليه بالسّخطة الشنيعة، وهو إمام الشريعة، فلا سبيل إلى اقتحامها، والتورّط في ازدحامها (...) إلّا ما كان من حساب ومساحة، وما يعود بجدوى فلاحه، وعلاج يرجع على النّفس والجسم براحة، وما سوى ذلك فمحجور، وضرم مسجور، وممقوت مهجور»¹.

بناءً على القول، يُمكن تحديد عناصر الخطاطة الحاجية على النحو التالي:

- المعطى: إياكم والعلوم القديمة.

- مُحدّد الكيفية: لأنّها (رابط تعليلي).

- النتيجة: غير نافعة (ضارّة).

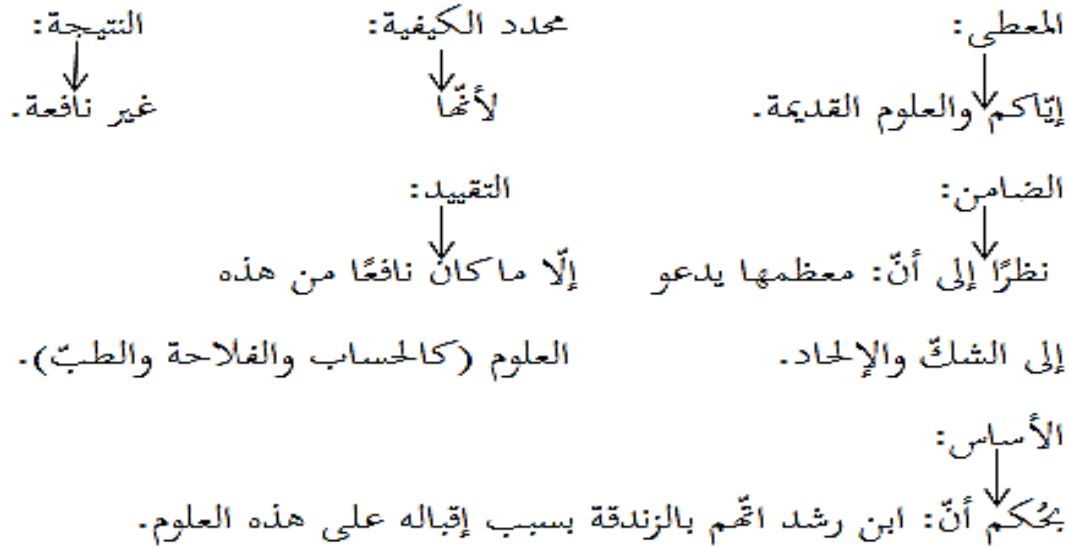
- الضامن: نظرا إلى أنّ: معظمها يدعو إلى التشكيك والإلحاد.

- الأساس: بحكم أنّ: ابن رشد اتّهم بالزندقة بسبب إقباله على هذه العلوم.

- التقييد: إلّا ما كان نافعا منها؛ (كالحساب والفلاحة والطب).

¹ م س، ص: 255 - 256.

وعليه، نصوغ ذلك في الخطاطة الآتية:



ما يُمكن تفصيله وتوضيحه من هاته الخطاطة؛ هو أنّ "لسان الدين" حذّر أبناءه من التورط في العلوم القديمة أو اقتحامها، لما فيها من أضرار، مُمثلاً لذلك "بابن رشد" - كدليل على كلامه - الذي كان قاضيا على قرطبة، وأحد أعظم فلاسفة الأندلس، لكنّ تمّ عزله من منصبه واتّهامه بالزندقة والإلحاد من طرف خصومه، نتيجة إقباله على دراسة الفلسفة والمنطق¹.

كما نلاحظ أيضا من خلال عنصر التقييد في الخطاطة أنّ "ابن الخطيب" استدرّك على حكمه العام - بخصوص هاته العلوم القديمة-، واستثنى النافع منها كعلوم الحساب والفلاحة والطب. وإنّنا في هذا المقام، لنستدرّك أيضا على حكم "ابن الخطيب" ولا نتفق معه في نظريته لعلوم الفلسفة والمنطق؛ إذ ليست كلّ أنواع هذه العلوم تدعو إلى الشك أو الإلحاد والزندقة. وإصدار حكم عام رافضٍ لها رفضًا قاطعًا ليس بصواب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ يمكن القول إنّ الدارس والمهتم بالفلسفة والمنطق عليه أن يكون يقظًا مُتفطنًا، ومُدرّكًا للمعاني والأفكار الفلسفية المطروحة أمامه، حتّى يتجنّب المساس بقُدسية المعتقد الديني.

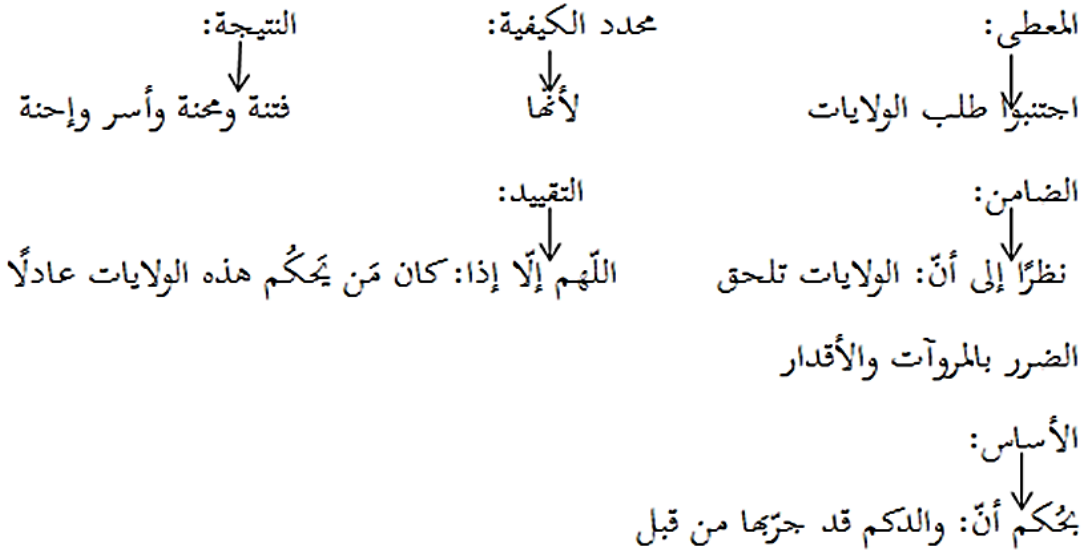
¹ ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة - العصر العباسي الأول-، ج: 03، ص: 202.

2- الخطاطة الحجاجية الخاصة بطلب الولايات:

تمثّلت في قول "ابن الخطيب": «إياكم وطلب الولايات رغبة واستجلابا، واستظهارا على الخطوب وغلابا، فذلك ضرر بالمروآت والأقدار، داعٍ إلى الفضيحة والعار (...)، فالولايات فتنة ومحنة، وأسرٌ وإحنة»¹.

تُحدّد أركان الخطاطة، على النحو التالي :

- المعطى: اجتنبوا طلب الولايات.
 - محدّد الكيفية: لأنّها (رابط تعليلي).
 - النتيجة: فتنة ومحنة وأسر وإحنة.
 - الضامن: نظرا إلى أنّ: الولايات تُلحق الضرر بالمروآت والأقدار.
 - الأساس: بحكم أنّ: والدكم قد جرّهما من قبل.
 - التقييد: اللهم إلّا إذا: كان من يحكم هذه الولايات عادلا.
- نصوغ ذلك في الخطاطة الآتية:



¹ المقرئ، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب -، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

إنَّ الغاية من هاته الخطاطة الحجاجية توجيه رسالة تحذيرية من الموصي إلى أبنائه، بأن لا يخوضوا في غمار السياسة، كي لا يحدث لهم مسقبلاً ما حدث له هو فيما مضى، ولعلَّ حُكمه القطعي والمعمَّم بخصوص فتنة الولايات وضررها، صادرٌ عن مُجربٍ له الباع الطويل في مجال السياسة، ولا سيما الوزارة -بصفته كان وزيراً- التي أثقلت كاهله، وقادته إلى حتفه.

ب- القياس المضمَر: يُعدُّ من الآليات المنطقية التي تستدرج المتلقي لاستنتاج إحدى المقدمات المحذوفة، أو التوصل إلى استنتاج النتيجة، عبر بناء استدلالي غير مباشر.

صُورُهُ في الوصية:

1- ما ذكره "ابن الخطيب" في سياق الحديث عن الجهاد في سبيل الله: «الجهاد في سبيل الله إن كانت لكم قوَّة عليه»¹.

نستنتج من هذه التوصية قياساً مضمراً، من قبيل:

- مقدّمة كبرى: الجهاد يتطلب القوَّة.

- مقدّمة صُغرى: أنتم أقوىاء.

- النتيجة: إذن جاهدوا.

2- ما يتعلّق بعُلُوم الشريعة والعلوم القديمة -تفاديا لتكرار القول لم نذكره-، حينَ فصَّل "ابن الخطيب" في أنواع علوم الشريعة وأكّد على أهميتها ونفعها، وفي مُقابل ذلك حذّر من العلوم القديمة كالمنطق والفلسفة².

نُمثِّل لذلك بالمقدّمات التالية:

- مقدّمة كبرى: علوم الشريعة نافعة.

- مقدّمة صُغرى: علم الحديث من علوم الشريعة.

¹ المقرئ، نفح الطيب من عُصْن الأندلس الرّطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 254.

² ينظر: م ن، ص: 255-256.

- النتيجة: علم الحديث نافع.

أو كقولنا في قياس مضمّر آخر:

- م ك: علوم الشريعة نافعة.

- م ص: أصول الفقه من علوم الشريعة.

- ن: إذن؛ أصول الفقه علمٌ نافع.

وفيما يخصّ العلوم القديمة، نضرب القياس التالي:

- م ك: العلوم القديمة ضارّة (غير نافعة).

- م ص: الفلسفة من العلوم القديمة.

- ن: إذن؛ الفلسفة ضارّة.

وعليه، نقول إنّ كلّ هذه القياسات المضمرة ماهي إلاّ إفرازات تأثيرية استدلالية أراد الموصي

من خلالها توجيه أبنائه لِقَهْم مدلولاتها، ومن ثمّ يُقبِلوا على تنفيذها، إمّا بالفعل (إن كانت صالحة)، أو التّرك (إن كانت فاسدة).

4-4- التقنيات الحجاجية:

أ- الحجج شبه المنطقية:

تعدّدت هذه الحجج في الوصيّة، أبرزها:

1- حجة التناقض: هي من بين الحجج التي أوردها "بيرلمان" في حجاجه، وقد يتبادر إلى الأذهان عند

سماعها أنّها تلك الحجّة التي تجمع بين الشيء ونقيضه، لكنّ مفهومها أوسع من ذلك، لأنّها ليست

الشيء وضدّه (الأضداد)، بل هي نفيّ قضيّة لأخرى تتناقض معها في سياق خطابي واحد، أو

ملفوظ واحد - شرحنا مفهوم الحجّة سابقا-، ومن صُورها في الوصيّة:

- « والزعازع تُسلم اللدن اللطيف من الأغصان»¹، والزعازع ها هنا هي الرياح الشديدة القوّة، فكيف لها أن تُسلم الغصن اللين واللطيف من الأغصان؟ لأن المنطق يقتضي: أنّ الرياح القوّة العاصفة تقطع الأغصان الرقيقة واللينّة، بل حتّى تلك الأغصان الخشنة والكبيرة من الشجرة. لكنّ الذي نلاحظه من القول هو التناقض؛ والذي أكّد حمولة هذا القول المتناقض، هو الفعل (تُسلم) من المسالمة، وكأنّ الملفوظ (الغصن اللين واللطيف) نفى تلك الخشونة والقوّة من الملفوظ (الزعازع)، وذلك من باب الاستعارة، التي وظّفها "ابن الخطيب" لتوجيه أبنائه إلى استعمال اللين واللطف في معاملاتهم مع الآخرين، حتّى وإن كانت طبائع هذا الآخر خشنة وسيئة، لأنّ استعمال الطبع اللين واللطيف سيغلبها لا محالة.

2- حجة التعارض: تتمثل في عدم الاتفاق بين الملفوظات، أو حتّى بين الأقوال والأفعال في مقامات معيّنة. ونجد هذه الحجة حاضرة في الوصية في:

- قول "ابن الخطيب": «وأقلّ عقوبات الكذاب، بين يدي ما أعدّ الله له من العذاب، أن لا يُقبل صدقه إذا صدق، ولا يُعوّل عليه إن كان بالحقّ نطق»².

المقصود هو أنّ الكذاب حتّى وإن صدق في أقواله أو أفعاله، فإنّ غيره، أيّ الطرف الآخر، لن يقبل بأقواله وأفعاله أو يُصدّقها، لأنّ طبيعة هذا الشخص كانت دومًا كاذبة في تصرفاتها، ومن المستحيل التعويل على مثل هكذا أشخاص، الذين تتعارض أفعالهم مع أقوالهم. وإبراز هذا التعارض في الوصية، إنّما هو لغاية تأثيرية إقناعية من طرف "لسان الدين" أراد تبليغها لأبنائه، بأن يجتنبوا هذا السلوك الذميم في معاملاتهم مع بعضهم كإخوة أو مع غيرهم، وأن يتحلّوا بالصدق كسلوك قيمى فضيل.

¹ المقرئ، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 260.

² م ن، ص: 256.

زيادة على ذلك، نلاحظ في الملفوظ (أقلّ عقوبات الكذاب)، حمولة حجاجية كبيرة، تمثلت في استعمال الموصي للفظ (أقلّ)، وكأنّ به يُنوّه ويُجذّر أبناءه من العواقب الوخيمة لهذا السلوك المذموم عند الله، الذي أقلّ عقوبات مُرتكبه هي عدم التصديق، فما بالكم بأكبرها. وعليه، فإنّ القول السابق، يقودنا إلى استنتاج موضع حجاجي، من قبيل :

- كلّ كذاب لا يُؤتمن.

3- حجة التعريف: أكثر "ابن الخطيب" من استعمال التعريفات في وصيته، حيث انبت وصيته على التعريف بعدّة عبادات وقيم، وسلوكات أخلاقية -محمودة كانت أو مذمومة-، في صورة مُوجزة يتخلّلها الوصف، وهو ما يُعرف بالتعريف الموجز، والتعريف بالوصف، فقد جمّع "ابن الخطيب" في تعريفاته بين هذين النوعين، لتكون وصيته أكثر إقناعاً وتأثيراً في نفوس أبنائه وأذهانهم.

➤ نماذج ذلك، ما يلي¹:

- الصلاة ذريعة التجلّة.
- الصلاة أمّ العبادة.
- الصلاة حاقة الدم.
- الزكاة مفتاح السعادة.
- صيام رمضان عبادة السرّ المقربة إلى الله.
- العلم وسيلة النفوس الشريفة إلى المطالب المنيفة .
- الخمر أمّ الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائم.
- الصدق هو شعار المؤمنين.
- الكذب هو العورة السيئة التي لا تُؤارى.
- الخيانة لوم.
- النميمة فساد وشتات.

¹ ينظر: م س، ص: 253 - 260.

- الولايات فتنة ومحنة، وأسر وإحنة.

هي إذن، تعريفات موجزة في ألفاظها وعباراتها، بليغة في معانيها ودلالاتها، سلكت في الوصية مسلكين: أولهما التعريف بمحاسن بعض القيم الفاضلة؛ ترغيباً وتحبيباً فيها، أما ثانيهما: التعريف بمساوئ قيم رذيلة؛ تنفيراً وتكريهاً لها.

4- حجة التبادل: أساس هذه الحجة محكوم بقاعدة العدل، كقول "ابن الخطيب": «ومن غلبت غرائز جهله، فليُنظر: هل يجب أن يزنى بأهله؟»¹، وهو قول فصلنا فيه سابقاً باعتباره مُوجِّهاً تعبيرياً استفهامياً، لكننا لم نقف فيه على وظيفته الحاجية، حيث تمثلت هذه الأخيرة في العلاقة الحاجية التبادلية، نُقدِّرها، على النحو التالي:

- أيها الإنسان مثلما لا ترغب أن يُزنى بأهلك، فأنت أيضاً لا تُزنى بأهل الآخرين.

إذن: العلاقة الحاجية التبادلية في هذا الموقف قائمة على العدل بين الطرفين، وهي علاقة ذات أبعاد تأثيرية استدرجت ذهن الموصى إليهم، ليتخيلوا أهلهم في هذا المشهد اللاأخلاقي، حينها يدفعهم هذا التبادل، لتحديد موقفهم من تلك الفاحشة.

5- حجة التعدية: تقوم على استنتاج علاقات جديدة، انطلاقاً من سياق الخطاب، وعلى سبيل التمثيل من الوصية نأخذ القولين التاليين:

- ق 1: «وخصّصوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا»².

تمثل له، ب:

- (أ): لسان الدين بن الخطيب ← الأب

- (ب): أبناءه (عبد الله، علي، محمد) ← الابن

- (ج): أبناء أبنائه ← الحفدة

¹ المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 259.

² م ن، ص: 249.

إنَّ المسلمة التي نستنتجها انطلاقاً من القول السابق، هي أنَّ "ابن الخطيب" لا يرغب في اقتصار وصيته على أولاده فقط، بل يُريد أن يتعدى العمل بها أيضاً إلى أبناء أولاده، بحكم أنَّهم خفدته. فيُصبح خطاب الوصية الوعظي في هذه الحالة، كأنَّه حركة انتقالية من الأب إلى الحفيد، بواسطة الابن.

نصوغ ذلك، في :

- العلاقة بين (أ و ب): علاقة قرابة ————— الغاية منها: النصح والإرشاد.
- العلاقة بين (أ و ج): علاقة قرابة ————— الغاية منها: النصح والإرشاد.
- ق 2: «وأوجبوا التَّجَلَّةَ لصحبه الذين اختارهم الله تعالى لصُحبته، واجعلوا محبتكم إيَّاهم من توابع محبته، واشملوهم بالتوقير (...)»، ثمَّ اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملة، وأئمتها الجلة، فهُم صقلة نُصولهم، وفُروع ناشئة من أصولهم، وورثتهم وورثة رسولهم»¹.
- يُوصي "ابن الخطيب" أبناءه بضرورة محبة الصحابة -رضوان الله عليهم- وتوقيرهم، لأنَّهم من صُحبة "الرسول" عليه السلام، ومنه تُصبح محبتهم -أولاده- للرسول تستوجب منهم محبة الصحابة، ثمَّ يتعدى الموصي بهذه المحبة، وينصح مرّة أخرى أبناءه بأن تشمل هذه المحبة أيضاً العلماء والأئمة؛ (ثمَّ اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملة وأئمتها الجلة)، لأنَّهم فروع ناشئة من الصحابة وورثتهم، وورثة رسولهم.

وعليه، نحصل على المسار الحجاجي التالي:

محبة الرسول ————— محبة الصحابة ————— محبة العلماء والأئمة [لأنَّهم فروع ناشئة منهم].

6- حجة الإدماج: يُقصد بها تلك الحجة التي إن انطبق فيها الحكم على الجزء، فإنَّه بدون شك سينطبق على الكل، لأنَّ ذلك الجزء ما هو إلَّا عُنصر من العناصر المكوِّنة للكلّ.

¹ م س، ص: 251.

➤ مثال ذلك:

- ما أوصى به "ابن الخطيب" بخصوص العلم وفضله، حين قال: «والدُّخْر الذي قليله يشفع وكثيره ينفع»¹. فلما كان الفضل والجزاء واحداً جمع "ابن الخطيب" في قوله بين قليل العلم وكثيره، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة/ الآية: 11).

- من الأمثلة أيضاً؛ وصايا "ابن الخطيب" حول أركان الإسلام، فصل فيها على حدة، إلا الركن الخامس (الحج)، ألحق به (الجهاد)، ودججه معه، حين قال: «والحج مع الاستطاعة الركن الواجب (...) ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله إن كانت لكم قوة عليه»². فسبب الدمج هاهنا، راجع إلى شرط الاستطاعة والمقدرة، الذي هو شرط أساس في الركنين؛ فكما أن الحج يتطلب الاستطاعة، فإن الجهاد أيضاً يتطلب القوة والاستطاعة، وما الدمج في هذا المقام إلا لاشتراكهما في الحكم؛ أي شرط التنفيذ.

7- حجة التقسيم: تقوم على تقسيم الكل الواحد إلى مجموع الأجزاء المكونة له، وحضور هذه الحجة في الوصية تجلّى بشكل كبير؛ كتقسيم "ابن الخطيب" لأركان الإسلام في عرضه لها، حتى يستوعبها أولاده ويُدركوا أهميتها، فيحافظوا على إقامتها.

➤ ونجده يبدأ ب³:

- التوحيد.

- الصلاة.

- الزكاة.

¹ المقرئ، نفخ الطيب من عُصْن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب -، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 254.

² م ن، ص: 254.

³ ينظر: م ن، ص: 249 - 254.

- الصيام.

- الحج.

8- حجة المقارنة: اعتمد "لسان الدين" هذه الحجة في مواضع كثيرة، من قبيل:¹

- المقارنة بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة.

- المقارنة بين أصحاب العلم، والذين لا يعلمون.

- المقارنة بين علوم الشريعة والعلوم القديمة.

- المقارنة بين مجموعة قيم إيجابية؛ (الصدق، الأمانة، وغيرها...)، وأخرى سلبية؛ (الكذب، الخيانة... إلخ).

9- حجة المساواة: تقتضي المساواة بين الأشياء، والعدل أساسها، مثل:

ق1: «ولا تبخسوا الناس أشياءهم في كيل أو وزن»² ← النهي عن البخس في الميزان، وضرورة العدل وإعطاء كل ذي حق حقه.

10- حجة التضحية: من الحجج التي لا تبرز في الخطابات، بل إنّ جوهرها يتمثل في قيمة الأشخاص، أو الأشياء والتضحيات المبذولة لأجل ذلك. وهذا ما نستنتجه من كلام "لسان الدين": «والله الله لا تنسوا مقارضة سجلي»³. بمعنى؛ يا أبنائي لا تنسوا ما قدّمته لكم من تضحيات في سبيل تربيتكم وإعلاء مقامكم، وأنتم مدينون لي بذلك، وهي تضحية -من وجهة نظرنا- تنتظر ردّ الجميل بقبول الوصية والعمل بها على الأقل. فكأنّ بالموصي من خلال قوله، يرغب في إيصال بنية عميقة لأبنائه، مفادها:

- يا أبنائي لا تنسوا ما قدّمته لكم من تضحيات ، فعلى الأقلّ اعملوا بوصيتي.

¹ ينظر: المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد

الحמיד، ج: 10، ص: 251، ص: 255-259.

² م ن، ص: 256.

³ م ن، ص: 259.

ب - الحجج المؤسسة على بنية الواقع:

وقفنا في تحليلنا للوصية على بعض الحجج القائمة على بنية الواقع، أهمها:

1-الحجة السببية: تتمثل في الربط بين الأسباب ومُسبباتها، وقد برزت هذه الحجة بشكل مكثف في الوصية، نحو¹:

- لما علاني - الموصي يقصد نفسه- المشيب بقمته وقادني الكبر برّمته ← قلت أخاطب الثلاثة الولد.

فالسبب في كتابة الموصي لوصيته، هو إحساسه بالكبر والعجز وقُرب أجله.

- الطهارة التي هي في تحصيلها - الضمير يعود على الصلاة- سبب موصل وشرط لمشروطه مُحصل فاستوفوها ← الطهارة شرط في صلاح الصلاة.

أي: قبل أداء فريضة الصلاة، لا بدّ من تحصيل الطهارة، وإلا فسدت هذه الصلاة.

- الله الله أن تُعينوا في سفك الدماء -قتل النفس-، ولو بالإشارة أو الكلام أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ← الطرق المسيبة في سفك الدماء.

الرابط الحجاجي (لو) في القول، حدّد الكيفيات والأسباب التي تكون سبباً في الوصول إلى النتيجة، وهي سفك الدماء، والغرض من ذلك ليس مجرد بيان الأسباب، بل الدعوة لاجتنابها.

2- حجة التبذير: يُمكن اعتبارها من الحجج الهادفة إلى مصلحة الإنسان، من نماذجها:²

- ق1: لا تطغوا في النعم وتقصّروا عن شكرها ← إشارة من الموصي لأبنائه بأن يتنعموا برزق الله وخيراته، دون الإسراف في النعم التي أنعم بها الله عليهم، أو أن يُقصّروا في شكره. وبمعنى آخر؛ فإنّ الموصي ينهى عن تبذير هذه النعم فيما لا يُرضي الله، ويدعو إلى المواصلة والاستمرارية في شكر الله على رزقه ونعمه، مهما كانت الظروف والأحوال.

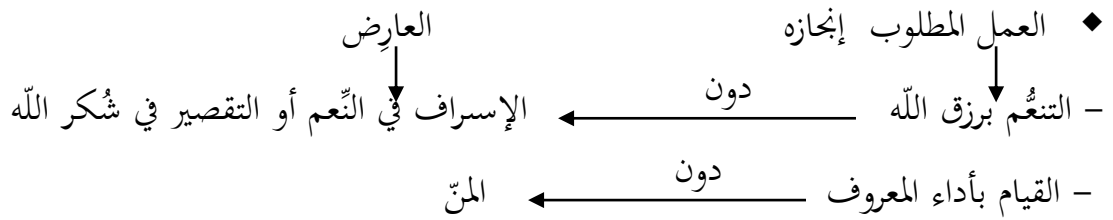
¹ ينظر: المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد

الحמיד، ج: 10، ص: 248، ص: 256.

² ينظر: م ن، ص: 259.

ق 2: واعلموا أنّ المعروف يَكْدُر بالامتنان، فإذا أسديتم معروفا فلا تذكروه — كثرة الصدقات والقيام بالمعروف من الأعمال الصالحة التي تُرضي الخالق، والتي لا بُدَّ من مواصلة السير فيها، لكنّ التبذير فيها يَقَع عند المنّ وتعداد النعمة على المنعم عليه، حينئذ يتحوّل ذلك العمل المرغوب فيه (القيام بالمعروف) إلى إساءة وأدّى. وهو قولٌ يُمكن إدراجه أيضا ضمن الحجّة السببية (المنّ سبب في تكذّر المعروف).

نُحْص من خلال القولين إلى الاستنتاج التالي:



3- حجة الاتجاه: تمثّلت في سلسلة التحذيرات التي أقرّها "ابن الخطيب" في وصيّته، اتّجاه بعض السلوكات والردائل المذمومة، فقد أراد من خلالها توجيه أبنائه لتفاديها، لأنّهم لو بدؤوا في فعل سلوكٍ معيّن منها، فلن يتوقفوا عنه، دون إدراك العواقب التي قد تنجم عنه، إن هم -أولاده- استمروا في مواصلة السير في اتّجاهه.

ونقف في هذا المقام على ذكر بعض الأمثلة -وإن كنّا قد أشرنا لأسلوب التحذير سابقا في الأفعال الكلامية-، من قبيل:¹

- التحذير من؛ العلوم القديمة، الكذب، سفك الدماء، الظلم، شهادة الزور.
- التحذير من طلب الولايات؛ التي وإن كان السير في اتّجاهها أمرا لا اعتراض عليه في ذاته -يسعى إليه الكثير من الناس لخوض غماره-، لكنّ الولايات قد تقود في غالب الأحيان صاحبها إلى المعاناة والنزاعات، كما قد تجعل المرء يتنازل عن عدّة قيم ومبادئ يتّصف بها، في سبيل المصلحة السياسية.

¹ ينظر: م س، ص: 255 - 260.

4- حجة التخطي والتجاوز: تقتضي تجاوز وتخطي عدّة عوائق، ليلوغ غايات أسمى، وفي الوصية نجد "ابن الخطيب" حريصاً على نُصح أبنائه بضرورة تجاوز أشخاص وأمور، هم -من وجهة نظره- بمثابة العائق الذي يُعرق أولاده في السَّير نحو مستقبل أفضل. ومثال ذلك:

- ق 1: «ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر (...)، وقابلوا بالصبر أذية المؤذنين»¹.
أي: تجاوزوا أهل البطالة، فلا نفع فيهم.

- ق 2: «وازهّدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا»².

أي: عليكم بتجنّب مصاحبة أهل الدنيا وتجاوزهم، والابتعاد عنهم، إذ لا خير في مثل هكذا مصاحبة، وهو حُكم أصدره "لسان الدين" انطلاقاً من تجربته في الحياة.

5- حجة الوسائل والغايات: تعدّ وصية "ابن الخطيب" في حدّ ذاتها وسيلة لغايات متعدّدة، وخير ما يُمثّل ذلك، ما قاله "لسان الدين" في خاتمة خطابه الإيصائي: «هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها، وتجاري التي لربحكم أدركتها (...)» وبقدر ما أمضيت من فروعها، واستغشيت من دروعها، اقتنيت من المناقب الفاخرة، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة، وبقدر ما أضعتم لآئها النفيسة القيّم، استكثرتم من بواعث الندم»³. بمعنى؛ وصيتي وسيلة لكم لتبلغوا غايات، يسعى إليها كلّ إنسان في حياته؛ كال فوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، وكأنّ الموصي يُصوّر المشهد الذي سيؤول إليه أولاده؛ إن هم قبلوا العمل بالوصية (النجاح والسعادة)، وإن هم لم يعتدوا بهذه الوسيلة (الخذلان والخسران).

فنحصل آنئذٍ على العلاقة الشرطية التالية:

- إذا تمّ العمل بالوصية -باعتبارها وسيلة-، فستتحقّق غاياتكم.

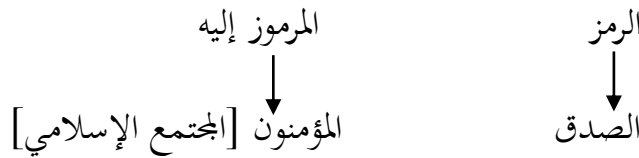
¹ المقرّي، نفح الطيب من عُصن الأندلس الرّطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 258.

² م ن، ص: 259.

³ م ن، ص: 260.

6- الحجة الرمزية: يقوم هذا النوع من الحجج على تلك العلاقة التي تجمع بين الرمز والمرموز إليه، وتحظى باتفاق داخل مجتمع حضاري واحد، مشترك في الخصوصيات الثقافية والتاريخية والعقائدية... إلخ؛ كالمجتمع الإسلامي مثلاً. ومن أقوال الموصي التي تصلح أن تكون رمزاً دينياً، قوله: «وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين»¹.
نصوغ ذلك في:



7 - حجة الشخص وأعماله: يُمكن أن تنطبق هذه الحجة على ما ذكره "ابن الخطيب" بخصوص "ابن رشد" وأعماله²، حين أقبل على دراسة الفلسفة والمنطق، فقد كانت أعماله حجة عليه وسبباً في اتّهامه بالإلحاد والزندقة، وإن كان ذلك الاتّهام باطلاً وغير صحيح، لأنّ "ابن رشد" من أعظم فلاسفة الأندلس.

8 - حجة السلطة: السلطة في الوصية تمثلت في السلطة الأبوية الصادرة من "ابن الخطيب" إلى أبنائه، وهي سلطة إرشادية وعظية، لا إلزامية قهرية، وكنا قد بيّنا ذلك بالتفصيل في معيار العلاقة بين طرفي خطاب الإيصاء.

ج- الحجج المؤسسة لبنية الواقع :

هي حجج ذات فعالية إقناعية مؤثرة، ومن أهم أنواعها التي وردت في الوصية، نجد:

1- حجة الاستشهاد: يعتمد الموصي من خلال حجة الشاهد إلى استحضار مقولات جاهزة غير قابلة للدحض أو الشكّ، تُشكّل سلطة مرجعية مؤسّسة للخطاب الإيصائي، لكونها محط إجماع عام، ومن الشواهد التي استند عليها "ابن الخطيب" في وصيته؛ الشاهد القرآني والحديث النبوي.

¹ المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، ج: 10، ص: 256.

² ينظر: م ن، ص: 255.

1-1- الشاهد القرآني: يُعدّ القرآن الكريم المصدر الأساس، والمعين الذي ينهل منه الموصي وغيره، لأنّه الكتاب المعجز الذي «بهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كلّ مَقُول، وتظافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتقارن في الحسن مطالعه ومقاطععه، وحَوَتْ كلّ البيان جوامعه وبدائعه»¹، لِمَا له من حمولة إقناعية قادرة على حَمْلِ الموصى للفعل والتنفيذ.

و"ابن الخطيب" في اقتباسه من القرآن الكريم، اعتمد على نوعين: اقتباس مباشر؛ أي اقتباس الآية كما هي من القرآن وتوظيفها في وصيته، واقتباس غير مباشر أو إشاري؛ وهو تضمين الآية أو الإشارة لبعض ألفاظها في الوصية. ولعلّ هذا التنوع في كيفية الاقتباس، إنّما يدلّ على الثقافة الدينية التي يتمتع بها "ابن الخطيب" من حفظٍ للقرآن وعلمٍ بأصول الحديث والفقه، وغيرها من العلوم الشرعية.

أ- الاقتباس المباشر: استشهد به الموصي لغاية التذكير والإرشاد، حتّى يُؤكّد على أهميّة الالتزام بالمنهج المستقيم، وكذا ضرورة المحافظة على مقاصد الشريعة الإسلامية وتطبيقها. وقد تتبّعنا هذا النوع في الوصية، فوجدنا "ابن الخطيب" مُستشهداً من القرآن الكريم بشكلٍ مباشر في (13 موضعاً)، هي كالآتي:

1/ الاستشهاد بآيات الوصايا التي جاءت على لسان الأنبياء والحكماء لأبنائهم:

- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ (البقرة/ الآية: 132).
- قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبُ﴾ (البقرة/ الآية: 133).
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان/ الآية: 13)

- قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

¹ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، مصر، دط، دت، ج: 01، ص: 04.

كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19) ﴿لُقْمَانُ / الْآيَةُ: 17 - 19﴾.

- قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة/ الآية: 132).

2/ الاستشهاد بآية الوجدانية: كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى/ الآية: 11).

3/ التأكيد على ضرورة اعتناق الدين الإسلامي، والعمل به: كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران/ الآية: 85).

4/ أهمية العلم وفضله: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر/ الآية: 09).

5/ الوفاء بالعهد: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء/ الآية: 34).

6/ تحريم قتل النفس: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء/ الآية: 93).

7/ تحريم الزنى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء/ الآية: 32).

8/ اجتناب الربا :

-قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة/ الآية: 278).

-قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (البقرة/ الآية: 279).

ب - الاقتباس الإشاري (غير المباشر): بخلاف الاقتباس المباشر، نجد الاقتباس الإشاري لا يكاد يخلو من الوصية.

تمثل له في الجدول التالي¹:

اللفظ المقتبس	السورة والآية
وَأَذْكُرْتُ بَعْدَ أُمَّتِهِ	﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (يوسف / الآية: 45)
وَلَكِنْ لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا	﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك / الآية: 02)
ثُمَّ خَتَمَ دِيوَانَهُم بَنِي	﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب / الآية: 40)
فالله واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد	﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)﴾ (الإخلاص / الآية: 1-4)
وصونوا شعائر الله صون المحترم	﴿ذَلِكَ وَمَن يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج / الآية: 32)
والناهيمة عن الفحشاء والمنكر	﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت / الآية: 45)
ووطئاً للنفس الأمارة	﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف / الآية: 53)
والحج مع الاستطاعة	﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران / الآية: 97)
وأمروا بالمعروف أمراً رفيقاً، وانهم عن المنكر نهياً حريئاً	﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران / الآية: 104)
وأطيعوا أمر من ولاه الله تعالى من أموركم	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء / الآية: 59)
ولا تقربوا من الفتنة جمراً	﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة / الآية: 191)
وعليكم بالأمانة/ أداء الأمانات إلى أهلها	﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ (النساء / الآية: 58)

¹ ينظر: المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة/ الآية: 90)	وقد جعلها رجسًا محرّمًا على العباد، وقرنها بالأنصاب والأزلام
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ (التساء/ الآية: 29)	ولا تأكلوا مال أحدٍ بغير حقٍّ حتى يبيحه
﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ (التساء/ الآية: 36)	واذكروا المساكين إذا نصبتكم الموائد/ وارعوا حقوق الجار
﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحجّ/ الآية: 30)	واحدروا شهادة الزور
﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّإِيمَانِكُمْ﴾ (البقرة/ الآية: 224)	والأيمان من حث الأوغاد والأجلاف
﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة/ الآية: 02)	وأظهروا التعاضد والتناصر
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (البقرة/ الآية: 264)	واعلموا أنّ المعروف يكدر بالامتنان

الجدول رقم 08: الاقتباس الإشاري في وصية ابن الخطيب

1-2- الحديث: اتّبع "ابن الخطيب" نفس التّهج أيضا في الاقتباس من الحديث النبوي، فبعضه جاء مباشرا، وبعضه الآخر أشار إليه في سياق كلامه.

أ- الاقتباس المباشر من الحديث: ورد هذا النوع في خمسة مواضع، هي:

1/ الدعوة إلى التمسك بكتاب الله وسنته: قوله صلى الله عليه وسلم: «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِن تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا بَعْدِي، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي»¹.

¹ مالك بن أنس، الموطأ، تح: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، ط1، 1425هـ-2004م، ج: 05، كتاب القدر، رقم الحديث: 3338، ص: 1323.

2/ ما استشهد به "ابن الخطيب" في إبراز وتبيان جزاء وفضل الحج: في قوله صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ»¹.

3/ التحذير من الظلم: مُستشهدا في ذلك بقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «وَالظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»².

4/ الدعوة إلى اجتناب النميمة: استدلل في ذلك الموصي بقوله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ»³.

5/ الدعوة إلى شكر الله على نعمه: قوله صلى الله عليه وسلم: «يَا عَائِشَةُ أَحْسِنِي جَوَارَ نِعَمِ اللَّهِ، فَإِنَّهَا فَلَمَّا زَالَتْ عَنْ قَوْمٍ فَعَادَتْ إِلَيْهِمْ»⁴.

➤ ب- الاقتباس الإشاري من الحديث: من أمثلته في الوصية:

1- «وورثتهم وورثة رسولهم».

2- والنيات في كل ذلك فلا تهملوها.

3- الخمر أم الكبائر.

4- الخمر مفتاح الجرائم والجرائر.

¹ ابن حجر العسقلاني، إطفاف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، دار الكلم الطيب، بيروت،

لبنان، دط، دت، ج: 07، كتاب الحج، رقم الحديث: 9117، ص: 171.

² م ن، ج: 02، كتاب المظالم، باب الظلم، رقم الحديث: 1600، ص: 55.

³ الإمام مسلم، صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ج: 01، كتاب الإيمان، رقم الحديث: 105، ص: 101.

⁴ الإمام ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تح: الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 1998م، مج: 03،

كتاب الأطعمة، رقم الحديث: 3416، ص: 399.

5- ومَنْ لا يَنْقُطِعُ بِسَبَبِهِ عَمَلُ أَبِيهِ»¹

❖ هي أقوال مُقتبسة -على التوالي- من الأحاديث التالية:

1- قوله صَلَّى الله عليه وسلّم: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ»².

2- قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»³.

3- قوله عليه الصلاة والسلام: «الْحُمْزُ أُمُّ الْخُبَائِثِ فَمَنْ شَرِبَهَا لَمْ تُقْبَلْ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»⁴.

4- قوله صَلَّى الله عليه وسلّم: «لَا تَشْرَبِ الْخُمْرَ؛ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ»⁵.

5- قوله صَلَّى الله عليه وسلّم: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»⁶.

2- حجة المثل: يستعمل الموصي الأمثال باعتبارها حجة ذات قدرة إبلاغية وإقناعية تُخاطب العقل والوجدان على حدّ سواء، لما تحمله من خلاصات تجارب سابقة، فتُصبح الأمثال بذلك «سلاحًا

¹ المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، ج: 10، ص: 251، ص: 253، ص: 257، ص: 260.

² الإمام الترمذي، سنن الترمذي وهو الجامع الكبير، تح: الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 2000م، مج: 03، كتاب العلم، رقم الحديث: 2682، ص: 71.

³ الإمام البخاري، صحيح البخاري وهو الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم وسننه وأيامه، تح: عبد القادر شيبه الحمد، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 2008م، ج: 01، رقم الحديث: 01، ص: 49.

⁴ أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، تح: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد الله المحسن بن إبراهيم الحسني، دار الحرمين، القاهرة، مصر، دط، 1415هـ-1995م، ج: 04، ص: 81.

⁵ الإمام ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تح: الألباني، مج: 04، كتاب الأشربة، رقم الحديث: 3434، ص: 408.

⁶ الإمام مسلم، صحيح مسلم، ج: 03، كتاب الوصية، رقم الحديث: 1631، ص: 1255.

ناجعا مُجدِّيا قادرا على إغراء المتقبّل وإثارة إعجابه وانبهاره لما يمتلكه من وضوح وما تنطوي عليه من قوّة نفسيّة مهمّة يقع المتقبّل تحت تأثيرها، فيستحيل تردّده حزما وعزما وشكّه ثقة وإيمانا، لأنّ في طبع المرء نزوعا إلى التعميم لا يخفى، ورغبة في جعل الاقتناعات الذاتية مبادئ كونية والأحكام المسبقة أفكارا يُشرّعها العقل وتعضدها الأخلاق والقيم»¹. حتّى قيل إنّ الكلام لو جُعِل مثالا «كان أوضح للمنطق، وآنف للسمع، وأوسع لشعوب الحديث»².

وفي وصيّة "ابن الخطيب" لم يردّ المثل إلّا في موضع واحد، هو «بيدي لا بيد عمرو»³؛ وهو مثلٌ قالته "الزباء" التي اعتلت عرش (تدمر) بسوريا، خلفا لوالدها الذي قتله "جذيمة الأبرش" ملك (الحيرة) بالعراق. وبعدَ اعتلاء العرش أرسلت "الزباء" إلى "جذيمة" لتعرض عليه الزواج، فوافق على ذلك بعد استشارته جميع مستشاريه، إلّا أحد مستشاريه، وهو "قصير بن سعد" رَفَضَ قرار الزواج (...). ولما وصل "جذيمة" عند "الزباء" قتلتها، وبلغ الخبر حينها ابن أخته "عمرو بن عدي" الذي كان قد تولّى مهام الحكم بعده، فقرّر الانتقام لخاله مع المستشار "قصير بن سعد"، حيث ذهب هذا الأخير إلى "الزباء" وكسب ثقتها، وذات يوم طلب منها الخروج للتجارة، فجاءها بقافلة كبيرة إلى ساحة قصر تدمر مُحَمَّلة برجال "عمرو بن عدي"، ولما رأت "الزباء" ذلك عرفت أنّ في الأمر مكيّدة، وخرجت مُسرعة بالهرب، لكنّها وجدت "عمرا" ينتظرها، فقالت حينها هذا المثل، ثمّ قتلت نفسها بسُمّ كان في خاتم يدها.⁴

أي: إنّ هذا المثل أصبح يُطلق على الشخص الذي يُفسد ما يملكه بيده بدلا من أن يُفسده العدو، واستشهاد "ابن الخطيب" بهذا المثل في وصيّته ماهو إلّا رسالة لأبنائه ذات شفرة استدلالية وبنية

¹ عبد الله البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً -مقاربة أسلوبية حجاجية-، ص: 226.

² الميداني، مجمع الأمثال، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، دت، ج: 01، ص: 01.

³ المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 249.

⁴ ينظر: م س، ص: 233.

عميقة، مفادها؛ ضرورة الاتعاظ والحزم في اتخاذ الأمور، وعدم الثقة في أي إنسان، حتى لا يحدث لهم مثل قصة "الزباء"، ولا ينفعهم حينئذ الندم.

3- حجة النموذج: تتمثل في الكائن القدوة الذي وجب الاقتداء به، ومن صورها في الوصية:

- ابن الخطيب: فالموصي في وصيته يُصوّر نفسه لأبنائه كقدوة ونموذج يتعين أتباعه والسير على خطاه.

- الرسل والأنبياء: إنّ كثرة الاستشهاد بوصايا الأنبياء، إنّما هو توجيه ونصح من الأب لأبنائه بضرورة الاقتداء بهم، وخاصة سيّدنا "محمد" عليه الصلاة والسلام، باعتباره القدوة الأعظم والنموذج الأمثل لكل إنسان.

- الإنسان الفطن: تتمثل في قول الموصي: «واغبطوا من كان من سنة الغفلة مُفيعاً»¹، حيث يتميّ "ابن الخطيب" من أبنائه أن يكونوا ممن لا يأخذهم نوم الغفلة، لذلك يدعو إلى ملازمة الإنسان الذي يتّصف بهكذا صفات وسمات، لأنّه في نظره نموذج يُحتذى به.

د- فصل المفاهيم:

تقوم هذه الحجة على أساس الفصل بين المفاهيم داخل التعريف الواحد، وهو ما يُؤدّي إلى تخصيص المفهوم بما يُميّزه دون غيره. ومن الأمثلة نعرض:

- وحدانية الله: في قول الموصي: «فالله واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد، تنزه عن الزمان والمكان، وسبق وجوده وجود الأكوان، خالق الخلق وما يعملون، الذي لا يُسأل عن شيء وهم يُسألون، الحيّ العليم المدبّر القدير»² ← الفصل بين المطلق والنسبي.

¹ المقرئ، نفع الطيب من غُصن الأندلس الرطب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 256.

² م ن، ص: 250.

يتضح من القول تلك الصفات الدالة على وحدانية الله عز وجل، والكمال المطلق اللامحدود لعظمته وقدرته التي لا يقدر عليها أحد، فهو الخالق والحيّ العليم المدبّر لكل شيء. فيُصبح بذلك هذا المفهوم مُتعالٍ عن المفاهيم النسبية الأخرى.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: تمثّل في قول "ابن الخطيب": «وأمرُوا بالمعروف أمرًا رفيقًا، وأنْهوا عن المنكر نهْيًا حرّيًا»¹ ← الفصلُ بين اللين والشدّة.

يكمن الفصل من خلال هذا القول بين مفهومي (اللين / الشدّة)، ففي الملفوظين (أمرًا رفيقًا / نهْيًا حرّيًا، أي؛ دون إجبار) بيّانٌ لحال الأمر والنهي، وتحديدٌ للكيفية التي وجب الاتّصاف بها في معاملة الآخرين، ألا وهي اللطف واللين.

4-5- المقاربة الحجاجية اللسانية:

أ- الحجج اللغوية: تضمنت الوصية مجموعة حُجج لغوية عبر معظم مقاطعها، تمّ سوقها لخدمة نتائج متعدّدة، بعضها كان صريحًا ظاهرًا، وبعضها الآخر مضمّرًا ضمنيًا. نعرض في هذا المقام - على سبيل التمثيل - نماذج لذلك:²

♦ الدعوة إلى التمسك بكتاب الله: شمل عدّة حُجج من قبيل:

- حفظه وتلاوته.
- حمّله على حمل التكليف.
- التفكّر في آياته ومعانيه.
- الامتثال لأوامره ونواهيه.
- عدم الغلوّ فيه.

¹ المقرّي، نفع الطيّب من عُصْن الأندلس الرّطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 256.

² ينظر: م ن، ص: 252.

♦ الدعوة إلى الحفاظ على الدين: حُجَّجه تمثّلت في:

- التمسك بكتاب الله.

- الاقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام.

- صَوْن شعائر الله.

- حفظ القواعد التي ينبنى عليها الإسلام.

ب - الروابط الحجاجية: إنّ الروابط الحجاجية لا تخلو من أيّ خطاب، كونها تعمل على الربط بين الملفوظات والحُجج اللغوية ضمن استراتيجيات حجاجية مُعيّنة.

نماذج ذلك في الوصية:

- ق1: «اللّٰهُ اللّٰهُ في الصَّلَاة ذريعة التجلّة، وخاصّة المِلّة، وحاقنة الدّم، وغنى المستأجر المستخدم، وأُمّ العبادة، وحافضة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة، والناحية عن الفحشاء والمنكر (...)، وضامنة حُسن العشرة من الجار، وداعية لِلْمُسَالمة من الفُجّار، والواسمة بسمة السلامة، والشاهدة للعبد برفع الملامة»¹.

نلاحظ من خلال القول، ذلك التوجيه الحجاجي الذي أسهم فيه الرابط الحجاجي (حرف العطف: الواو)، حين ساق مجموعة حُجج في مسارٍ حجاجيٍّ واحد، خدَم نتيجة واحدة، هي من قبيل: (ن = أقيموا الصلاة).

وإذا طرَحنا سؤالاً ضمّنيا (لماذا نلتزم بالصلاة؟)، يأتي الجواب بِحُجج دالّة على فضلّها وأهمّيّتها، هي :

ح1: ذريعة التجلّة.

ح2: خاصّة المِلّة.

ح3: حاقنة الدّم.

ح4: أُمّ العبادة.

ح5: الناحية عن الفحشاء والمنكر.

¹ م س، ص: 252.

ح6: ضامنة حُسن العشرة.

ح7: الداعية للمسالمة من الفُجَّار.

ح8: الواسمة بسمة السلامة.

ح9: الشاهدة للعبد برفع الملامة.

ن = إذن؛ أقيموا الصلاة.

-ق2: «والخمر أمّ الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر (...)، وقد تركها في الجاهلية أقوام لم يرضوا لعقولهم بالفساد، ولا لنفوسهم بالمضرة في مرضاة الأجساد، واللّٰه تعالى قد جعلها رجسًا مُحَرَّمًا على العباد».¹

نلاحظ تتابع حُجج متتالية، تدعو إلى اجتناب الخمر، وما أسهم في ترابطها وتساندها، هو الرابط الحجاجي (حرف العطف: الواو)، أمّا النتيجة الممكنة استنتاجها من القول، فنقدّها ب: (ن = اجتنبوا الخمر). لأنّها :

ح1: أمّ الكبائر.

ح2: مفتاح الجرائم والجرائر.

ح3: مفسدة للعقول.

ح4: مضرة للأجسام.

ح5: رجسٌ مُحَرَّم على العباد.

-ق3: «واجنحوا إلى الخوف من الله فطوبى لعبدٍ إليه جانح، وتضرّعوا إلى الله تعالى بالدعاء، والجنّوا إليه في البأساء والضراء، وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر».²

¹ المقرّي، نفح الطيّب من غُصن الأندلس الرّطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 257.

² م ن، ص: 258 - 259.

بيّن الرابط الحجاجي (الواو) المقصد الحجاجي العام من القول، ألا وهو ضرورة اللجوء إلى الله والتوكل عليه في كل شيء، لأنه الأمان والملجأ الوحيد للإنسان.

وعليه، يمكن حصر الحجج من القول السابق، في :

ح1: ضرورة اللجوء إلى الله والخوف منه.

ح2: التضرع إلى الله بالدعاء.

ح3: اللجوء إلى الله في البأساء والضراء.

ح4: شكر الله على نعمه.

ن = الله هو الملجأ الوحيد للإنسان.

ج- العلاقات الحجاجية: نجدها في الوصية متنوعة، من قبيل:

1- العلاقة الحجاجية الشرطية: هي من أكثر العلاقات حضورا في الوصية -وقفنا على الأبعاد التداولية لأسلوب الشرط سابقا- بيد أننا سنقتصر في هذا المقام على عرض نموذج واحد، تمثل في توجيه جملة نصائح -هي بمثابة حجاج- من الأب لأبنائه، بخصوص الدنيا، حيث يقول "ابن الخطيب" في هذا الصدد: «وَمَنْ بُلِيَ بِهَا مِنْكُمْ، فَلْيَسْتَظْهِرْ بِسِعةِ الاحتمال، والتقلل من المال، وليحذر مُعاداة الرجال، ومَزَلَّاتِ الإدلال، وفساد الخيال، ومُداخلة العيال، وإفشاء السرّ، وسُكْر الاغترار، فإنّه دأب الغرّ، وليصُن الدّيانة، ويؤثّر الصمت، ويُلَازِم الأمانة، ويسِرّ من رضا الله على أَوْضَح الطُّرُق»¹.

يمكن صياغة العلاقة الشرطية، على نحو:

- إذا بليتّم بالدنيا، فعليكم بـ:

ح1: سِعة الاحتمال.

ح2: التقلل من المال.

ح3: الحذر من معاداة الرجال.

¹ م س، ص: 259 - 260.

ح4: الحذر من مزلات الإدلال.

ح5: الحذر من فساد الخيال ومداخلة العيال.

ح6: الحذر من إفشاء السرّ، وسُكر الاغترار.

ح7: صيانة الديانة.

ح8: إثارة الصمت.

ح9: ملازمة الأمانة.

ح10: السّير في طريق الله.

2- العلاقات الحجاجية التعليلية: نُحَصّ بالذكر التعليل الذي أخذ منحىً وُعدًا حجاجيًا تأثيريًا، ونقصِدُها هنا؛ التعليل بذكر العواقب الذي برز بشكلٍ جليّ في الوصية، لما له من قوّة حجاجية على ذهن الموصى إليهم (أبناء "ابن الخطيب")، تدفعهم إلى ترك ذلك الفعل أو السلوك واجتنابه. مُثّل لذلك بالأقوال التالية¹:

- إياكم والكذب ————— ← لأنّه عورةٌ وسوءة.
- إياكم والخمر ————— ← لأنّها أمّ الكبائر، ومفتاح الجرائم، ومضرةٌ للأجساد، ومفسدةٌ للعقول.
- لا تقربوا الرّبا ————— ← لأنّها من مناهي الدين.
- احذروا شهادة الزور ————— ← لأنّها تقطع الظهر، وتُفسد السرّ والظهر.
- احذروا الرّشا ————— ← لأنّها تحطُّ الأقدار، وتستدعي المذلة والهوان.
- احذروا طلب الولايات ————— ← لأنّها فتنة ومحنة.

¹ ينظر: المقرّي، نفح الطيّب من غُصن الأندلس الرّطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد

بناءً على هذه التعليقات، يمكن القول إنّ هذه العلاقة التعليلية محكومة بسؤال ضمني، تقديره: (لماذا نتجّب؟ أو: لماذا نحذر؟)، فيأتي الجواب؛ بتعليلٍ مؤكّد يُبيّن ويُبرز العواقب الناجمة عن فعل المنكرات والمعاصي.

د- العوامل الحجاجية: هي من القرائن الحجاجية التي يُوظّفها الموصي في وصاياه، قصّد حصر الإمكانيات الحجاجية لقول ما، فيوجّه بذلك الموصي إلى التركيز على تلك الأقوال دون غيرها، ويدرك قيمتها الحجاجية، فيتبنّاها أو يتركها.

من بين العوامل الحجاجية التي وقفنا عليها في الوصية، نذكر :

1- العلوم القديمة بين الضارّ والنافع: إنّ "ابن الخطيب" في سياق تحذيره من العلوم القديمة استعمل عاملين حجاجيين، هما :

أ- العامل الحجاجي (إلّا): تكرر في موضعين -ارتبطاً بالعلوم القديمة-، هما:

- الموضع الأول: بيّن العامل الحجاجي (إلّا) في هذا الموضع مساوئ هذه العلوم، حين قال "ابن الخطيب": «فأكثرها لا يُفيد إلّا تشكيكا، ورأيًا ركيكا، ولا يُثمر في العاجلة إلّا اقتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار، وسمّة الصغار، وحمول الأقدار، والخسف بعد الإبدار».¹ وعليه، يُمكن اعتبار هذه الصفات والمساوئ بمثابة الحجج التي تقود إلى نتيجة مفادها (ن = اجتنبوا العلوم القديمة).

لأنّها:

ح1: تُفيد التشكيك والرأي الضعيف.

ح2: تُؤدّي إلى اقتحام العيون.

ح3: تزرع الظنون.

ح4: تُثبت الاحتقار.

ح5: علامة المذلة والهوان.

¹ م س، ص: 255.

ح6: تُؤدّي إلى حُمول الأقدار.

ح7: تُؤدّي إلى الخسف (الظلام) بعد الإبدار (الضوء).

- الموضوع الثاني: أدّى العامل الحجاجي (إلّا) في هذا الموضوع، إلى حصر بيان النافع من العلوم القديمة، ومن ذلك قول "ابن الخطيب": «... إلّا ما كان من حساب ومساحة، وما يعود بجدوى فلاحه، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة»¹.

فنحصل إذن؛ على النتيجة والحُجج التالية:

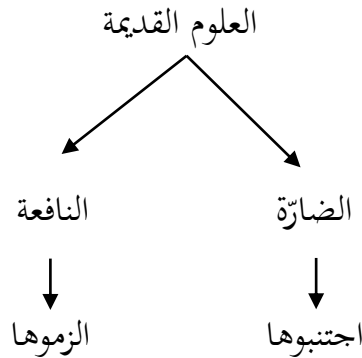
ح1: علوم الحساب والمساحة.

ح2: علوم الفلاحة.

ح3: علوم العلاج والطب.

ن = خذوا بهذه العلوم.

إذن؛ بعدَ عرض العامل الحجاجي (إلّا) -الخاصّ بالعلوم القديمة- وموضعيّه في الوصية، نستطيع صياغته وفق النحو التالي :



ب- العامل الحجاجي (سوى): بَعْدَ أن استدرك "ابن الخطيب" بعض العلوم النافعة من العلوم القديمة -وأحصاها-، يعود مرّة أخرى ليؤكد على مخاطر هذه العلوم القديمة ويُعمّم حكمه، بقوله: «وما

¹ المقرئ، نفح الطيب من عُصْن الأندلس الرّطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

سوى ذلك فمحجور، وضرم مسجور، وممقوت مهجور»¹، وهو استدراك مفاده التأكيد على خطورة تلك العلوم.

فكأنّ الموصي -من خلال هذه السلسلة الخطائية المتمثلة في إصدار حُكم عام يذمّ فيه العلوم القديمة وينبذها، ثمّ يستدرك ما هو نافع منها، ثمّ مرّة أخرى يُصدر حُكمه من جديد- في حالة حوار داخلي مع نفسه، ومع الموصى إليه، يتساءل ويُجيب -مُتوقّعا ردّة فعل أولاده- بخصوص هذه العلوم. ونُقَدِّر ذلك الحوار فيما يلي:

- الموصي: إيّاكم والعلوم القديمة.

- الموصى: لماذا؟

- الموصي: لأنّها تُفيد التشكيك وزرع الظنون... إلخ.

- الموصى: هل كلّها؟

- الموصي: إلّا النّافع منها.

- الموصى: ما هو هذا النّافع؟

- الموصي: ما كان من حساب ومساحة، وفلاحة، وعلاج.

- الموصى: فقط؟

في هذه الحالة تتوقف عملية المساءلة والتفكير لدى "ابن الخطيب" ليُفكّر في علوم أخرى قد تكون نافعة، حتّى يُدرجها مع العلوم المذكورة آنفا، لأنّ العملية هاهنا عملية ذهنية تساؤلية تسعى للبحث عن نتيجة نهائية، لإصدار حُكم عام مُطلق -يؤمّن به الموصي فقط-، وهو ما توصّل إليه "ابن الخطيب" وأكّد عليه باستعمال العامل الحجاجي (سوى) الذي أفاد الاستثناء، ثمّ أعقبه بِحُكم عام.

ليُردّ الجواب المكمّل للحوار الداخلي الذي قدّرناه، بـ:

- الموصي: نعم، وما سوى ذلك فمحجور، وضرم مسجور، وممقوت مهجور.

¹ م س، ص: 256.

وفقاً لهذا الحوار، نخلص إلى استنتاج مسار حجاجي، من قبيل:

نفْي وتَحْذِير ← ثَمَّ حَصْرٌ وتَخْصِص ← ثَمَّ إِبْطَات للنفي

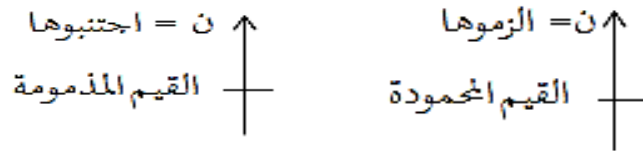
2- وحدانية الله: من العوامل الحجاجية الدالة على ذلك، قول "ابن الخطيب": «وعوّلوا عليه وحده في الشدائد».¹

لو تأملنا القول لوجدناه خالياً من أيّ عامل حجاجي ظاهر بشكل صريح، لكن استعمال الموصي للملفوظ (وحده) -الذي يتماشى مع سياق القول؛ كونه مشتق من الواحد الأحد، دلالة على وحدانية الله، إذ لا يمكن التعويل أو اللجوء إلى أحدٍ غير الله- يُحيلنا إلى استنتاج عامل حجاجي ضمني، هو من قبيل:

- لا مُعِينٌ إِلَّا الله.

أو: - لا تُعَوَّلُوا على أحدٍ غير الله.

هـ- السّلام الحجاجية: إنّ المسار الحجاجي الذي ضَبَطَ آلية السّلم الحجاجي في الوصية، سار وفق منوال تقابلي متعارض، قوامه (القيم المحمودة ← الزموها) و(القيم المذمومة ← اجتنبوها)، حيث أطرت هذه الثنائية السياق العام لخطاب الوصية. ويمكن أن نمثّل لذلك بـ:



ونعرض في هذا المقام بعض النماذج، نحو:

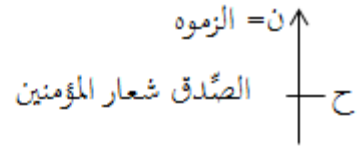
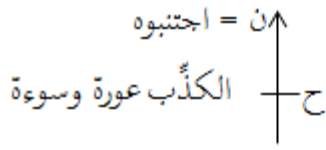
- ق1: «وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين (...)، وإياكم والكذب فهو العورة التي لا تُؤارى، والسوءة التي لا يُرتاب في عارها».²

¹ المقرئ، نفح الطيب من عُصْن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 258.

² م ن، ص: 256.

نصوغ القول في سُلمين حاجيين متعارضين :



أما العلاقات الحاجية التي يُمكن استنتاجها من السُّلمين الحاجيين، فهي :

الصّدق شعار المؤمنين، إذن؛ الزموا ← علاقة حاجية استنتاجية.

- الزموا الصّدق، لأنّه شعار المؤمنين ← علاقة حاجية تعليلية تبريرية.

- الكذب عورة وسوءة، إذن؛ اجتنبوا ← علاقة حاجية استنتاجية.

- اجتنبوا الكذب، لأنّه عورة وسوءة ← علاقة حاجية تعليلية تبريرية.

- ق2: «هذه عُمد الإسلام وفروضة (...)، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى مَنْ يُناويكم

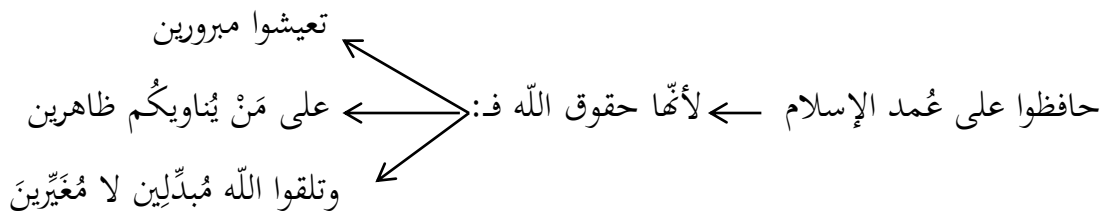
ظاهرين، وتلقوا الله مُبدّلين ولا مُعَيَّرِينَ، ولا تُضَيِّعُوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين»¹.

يُمكن اعتبار هذا القول بمثابة نتيجة إجمالية (هذه عُمد الإسلام)، لِمَا أوصى به "ابن

الخطيب" أولاده فيما يتعلق بأركان الإسلام؛ بضرورة المحافظة عليها، لأنّها الأساس الذي ينبنى عليه

الإسلام، ويعيش المرء بها سعيدًا ومبرورًا، ويكون جزاؤه الفردوس الأعلى عند ملاقاته ربّه.

بناءً على ما سلف، نصوغ القول في علاقات حاجية من قبيل:



أما مَنْ يُضَيِّع هذه الحقوق ولا يحافظ عليها، فمصيّرُه؛ الهلاك مع الخاسرين.

¹ م س، ص: 254.

تمثل للعلاقتين الحجاجيتين السابقتين، في سُلَمين حجاجيين مُتعاكسين:



و- **المواضع الحجاجية:** تُعدّ المواضع الحجاجية بمثابة مسلمات ثابتة تُقوّي خطاب الإيضاء، لما لها من تأثيرات تدفع الموصي إلى إعمال عقله، بالتدبر والتفكير فيما يُعرض عليه من أقوال، ليصل إلى استنتاج مجموعة نتائج. وهذا ما تجلّى في وصية "ابن الخطيب" التي مرّرت مبادئ عامّة أسهمت في إذعان أولاده واستمالتهم. ومن أمثلتها في الوصية :

- ق 1: «وتتوهموا أنّ سعيكم جلبها، وجِدْكم حَلْبها، فالله خير الرازقين»¹.

يُوصي "ابن الخطيب" أبناءه من خلال هذا القول، بأن لا يتوهموا أنّ سعيهم في هذه الدّنيا هو سبب هذه النّعم التي ينعمون بها، وإلّا ذلك السعي مجرّد سبب من الأسباب في حصول ذلك، لأنّ الأرزاق والنّعم من عند الله.

وعليه، نستنتج موضعاً حجاجياً (صيغته: كل) من قبيل:

- كلّ النّعم هي رزق من عند الله .

- ق 2: ما جاء في بيان أهميّة الوصية ومنافعها، حين قال "ابن الخطيب": «وبقدر ما أمضيت من فروعها واستغشيت من دروعها، اقتنيت من المناقب الفاخرة، وحصلت على سعادة الدّنيا والآخرة، وبقدر ما أضعت لآلها النفيسة القيم استكثرت بواعث الندم»².

يُصوّر الموصي من خلال قوله، تلك الحالة التي سيؤول إليها المتمسك بالوصية، والمقرّط فيها، وكأنّ به يستدرج أولاده لتحديد اختيارهم؛ إمّا القبول والعمل بوصاياه، أو التّرك والتّجاهل. ولكلّ

¹ المقرّي، نفخ الطيب من عُصن الأندلس الرّطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 259.

² م ن، ص: 260.

خيارٍ من الخيارَيْن نتائج، نصوغها في الموضعَيْن الحجاجيَيْن (صيغَتُهُما التعبيرية: بقدر ... كان...) التالين :

- بقدر ما كان تمسّكم بالوصية كبيراً، كانت منافعكم كثيرة ← (+ أكثر، + أكثر).

- بقدر ما كان تمسّكم بالوصية ضئيلاً، كان ندمكم كبيراً ← (- أكثر، + أقل).

أما الموضع المتفق عليه، والذي يُمكن استنتاجه بصفة عامّة، هو:

- بقدر ما كان الإنسان عاملاً بالنافع من الأمور، كانت منفعه كثيرة، وبقدر ما كان عاملاً بالضارّ من الأشياء، كانت مضارّه كبيرة.

كما يتولد لنا عن الموضعَيْن السابقَيْن، سُلَمَيْنِ حجاجيَيْن مُتقَابِلَيْن، هما:

↑ ن = الخسران والندم
ح + التفريط بالوصية

↑ ن = الفوز والسعادة
ح + التمسك بالوصية

خامسا - المقاربة البلاغية:

5-1- بلاغة الصيغ :

عمد "ابن الخطيب" في وصيته إلى التنوع بين مجموعة من الصيغ، لما لها من قيمة تأثيرية وقوة إقناعية تُحقق المقاصد وتوضح المعاني، وتُدرج المتلقي ضمن شبكة علائقية تُضفي على التعبير جمالية.

ومن أهم الصيغ الواردة في الوصية، نذكر¹:

أ- صيغ المبالغة: يكمن دورها في لفت انتباه الموصى، فقولك مثلاً (كذاب) ليس كقولك (كاذب)، إذ صيغة المبالغة أبلغ تصويراً وتأثيراً على ذهن الموصى، فتدفعه أيما اندفاع لتجنب السلوك إذا كان مذموماً، أو تحببها إذا كان مرغوباً. نحو:

- فعيل: (رهين، رحيل، عظيم، العليم، ذليل، قليل، كثير، قويم، بهيم، وييل، سبيل، بخيل، حقير، قبيح، لطيف...).

- مفعال: (مرصاد...).

- فعول: (فخور، حسود...).

- فعّال: (صباح، رباح، كذاب، قتات...).

- فعّل: (قلّق...).

ب- اسم التفضيل: استعمله "ابن الخطيب" في الوصية للمفاضلة بين القيم المحمودة والقيم المذمومة. نحو: (أحرص، أحسن، أشرف، أصدق، أضيع، أقدر، أعرق، أوفق، أكرم، أكثر، أعظم، أوضح... إلخ).

¹ ينظر: المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد

ج- اسم الفاعل: يُعَدُّ من الصيغ التي حاجج بها "ابن الخطيب" في وصيته للدلالة على التجارب التي خاضها، أو سرد وقائع حقيقية، بُغية نقلها إلى أولاده، لتكون عبرة لهم يقتدون بها. نحو: (خابط، نازع، حازم، واعٍ، ظالم، جانح، شارد، وارد...).

د- اسم المفعول: هو من الأوصاف الحجاجية التي تبناها الموصي، نحو: (المسلوب، المرغوب، المغلوب، المعتوب، محجور، ممقوت، مسجور، مجبول، مسدود، مهجور...).

هـ- صيغ منتهى الجموع: دلت في الوصية على معنيين، أولهما؛ الدلالة على كثرة المنافع إذا تمّ التمسك بما هو نافع وخلقى، أما ثانيهما؛ الدلالة على كثرة المساوئ والذنوب، إذا تمّ الإخلال بالعبادات والأخلاق الفاضلة.

من أوزانها في الوصية:

- مفاعل: (معاطب، مناقب...).

- فعائل: (شعائر، جرائم، جرائم، شدائد...).

- فواعل: (قواعد، نواجد، شواغل، نوافل...).

- مفاعيل: (مساكين...).

5-2- بلاغة الوصف:

لا يأتي الوصف في الوصايا من أجل الزينة والتنميق فحسب، بل إنّ الموصي يستحضره في وصاياه لتعميق الدلالة التأثيرية للموصى، فيصِف له العواقب؛ سواء أكانت محمودة أو مذمومة، ويُصوِّرُها له بشكل يُثير انفعالاته وأحاسيسه. ووفقاً لهذه الموصوفات يذهب الموصى إلى اتخاذ موقف مُحدّد يُغلب من خلاله المرغوب فيه عن المرغوب عنه أو العكس.

وهذا ما تجسّد في وصية "ابن الخطيب"، ومن أمثلة ذلك: (الفراق المعتوب، الأمل المسلوب، العرض الزائل، العلم النافع، النفوس الشريفة، المطالب المنيفة، العلم العظيم، السخطة الشنيعة، ممقوت

مهجور، رأيًا ركيكًا، سنًا قويًا، عذابًا وبيلاً، الآمال العجاف، الحظوظ السخيفة، اللدن اللطيف، المناقب الفاخرة، لآلئها النفيسة...¹.

5-3- بلاغة الدعاء:

مبحث من المباحث البلاغية التي لا تزال العناية بها ضئيلة -إن على مستوى التنظير أو التطبيق- ولما كان الدعاء حاضرًا في خطاب الوصية، وإن بشكلٍ مضمّر، ارتأينا تتبّع مفاصله، وتبيان قيمته البلاغية، كيف لا؟ وهو ذلك الخطاب - أي؛ الدعاء- الذي يُشبه «النصّ الشامل، ويُشكّل في كُليّته إفرازًا بلاغيًا نوعيًا، ويستقل بذاته عالمًا جمليًا له كينونته وله هويّته الخاصّة، هذه الهوية تُنظّمها جملة من السمات يتعانق فيها ما هو تركيبي تأليفي، بما هو بياني لغوي، بما هو وظيفي إقناعي»². وحاصل هذه القيمة الإبلاغية ومؤدّاها هو كَوْن الدعاء يغترف من مَعِينَيْن جوهريين هما؛ القرآن والسنة.

ولعلّ الوصايا من بين أكثر الخطابات التي تستحضر الدعاء في مضامينها، وهذا ما لحظناه من خلال وصية "ابن الخطيب" - كنموذج لدراستنا - ، حيث نجد "لسان الدين" في مواضع عديدة حريصًا على الدعاء لأبنائه بالصالح والهداية. ومن أمثلة ذلك قوله:

- «أن يمين على منهم بحسن الخلف، والتلافي من قبل التلف، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف .

- اللهم قد بلغت فأنت خير الشاهدين .

- جعلكم الله ممّا نفعه بالتبصير والتنبيه، وممّن لا ينقطع بسبب عمل أبيه.

¹ ينظر: المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج: 10، ص: 247-260.

² عبد الفضيل أدرائي، بلاغة الدعاء -دراسة في بعض سمات الدعاء الإسلامي-، ضمن كتاب: البلاغة وأنواع الخطاب، إش: محمد مشبال، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2017م، ص: 156.

- كان الله خليفتي عليكم في كلّ حال»¹.

5-4- بلاغة السرد:

لعلّ أوّل ما يتبادر إلى الأذهان عند قراءة هذا العنوان أو سماعه، هو السؤال التالي: هل للسرد بلاغة؟ فيكون الجواب حينها؛ بالإثبات لا النفي، بيد أنّ بلاغة هذا السرد تختلف من حقل معرفي لآخر. وإنّا في هذا المقام نعرض لبلاغة السرد في الخطاب الإيصائي على وجه الخصوص، ونحاول الكشف عن تمثّلاتها ومكوناتها.

إنّ السرد في الوصايا تنحصر دائرته - في الغالب - بين نوعين، هما²:

- السرد الارتدادي (Récit Rétrospectif): هو في الوصايا النوع الأكثر تواتراً والأوسع حضوراً، قوامه استحضار وقائع ماضية أو أحداث شبيهة بالواقع يُرجّح أنّها وقعت في زمن سابق لزمن الوصية، أو استحضار الموصي تجاربه في الحياة أو تجارب السابقين، فيسردها في مقام حجاجي، قصد التأثير في الموصى، فتكون تلك الوقائع والتجارب بمثابة عبرات وعظات يُقتدى بها.
- السرد الاستباقي (Récit Prospectif): قوامه سرد أحداث غير متحقّقة، تقع في الزمن المستقبل على سبيل التنبؤ أو الإمكان.

وعليه، يُصبح الزمن السردّي هو المتحرّك في الوصية، والحاضن لها، فتتحول وظيفته من مجرد سرد إخباري إلى سرد إبلاغيّ تأثيري، عن طريق:

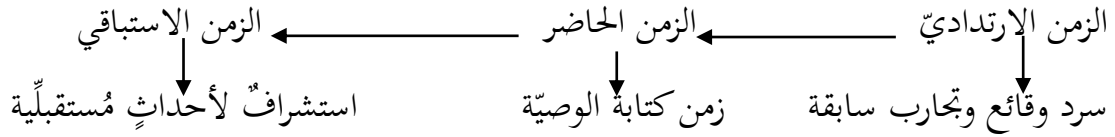
- زمن ماضي ارتدادي: يُمثّل مجموع الوقائع والتجارب السابقة، التي يستحضرها الموصي كحجّة جاهزة تحمل الأذهان والنفوس على الإذعان.
- زمن استباقي استشرافي: يستشرف المستقبل، ويُحدّد الموصي بناءً عليه توجيهاته وإرشاداته، ذلك أنّ الوصايا تُخاطب المستقبل أكثر ممّا تُخاطب الحاضر.

¹ المقرّي، نفخ الطيب من عُصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 248، ص: 251، ص: 260.

² ينظر: عبد الله البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً - مقارنة أسلوبية حجاجية-، ص: 302، ص: 306.

فيتشكّل حينئذ؛ المسار الزمني السردى في الوصايا، وتُمثّل له بـ:



وإذا ما عُدنا إلى وصية "ابن الخطيب" فإنّ السرد فيها، وإن لم يكن بارزاً بشكل واضح، إلا أنّه استطاع إثارة انفعالات الموصى ووجدانه.

أ- السرد الزمني الارتدادى في الوصية: من نماذجه:

1- «واعلموا أنّي قطعت في البحث زماني، وجعلت الناظر شاني، منذ براني الله تعالى وأنشاني، مع نُبلٍ يعترف به الشاني، وإدراك يُسلّمه العقل الإنساني، فلم أجد خابط ورق، ولا مُصيب عرق، ولا نازع خطام، ولا متكلّف فطام، ولا مقتحم بحر طام، إلاّ وغايته التي يقصدها قد نضلتها الشريعة وسبقته»¹.

إنّ "ابن الخطيب" من خلال هذا القول، لا يسرد تجربته الحياتية التي عاشها فحسب، وإنما يهدف إلى إيصال فكرة لأولاده، مفادها أنّ كلّ العلوم والمعارف موجودة في الشريعة الإسلامية وعلومها، لذا عليهم التزام الشريعة، كونها ضمانة الفلاح وأساس كلّ شيء. فتُصبح عندها تجربة "لسان الدين" وخبراته، بمثابة الحجّة -على صّحة قوله بأنّ كلّ العلوم تنهل من الشريعة- غير القابلة للتشكيك أو الطعن.

2- استحضار "ابن الخطيب" بعض الوقائع التاريخية؛ كقصّة "ابن رشد" مع العلوم القديمة، وقصّة "الزباء"، وهي وقائع وإن لم يُفصّل فيها الموصي، إلاّ أنّها أسهمت في توجيه أولاده لأخذ الحيلة والحذر.

ب- السرد الزمني الاستباقي في الوصية: من الصّور الزمنية الاستباقية التي سيطرت على الوصية، وتفكير "ابن الخطيب"، نجد صورة الموت، الذي نهض بوظيفة تأثيرية أزهت النفوس، وكشّفت حقيقة

¹ المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

الدنيا الفانية . ومن الألفاظ الدالة على ذلك: (الحمام المرقوب، برزخ أموات، الأجل المكتوب، الفراق المعتوب، علائي المشيب، رهين فوات، القبور فاعرة، محتضر، مُنادى الرحيل يُسمع، أدوات السفر تجمع، أيّ مُودّعكم...) ¹. فكأنّ هذه الصورة الجنائزية التي رسمها الموصي في وصيته تدعو إلى الاعتبار والانقياد، بضرورة عدم الاغترار بمفاتيح الدنيا وملذاتها، لأنّها منار ارتحال، ولا حياة للمرء إلّا في الآخرة دار البقاء.

5-5- بلاغة العاطفة :

مما لا شكّ فيه أنّ وصايا الآباء لأبنائهم تكون مليئةً بالعاطفة الصادقة النابعة عن «اهتمام نفسيّ خاصّ وصادق لأجل تصحيح وضع، أو تطلّعٍ لجديدٍ أفضل يُهمّ مستقبل الموصي، ولعل علاقة التلقي في هذا النوع من المقام تكون قائمة على عواطف مشتركة بين المرسل والمرسل إليه، تقوم على الحبّ باعتباره واسطة الرحمة والعناية في هذا العالم الإنساني، ويُمثّل الأبّ أو الأمّ تصويرًا لهذا الإحساس، ولا تحتاج فيه عملية الإقناع إلى مُكوّنات لُغوية أو أسانيد نصّية؛ فالتأثير كلّهُ يُستمدّ من الهوى المتولّد عن هذه العلاقة التي تتركز على رضا الموصي على الموصي» ²، دون أيّ تكلف.

ومن العواطف - ذات الأبعاد التأثيرية - التي أثارها "ابن الخطيب" في أبنائه، نذكر:

1- الشفقة: صوّر "ابن الخطيب" حاله، كحال المحتضر الذي تملّكته لحظة الموت ودلالات الفناء، التي لا مفرّ منها، نحو: (أيّ مُودّعكم، مفارقكم، يفتش التراب جنبي، وغيرها) ³، وهو ما يُثير في نفوس أولاده، شعور الإحساس بالفقدان، ويدفعهم إلى التسليم والإذعان لكلّ وصايا بطريقتة لا شعورية. فتحوّل تلك الشفقة من حالة وجدانية عاطفية، إلى إقناعات عقلية ووسائل وعظية إرشادية يُعمل بها.

¹ ينظر: م س، ص: 247 - 250، ص: 260.

² خالد عبد العزيز التحكاني، بلاغة الوصية مقارنة بلاغية حجاجية، ص: 205.

³ ينظر: م س، ص: 248 - 249.

2- الصّدق: إنّ النّصح والإرشاد الذي يُوجّهه "ابن الخطيب" في وصيّته، لا يعتره أيّ رياء أو بُهتان، بل يكتنفه الصّدق الخالص، والعاطفة الأبوية التي غدّت خطابه الوعظي، من بدايته إلى نهايته، كقوله: «لن تجدوا (...) أحرص منّي على سعادة إليكم مُجَلَّب»¹، ذلك أنّ الآباء -والأمّهات- هم أحرص الخلق على سعادة أبنائهم، وكلّما كانت صلة القرابة وطيدة بين الموصي والموصى، كانت شدة التأثير ووقعه في النفوس أبلغ.

3- الخوف: لعلّ خوف "ابن الخطيب" على أبنائه من الضياع والتشتت دفعه إلى التّفكير بمُستقبلهم، فتوجّب عليه نُصحهم وتوجيههم -مُستبقاً الزمن في أحيان كثيرة-، وتجنّد ذلك الخوف في هيئة إرساليات تحذيرية ووعظية، منها²:

- خوفه على أبنائه من تبذير أموالهم في شراء العقار، لأنّ الأندلس في تلك الفترة لم تكن مستقرّة، بدليل ما حدّث له حين فرّ هارباً إلى المغرب.

- تحذير أولاده من كَيْدِ النّساء؛ لأنّهنّ في نظره من أسباب التّفريق بين الإخوان.

- دعوته إلى التعاضد والتعاون فيما بينهم -أولاده-، وتجنّب الخصومات، حتّى لا يهزمهم الأعداء.

- التحذير من طلب الولايات؛ لأنّها فتنة، قد تؤدّي بهم إلى حتفهم.

5-6- الأساليب البلاغية:

تنوّعت الأساليب البلاغية في الوصية، لكن ورغم اختلافها إلّا أنّها اشتركت في الغاية التأثيرية والمقصدية الإقناعية .

أ- الافتتاح والختم: يُعدّ أسلوباً الافتتاح والختم من أهمّ الأساليب البلاغية في خطاب الوصايا، التي تلفت انتباه الموصى وتدخله في أجواء الوصية. واستهلال الوصية أو افتتاحها يأتي باعتباره «مُكوّناً يُمهّد لمقام التواصل لأجل تهيء الموصى لتقبّل توجيهات أو نصائح الموصي؛ فهذا التهيء يبقى على

¹ المقرّي، نفخ الطيّب من عُصن الأندلس الرّطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 249.

² ينظر: م ن، ص: 259-260.

نحو ما مُعطى حجاجيًا يضمن مَسِيرَ التأثير والاستعداد له»¹، بمعنى أنّ الغاية هي كَسْبُ الموصي واستمالته منذ بداية الوصية. أمّا الخُتْمُ (الخاتمة)، فالغاية منه تثبيت درجة الإقناع والتأثير في الموصي حتّى يُنفِذ المطلوب منه.

والافتتاح والاختتام في وصية "ابن الخطيب" يتشابهان ويشتركان في نقطة واحدة؛ هي حقيقة الموت، التي استهلّ بها الموصي وصيته، واختتمّها بها أيضًا. فكان افتتاحه بالحمد والثناء على الله تعالى، ثمّ الصلاة والسلام على رسول الله: «الحمد لله الذي لا يُروّعه الحمام المرقوب، إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبيغته الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب...»². وهو حمْدُ قَرْنِه "لسان الدين" بألفاظٍ تنتمي إلى حقل الموت، لكنّه في الآن ذاته نفاه عن الخالق عزّ وجلّ، الحيّ الذي لا يموت.

ثمّ أشار "ابن الخطيب" إلى حاله التي علّاهها المشيب وبلغت من الكبر سنًا متقدّمًا، وهي دلالات تُوحي بإسقاطات الزّمن المثقل على كاهله، بعد أن خاض الموصي تجارب وخبرات طويلة من الحياة، وفي ذلك يقول: «فإني لما علاني المشيب بقمّته وقادني الكبر برُمّته، وأدكرت بعد أمّته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت (...)، وأنا رهين فوات وفي برزخ أموات...»³، فكان هذا التصوير لحالته، وذاك الاستشعار بِقُرب أجَلِه، بمثابة تمهيد عام لإثارة انفعالات أولاده - نفسيًا وعقليًا-، وإدخالهم في جوّ الإصغاء والإنصات لهذا الخطاب الوجداني الوداعي.

أمّا الخُتْمُ، فلم يخرج هو الآخر عن حقل الموت، حيث بدأ "ابن الخطيب" اختتامه بالتشديد على أهمية الوصية وضرورة تقبّلها، بقوله: «هذه أسعدكم الله وصيّتي التي أصدرتها، وتجارتي التي

¹ خالد عبد العزيز التحكاني، بلاغة الوصية مقارنة بلاغية حجاجية، ص: 268-269.

² المقرئ، نفع الطيب من غُصن الأندلس الرّطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 247-248.

³ م ن، ص: 248.

لربحكم أدركتها، فتلقوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء ضيحتها (...)، فاعلموا أن تقوى الله فذلكم الحساب، وضابط هذا الباب»¹.

فالموصي يأمل أن يتم العمل بوصيته من طرف أبنائه، حتى تتكفل لهم بحسن العواقب -وإلا سيعتريهم الندم-، وتكون كالإسوار في أيديهم يلجأ إليها عند الحاجة، لأنها خلاصة تجاربه، الجامعة لأسمى القيم ومعاني النصح والإرشاد. وهو الأمر الذي أدى "بلسان الدين" ودفعه إلى تصوير وصيته، وتشبيهها بـ:

- المصباح الذي يستنار بضوئه في الظلمات.

- الشجرة الثابتة ذات الفروع والغصون النضرة.

- الدرع الواقي في معارك الحياة.

ثم أعقب "ابن الخطيب" كلامه بدعاء تخلل ختمه للوصية: «كان الله خليفتي عليكم في كل حال، فالدنيا مناخ ارتحال، وتأصيل الإقامة فرض محال، فالموعد للالتقاء دار البقاء، جعل الله من وراء خطته النجاة، ونفق بضائعها المزجاة، بلطائفه المرتجاة»²، حيث يدعو هاهنا الموصي لأبنائه، أن يكون الله معينهم في الحياة، ثم ذكّرهم بحقيقة الدنيا الفانية التي طول الإقامة فيها من المحال، وأن عليهم السعي نحو الآخرة.

ليصل "ابن الخطيب" في الأخير إلى نهاية وصيته، ويختتمها بتحية الإسلام؛ «والسلام عليكم من حبيبكم المودّع، والله سبحانه يثمه حيث شاء من شمل متصدّع، والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب ورحمة الله وبركاته»³، لكنها تحية وداع وفراق، لا تلاق واجتماع، إنه الوداع الأبدي الذي لا

¹ المقرئ، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 260.

² م ن، ص: 260.

³ م ن، ص: 260 - 261.

رجعة منه؛ وداع أبّ تفرّق شمله وتصدّع، ولم يبقَ له أيّ إرث يتركه لأبنائه، سوى هذه الوصية الوعظية.

ب- الاستحسان والتشاكل: هما من الطرائق التي يتبعها الموصي أثناء كتابة وصيته، إن على مستوى الألفاظ أو المعاني. واستحسان الوصية يُقصد به أن «ينسجم اللفظ السهل مع وضوح المعاني وبعدها عن التعقيد والتكلف؛ فتصبح الغاية الأساس من هذا الشكل الأدبي حاصلة، فيلقى الكلام قبول المتلقي واستحسانه»¹، وغالبًا ما يكون خطاب الوصايا مباشرًا، واضحًا وسهلاً، يُحقّق الغاية الإقناعية المرجوة منه. أمّا التشاكل فهو التعقيد الذي يشمل بعض الألفاظ.

وإذا ما جئنا إلى وصية "ابن الخطيب"، فإننا نجد أنها وردت في صورة بسيطة وواضحة ذات لغة سهلة ومُستحسنة، وظّفت من الأساليب البلاغية ما يتماشى مع مضمونها وغرضها العام، ومن أمثلة ذلك:

- توظيف الإنشاء: غلب أسلوب الإنشاء -وفي مقدّمته الأمر والنهي- على الوصية، ذلك أنّ الوصايا هي في مجملها أوامر ونواهي وتوجيهات، ومنه يُصبح استعمال الإنشاء في هكذا خطابات هو الأنسب، وكنا وقفنا بالتفصيل في مواضع سابقة على بعض الأساليب الإنشائية.

- توظيف الإخبار: لم يرد الأسلوب الخبري في الوصية إلّا في مواضع قليلة، هي من باب المسلّمات اليقينية غير القابلة للنقاش، كإخبار "ابن الخطيب" عن فرائض الإسلام، حيث جاءت جلّ وصاياه في هذا الشأن، خالية من المؤكّدات، لأنّها من المعارف المشتركة وبينه وبين أبنائه.

- توظيف الجُمْل الفعلية والاسمية: أكثر "لسان الدين" في وصيته من استعمال الجُمْل الفعلية - بدرجة أولى - الدالة على الحركية والاستمرارية والتجدّد، لأنّه يُحاكي الماضي ويستشهد به، ويتصوّر المستقبل ويستشرفه، فكان لزامًا على الموصي تغليب استعمال الجُمْل الفعلية على الجُمْل الاسمية التي وردت بشكل ضئيل.

¹ خالد عبد العزيز التحكاني، بلاغة الوصية مقارنة بلاغية حجاجية، ص: 256.

أما التشاكل (التعقيد) في الوصية؛ فتمثل له ببعض الألفاظ الغريبة -التي تطلبت الشرح- المستعملة من طرف "ابن الخطيب"، من قبيل: (اللغوب، الرتيمة، الصّاب، بحر، ركابي، خابط ورق، الشهاد، غيره، الصغار، جامكم، محجور، كلوم، الأجلاف، تلهجوا، الإرجاف، الوارد، سجلي، الزعازع، اللدن، إحنة...) ¹، لكنّ من ناحية أخرى، يُمكن أن لا تكون هذه الألفاظ غريبة بالنسبة للموصي إليه، بل تكون واضحة الدلالة عنده بحكم الزمن الذي قيلت فيه الوصية. وفي هذا الصدد يقول "خالد التجكاني": «قد نقف على بعض الوصايا يبدو عديد من ألفاظها غريبًا، بينما قد يكون معجمها موافقًا تمامًا لبيئتها» ².

ج- الإطناب والإيجاز: إنّ الحكم الأوّل الذي سيُصدّره أيّ قارئ لوصية "ابن الخطيب" هو الإطناب والطول -فهي وصية تتجاوز ثلاث عشرة صفحة، كما عرضها "المقرّي في نفحه-، وكان "ابن الخطيب" نفسه قد استشعر هذا الطول في وصيته، حين قال: «ومهما سئمت إطالتها واستغرقت مقالاتها» ³، لكنّ هذا الإطناب في الوصية لم يكن عبثًا، بل لفائدة وغاية، هي التأكيد على بعض المواضيع بالتفصيل فيها، حتى تترسخ في ذهن أولاده. وهو ما أكّده "عبد الحليم الهروط" في دراساته حول أسلوب الإطناب عند "ابن الخطيب"، بقوله: «لم يكن الإطناب كلّ عند لسان الدين ممحوجًا زائدًا عن الغرض، فقد يأتي مطلبًا ملّحًا لبعض الأغراض والمواضيع - فنيًا وموضوعيًا-، يكاد لا يستكمل النصّ إلّا به، ومن ذلك الوصايا» ⁴. أمّا الإيجاز، فنلمسه من خلال تعريفات بعض القيم-

¹ ينظر: المقرّي، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج: 10، ص: 248-260.

² خالد عبد العزيز التجكاني، بلاغة الوصية مقارنة بلاغية حجاجية، ص: 255.

³ م س، ص: 260.

⁴ عبد الحليم الهروط، النشر الفقي عند لسان الدين بن الخطيب، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006م، ص:

التعريف الموجز، ذُكر سابقا في حجة التعريف-، التي جاءت موجزة الألفاظ، بليغة المعاني، كإيجاز "ابن الخطيب" في وَصَفِ الصَّدَق، والكُذِّب، وغير ذلك من القيم.

د- الإجمال والتفصيل: زواج "ابن الخطيب" في وصيته بين الإجمال والتفصيل؛ فكان يعرض القول مُجَمَّلاً، ثمَّ يُلحِّقه بالتفصيل والشرح، ومن نماذج ذلك ما تطرق إليه في موضع علوم الشريعة - لن نعرض الأقوال مجدداً تفادياً للتكرار-، إذ نجدُه يُوصي مُجَمَّلاً بضرورة الاهتمام بعلوم الشريعة، ثمَّ يُفصِّل بذكر أهمِّ علومها؛ من تجويدٍ للقرآن، وحِفْظٍ للحديث، وأصول فقه، وغيرها. وقد تتبَّع "لسان الدين" هذه الطريقة أيضاً في عَرْضِهِ للقيم الحمودة والمذمومة، فيأتي بالقيمة أولاً، ومن ثَمَّة يُفصِّل ذاكراً المنافع أو المضارَّ، حسب نوع القيمة.

هـ- التشخيص: أسلوب التشخيص هو أن «تجعل من الجامد أو المجرد كائناً حياً يتمتع بعاطفة، ويكون ذلك مجرد طريقة في التعبير»¹. ومن العبادات والفرائض الإسلامية التي شَخَّصَهَا "ابن الخطيب" في وصيته؛ الزكاة والصلاة، حين قال: «والزكاة أختها الحبيبة»²، والضمير -في لفظة أختها- يعود على الصلاة، فالموصي من خلال تشخيصه للفريضتين، ووصفهما بالأختين، إنما يُريد به إلحاق الزكاة بالصلاة في الأهمية، والرفع من مكانتها، باعتبارها الركن الثالث من أركان الإسلام الذي وجب الالتزام به -مثله مثل الصلاة-. وقد قرَّنها الله تعالى مع بعض في عدة آيات من الذكر الحكيم، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة/ الآية: 43).

¹ مختار نويوات، البلاغة العربية في ضوء البلاغات المعاصرة (بين البلاغتين: الفرنسية والعربية)، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2013م، ص: 87.

² المقرئ، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب -وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج: 10، ص: 253.

و- التكرار: إنّ أسلوب التكرار من الأساليب البلاغية التي يلجأ إلى اعتمادها كلُّ مُوصٍ في خطابه، لِمَا له من وَقَعٍ في النفوس، وأثرٍ على الأذهان، وَلَفَتٍ للانتباه، ذلك أنّ «الكلام إذا تَكَرَّرَ تَقَرَّرَ»¹. فيُصبح حينئذ اللَّفْظُ المَكْرَرُ «طاقة مضافة تُحدث أثراً جليلاً في المتلقي وتُساعد على نحوٍ فعّال في إقناعه أو حمله على الإذعان، ذلك أنّ التكرار يُساعد أولاً على التبليغ والإفهام، ويُعين المتكلم ثانياً على ترسيخ الرّأي أو الفكرة في الأذهان، فإذا رَدَّدَ المحتجُّ لفكرةٍ حُجَّةً ما، أدركت مراميها وبانت مقاصدها ورسّخت في ذهن المتلقي»².

من الألفاظ التي تَكَرَّرت في الوصية :

- تكرار الفعل: اعلموا، قصد لفت انتباه الموصى إليهم.
- تكرار الألفاظ الدينية، التي انسجمت مع مضمون الوصية الوعظي، من قبيل: (الشرعة، الإيمان، كتاب الله، القرآن...).
- تكرار اللازمة التعبيرية (الله الله)، التي أفادت عدّة معاني، مثل³:
 - الله الله الصلاة ← الترغيب في الصلاة والتأكيد على أهميتها.
 - الله الله أن تُعينوا في سفك الدماء ← التحذير من القتل.
 - الله الله لا تنسوا الفضل بينكم ← التحذير من نسيان الفضل فيما بينهم (أي؛ بين أولاده).
 - الله الله لا تنسوا مقارضة سجلي ← التحذير من نسيان فضل والدهم عليهم.

¹ السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، دط، دت، ص: 1648.

² سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص: 168.

³ ينظر: المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج: 10، ص: 252، ص: 256، ص: 259.

5-7- الصور البيانية:

لم تردّ الصور البيانية في وصيّة "ابن الخطيب" كحليّة تزويقية تنميقية، بل حملت شحنةً حجاجية إقناعية أوضحت المعنى، وقربت الصورة، لدى أولاده. ومن أهمّ هذه الصور ما يلي:

أ- التشبيه: تعددت أنواع التشبيه في الوصيّة، لكنّ أكثر نوع غلب على الوصيّة، هو التشبيه البليغ؛ إذ يُقصد به كلّ تشبيه «حذفت فيه أداة التشبيه ووجه الشبه»¹.

نحو²:

- الصلّاة أمّ العبادة.
- الزّكاة مفتاح السعادة.
- العلم مفتاح هذا الباب.
- الصّدق شعار المؤمنين.
- الكذب هو العورة.
- الخمر أمّ الكبائر.
- الخمر مفتاح الجرائم والجرائر.

حيث وقفت هذه التشبيهات في الوصيّة بين موقفين؛ موقف الاستحسان والترغيب لما هو محمود، وموقف الاستكراه والاستحقار لكلّ ما هو مذموم.

ب- الاستعارة: إنّ الاستعارة في خطاب الوصايا لا يُؤتى بها، باعتبارها شكلاً زخرفياً تزيينياً، وإنّما تُوجّه الموصى إلى إنجاز أفعال أو تركها، وتدفعه إلى التّفكير والبحث عن علاقة المشابهة بين المعنى المذكور، والمعنى المقصود، فتكون بذلك قادرة على إثارة ملكته الذهنية، ويغدو القول الاستعاري آنئذ

¹ السيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص: 237.

² ينظر: المقرّي، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب -، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج: 10، ص: 252-254، ص: 256-257.

من «ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه المتلقي إلى وجهة للخطاب محدّدة، ومن ثمة تحقيق أهدافه الحجاجية»¹.

نعرض - على سبيل التمثيل لا الحصر - أهمّ النماذج الاستعارية التي وظّفها "ابن الخطيب" في خطابه الإيصائي.

- ق 1: «يفترش التراب جني»².

استعارة مكنية صوّرت المشهد الذي سيكون عليه "ابن الخطيب" حين موته، يوم لا ينفعه قريب أو بعيد، فقد شبّه الموصي التراب بالفراش، الذي سيتمدّد عليه، ويحيط به، ويغطّيه من كافة الجوانب. وهي استعارة ذات دلالات مشهدية حقيقية تُثير الرّهبة والخوف في نفس كلّ سامع لها - لا أولاده فحسب -، لأنّ مآل أيّ إنسان هو قبره؛ الثابت الذي لا يتغيّر.

- ق 2: «وتلقيكم الجهالة بسكرها»³.

استعارة مكنية يُحذّر فيها "ابن الخطيب" أولاده من الاغترار بملذّات الدنيا وارتكاب المعاصي - وليس المقصود بالجهالة؛ الجهل نقيض العلم -، لأنّها قادرة على أن تغلب الإنسان وتنقله من حالة الوعي والإدراك، إلى حالة الغفلة والتقصير واللاوعي، مثلها مثل الخمرة (المشبّه به)، التي أثر سكرها يُذهب العقل، ويجعل الإنسان في حالة لا وعي، عاجزاً مغلوباً، غير مُتّزن ومُدرك لما يحدث أمامه.

ج - الكناية: هي من الصور البيانية التي استحضرها "لسان الدين" في وصيّته، ووظّفها في شكل إرساليات تلميحية لأبنائه، من أجل إدراك مقاصدها الحقيقية .

¹ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص: 267.

² المقرّي، نفخ الطيّب من عُصن الأندلس الرّطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب -، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 249.

³ م ن، ص: 259.

ومن الأمثلة، نذكر¹:

- أدوات السفر تُجمَع ومُنَادَى الرَّحِيل يُسَمَع ————— كناية عن قُرْب الأجل.
- يمتدّ في ميدان الوسائل الباع ————— كناية عن شدة العطاء.
- تفقدوا أنفسكم مع الساعات ————— كناية عن الغفلة.

5-8- المحسنات البديعية:

أسهمت المحسنات البديعية في إعطاء الخطاب الإيصائي "لابن الخطيب" بُعدًا جماليًا؛ مأتاه تزيين الكلام حُسْنًا وطلاوة، وبُعدًا تأثيريًا؛ هدفه لفت انتباه الموصى، وتقوية المعاني لديه وتمكينها في النفوس والأذهان.

أ- الطّباق: تبَيّن "لسان الدين" بنية تناظرية قائمة على الجمع بين الضدّين والمتناقضين، حتّى يَضَع أولاده أمام فرضية الاختيار؛ إمّا اختيار المحبوب والمرغوب من العبادات والقيم، أو اختيار المكروه والمنبوذ من المعاصي والرذائل.

ومن أهمّ أنواع الطّباق في الوصية، ما يلي²:

- طباق الإيجاب: (الأنوار ≠ الظلال، النّجاة ≠ الشقاء، الدّنيا ≠ الآخرة، التّفّع ≠ الضّرر، الرّضا ≠ السّخط، المعروف ≠ المنكر، الفوز ≠ الخسران، الصّدق ≠ الكذب، الأمانة ≠ الخيانة، المحرّم ≠ الحلال، الخير ≠ الشرّ، الكمال ≠ النقصان...).

- طباق السّلب: (تكون ≠ لا تكون، مجهور ≠ غير مجهور، يموت ≠ لا يموت، يعلمون ≠ لا يعلمون...).

ب- استعمال المرادف: تفاديًا للتكرار، عمد "ابن الخطيب" في أحيان كثيرة إلى استعمال اللفظ ومرادفه في المعنى.

¹ ينظر: المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد

الحמיד، ج: ، ص: 249، ص: 254، ص: 258.

² ينظر: م ن، ص: 248- 260.

نماذج ذلك¹:

- الحمام المرقوب = الأجل المكتوب.

- مودّعكم = مفارقتكم.

- صونوا = احفظوا.

- دار البقاء = الآخرة.

- الدّنيا = العاجلة.

- الصغار = المذلة.

- العورة = السوءة.

- الجرائم = الجرائر.

- صعبت = أعضلت.

- العار = الفضيحة.

ج - المقابلة: يُقصد بها: «أن يُؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثمَّ يُؤتى بما يقابل ذلك الترتيب»²،

وهي من المحسنات التي تُعمّق الفكرة وتؤكد المعنى. ومن صورها في الوصية :

- ق 1: «وأمرؤا بالمعروف أمرًا رفيقًا، وانها عن المنكر نهيًا حرّيًا»³.

وقع التقابل بين: (وأمرؤا ≠ وانها)، (المعروف ≠ المنكر).

د- الجناس: من المحسنات البديعية التي لها صدّى في الآذان، فتحدث تأثيرا في الموصى، وتجانسًا في

الكلام، نحو⁴:

¹ ينظر: م س، ص: 247-257.

² السيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، ص: 304.

³ المقرئ، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

ج: 10، ص: 256.

⁴ ينظر: م ن، ص: 248-260.

- جناس ثنائي: وَقَعَ بين لفظتين في الوصية، مثل: (أضعت - رضعت، المدى - الردى، انتقاد - اعتقاد، عقل - نقل، شقاء - بقاء، طاعة - ساعة، داعٍ - واعٍ، ورق - عرق، الملامة - السلامة، عقال - صقال، الواجب - الحاجب، معاش - معاد، برّ - سرّ، تطريق - تطويق، إحنة - محنة، هزل - عزل، قدم - ندم...).

- جناس ثلاثي: وَقَعَ بين ثلاثة ألفاظ متتابعة، مثل: (التلف - الخلف - السلف، المغلوب - المسلوب - المرغوب، حجر - بحر - هجر، همل - عمل - أمل، محجور - مسجور - مهجور، المنّة - الجلّة - الملة، خزن - حزن - وزن، عدمه - قدمه - خدمه...).

هـ- السجع: غلب السجع على وصية "ابن الخطيب" من بدايتها إلى نهايتها، إلا أنه لم يكن مجرد تنميق، بل شكّل هندسة صوتية أسهمت في تماسك أجزاء الوصية والربط بينها من جهة، والتغلغل في نفوس الموصى إليهم، بقُرْع آذانهم ولَفَت انتباههم، من جهة أخرى. وقد تنوعت فواصله في الوصية وجاءت في شكل ثنائي -توافق فاصلتين مع بعض-، وثلاثي، ورباعي، وغير ذلك. نذكر على سبيل التمثيل¹:

- سجع ثنائي الفاصلة: (فروضه - عروضه، قوبما - بهيما...).
- سجع ثلاثي الفاصلة: (أمرًا - جمراً - عمرًا، خزن - حزن - وزن، محجور - مسجور - مهجور...).
- سجع رباعي الفاصلة: (رفيقا - حقيقا - مفيقا - طريقا...).

¹ ينظر: م س، ص : 254 - 256.

خلاصة الفصل:

بعد الدراسة التطبيقية التحليلية لوصية "ابن الخطيب" توصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ وصيته جاءت شاملة جامعة لعدة قيم ونصائح وتوجيهات، في مختلف مناحي الحياة؛ دينية، تربوية، أخلاقية، اجتماعية، سياسية، وغيرها صيغت في قالب وعظي إرشادي، سعى "ابن الخطيب" إلى إيصاله ونقله لأبنائه حتى يعملوا به في حياتهم.

ثمّ حاولنا الوقوف على أهمّ الاستراتيجيات الخطابية التي تضمّنتها الوصية في التعبير عن مقاصدها وغاياتها، وخصّصنا بالذكر؛ الاستراتيجيتين التوجيهية والإقناعية. وطعّمنا هذا المبحث، بعنصر آخر هو تفاعل الخطابات، حيث لم يتخذ الخطاب في الوصية شكلاً ونوعاً واحداً، بل تعدّدت أنواعه؛ كالخطاب الديني، الأخلاقي، السياسي، وغير ذلك، وهي أنواعٌ وعلى الرغم من اختلاف مجالاتها، إلّا أنّها تكاملت فيما بينها كنسيجٍ واحد، خدّم المقصد العام للوصية، ألا وهو الوعظ والإرشاد.

أمّا بالنسبة للجانب التحليلي، فلم نقصر فيه على المقارنة الحجاجية فحسب، بل وسّعنا مجال البحث، لما تحوّه الوصية من إمكانات تداولية وبلاغية وحجاجية، فقسّمنا الدراسة إلى ثلاث مقاربات هي: المقاربة التداولية؛ تناولنا فيها: (الإشارات، متضمنات القول، مبدأ التعاون، أفعال الكلام)، ثمّ انتقلنا إلى المقاربة الحجاجية، وهي لبُّ الموضوع، فعرجنا فيها على: (مقدّمات الحجاج، الموجّهات التعبيرية، الحجاج المنطقي، التقنيات الحجاجية، الحجاج اللساني)، وصولاً إلى المقاربة البلاغية؛ وقفنا فيها على بلاغة: (الصيغ، الوصف، الدعاء، السرد، العاطفة، الأساليب البلاغية، الصور البيانية، المحسنات البديعية).

خاتمة

بعد الخوض في غمار موضوع بلاغة خطاب الوصية، قادتنا أطوار البحث إلى استخلاص جملة من النتائج.

في مرحلة أولى من الدراسة عقدنا العزم على الوقوف عند بعض المباحث التمهيدية - قبلولوج إلى مفاصل الدراسة النظرية والتطبيقية -، التي رأينا أنه من الواجب التعرّيج عليها، كونها ضرورة لازمة لا بدّ منها، ولذلك مبررات، فافتتحنا مجال البحث بالحديث عن تلك الإمبراطورية التي أضحت باها وعاءاً وفضاءً يستوعب جميع الخطابات ومختلف مجالات المعرفة الإنسانية، إنّها البلاغة، ثمّ عرضنا لأهمّ تياراتها الكبرى في الثقافتين؛ الغربية (تيار منطقي، تيار أسلوبي أدبي، تيار خطابي نصّي)، والعربية (تيار البديع، تيار البيان، تيار البلاغة العامّة)، وتوصلنا إلى نتيجة مفادها، أنّ لكلّ تيارٍ مجاله الخاص به، بيدّ أنّ هذه التوجهات حتّى وإن اختلفت وتباينت، فإنّها تظلّ مُكمّلة لبعضها البعض.

لنتقل في موضع آخر إلى التعريف بالبلاغة الجديدة، وخلصنا إلى أنّها بلاغة استمدّت مفاهيمها من البلاغة الأرسطية، غير أنّها ركّزت اهتماماتها على الإقناع والتأثير، وأصبحت تُعنى بدراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها إثارة النفوس، وكسب العقول، واستمالة السامعين إلى الإذعان. وانطلاقاً من هاته الغاية التي تسعى إلى تحقيقها البلاغة الجديدة، وهي غاية حجاجية بدرجة أولى، ذهبنا إلى تتبّع حُدود العلاقة التي تجمع بين البلاغة الجديدة والحجاج، وحصرناها - حسب توجهات الباحثين - في علاقتين؛ علاقة ترادف وعلاقة تداخل.

ولما كانت المقاربة الحجاجية لبّ اشتغالنا في دراسة خطاب الوصية، ومسعى بحثنا، ارتأينا ضبط هذا المفهوم، وتحديدده بدقة، فوجدناه يهتمّ بدراسة وتحليل الخطابات على اختلاف أنواعها، في ضوء مجموعة من الآليات الحجاجية والوظائف التداولية، ضمن مقامات وسياقات تواصلية معيّنة. وحتّى لا نحدّ أو نُقلص من مسافات ومساحات التحليل المطبّقة على عيّنة الدراسة، عكفنا على إدراج المقاربة التداولية إلى جنب المقاربة الحجاجية؛ فمهدنا لها أولاً وأحطنا بأهمّ موضوعاتها، ولا نرى في هذا المقام حاجة إلى عرض النتائج المستخلصة عن ذلك، لأنّها نتائج فرعية - نقصد النتائج المترتبة عن عنصر التداولية وموضوعاتها - قد تمّ إدراجها وذكرها من قبل.

- أما المرحلة الثانية؛ فكانت رصدًا وتتبعًا تأسيسيًا نظريًا لكل من الحجاج والوصية، في فصلين متتابعين، وهي مرحلة خرجنا فيها بالنتائج التالية:
- يحتل الحجاج أهمية بالغة في شتى مجالات الحياة.
 - الدلالة اللغوية للحجاج يتأرجح معناها بين "القصد" في المعاجم اللغوية العربية، و"الوضوح واللمعان" في المعاجم الغربية.
 - يتداخل الحجاج مع مصطلحات مشابهة له في الدلالة، من قبيل: البرهان، الاستدلال، الإقناع، وغيرها.
 - تمثلت الجذور الأولى للحجاج في الفكر اليوناني، في المرافعات أمام المحاكم، ثم توسعت الدلالات مع الإسهامات المعرفية التي جاء بها فلاسفة اليونان، وبخاصة "أرسطو" الذي شكّل مشروعه الحجاجي نقطة انطلاق لكل الدراسات الحديثة والمعاصرة.
 - برزت تجليات الحجاج في التراث العربي بشكل خاص مع البلاغيين العرب، أمثال؛ "الجاحظ"، "القرطاجني"، وغيرهم.
 - معالم الحجاج كنظرية قائمة بذاتها لم تتبلور إلا مع الأرسطيين الجدد وعلى رأسهم "بيرلمان".
 - نظريات الحجاج الحديثة، وإن اختلفت في تقنياتها وآلياتها، إلا أنها تبتغي تحقيق غاية واحدة؛ هي الاستمالة والإقناع والتأثير في المتلقي.
 - الإسهامات العربية الحديثة في مجال الحجاج، فتحت آفاقًا واسعة للباحثين، كي يقبلوا على الاهتمام بالنظريات الغربية -سواءً أكانت نظريات ججاجية أو غيرها-، ومن ثم إعادة تطبيقها على التراث العربي، بما يتماشى وخصوصياته.
 - الوصية جنس أدبي يحوي عصارة تجارب وخبرات، ذات غايات ومقاصد نفعية.
 - يقتزن مفهوم الوصية -في الغالب- بلحظة استحضر الموت.
 - تتداخل الوصية مع كثير من المصطلحات المقاربة لها في الدلالة؛ كالتوصية، الموعدة، الخطبة، النصيحة، وغيرها.

- الوصايا في التراث العربي، عبر عصوره، رغم تنوعها (وصايا؛ دينية، سياسية، اجتماعية... إلخ)، واختلاف بآئها (وصايا؛ الأدباء، الأمراء، الخلفاء، الحكماء... إلخ)، إلا أنها تشترك في الغايات والمقاصد، حيث تهدف إلى النصح والتوجيه والإرشاد، وتسعى إلى ابتغاء تقوى الله، كونها تحمل قيمًا تربوية، وأخلاقية، ودينية، واجتماعية...

- الوصية خطاب حجاجي بامتياز، يسعى فيه الموصي إلى استمالة الموصى والتأثير فيه، وإقناعه للعمل بمضمون الوصية.

- جلّ الوصايا تُزاج بين أنواع الخطابات في عرض مضامينها، كما أنها لا تقتصر على توظيف استراتيجية خطابية واحدة، بل تجمع بين أكثر من استراتيجية.

في حين المرحلة الثالثة من الدراسة؛ كانت دراسة تطبيقية لوصية "لسان الدين بن الخطيب" لأولاده، والتي جاءت جامعةً حاملةً جملةً من القيم والمعاني والفضائل، وفق رؤية كافية ونظرة شاملة لكلّ المجالات؛ دينية، اجتماعية، سياسية، وغيرها، صالحة لكلّ زمان ومكان. قدّمها "ابن الخطيب" لأبنائه على رُح مسرّحي، وفي مشهدٍ عرض فيه من منظور الخبرة العميقة، سجّل تجاربه، وعصارة خبراته، رافضاً انتهاء حلقة ذاك المشهد إلا عند تمرير كلّ وصاياه، وهو الأمر الذي جعل من وصيته دستوراً بيانيًا منظمًا للأفعال الواجب إنجازها؛ استجابًا للمنافع، والأفعال الواجب تركها؛ استدفاعًا للأذى.

ونظرًا لتلك المقصدية الإقناعية التي رام "ابن الخطيب" تحقيقها من خلال وصيته، عمدنا إلى تحيّر المقاربة الحجاجية - بالإضافة إلى المقاربتين التداولية والبلاغية - دون غيرها من المقاربات، للكشف عن سُبُل الإقناع والاستراتيجيات الخطابية التي وظّفها الموصي في وصيته، وكذا النظر في الأبعاد التداولية، والآليات الحجاجية، والأساليب البلاغية، التي نهضت بوظائف تأثيرية. وقد توصّلنا في ذلك إلى النقاط التالية :

- وصية "ابن الخطيب" خطاب وظيفي تواصلية، صيغ في قالب وعظي إرشادي توجيهي.

- عبّرت الوصية عن ذات "ابن الخطيب" وتجربته في الحياة.

- تجلّت الوصيّة في شكل نموذج سلوكي قيّم، مُرغِبٍ لأفعال وفضائل، ومُنقِرٍ لمنكرات وردائل.
- إنّ أهمّ الاستراتيجيات الخطابية التي تضمّنتها الوصيّة، هما: الاستراتيجية التوجيهية والاستراتيجية الإقناعية.
- لم تقتصر الوصيّة على خطاب معيّن، بل تنوّعت الخطابات وتفاعلت فيما بينها (كالخطاب؛ الأخلاقي، الديني، السياسي، الاجتماعي...)، لتخدم الغرض العام للوصيّة المتمثّل في الوعظ والإرشاد.
- إنّ الموصى في وصيّة "لسان الدين"، وإن كان محدّدًا -أولاده-، إلّا أنّ معالم وموضوعات الوصيّة كانت صالحة لأن تتعدى ذلك الموصى الخاص، لتصل إلى كلّ إنسان عاقل يُسلّم بتلك المعاني السامية.
- منوال الوصيّة التركيبي سار وفق بنية تناظرية؛ حدّها الأول: الإغراء والترغيب، أمّا حدّها الثاني: التهيب والتنفير.
- انقسمت الإشارات في الوصيّة، إلى إشارات مُتعلّقة بالذات الموصيّة، وإشارات مرتبطة بالموصى
- تنوّعت الأفعال الكلامية في الوصيّة، أبرزها: الأمر والنهي، الإغراء والتحذير، الشرط، وغيرها.
- أسهمت المقدمات والمعارف المشتركة بين "ابن الخطيب" وأولاده، في تقوية سبل التواصل، وتعزيز الاستمالة التأثيرية.
- كشفت الوصيّة عن تقنيات حجاجية متعدّدة، سلكت مسلك التوجيه والإقناع.
- جلّ الأساليب البلاغية في خطاب "ابن الخطيب" خرجت عن أغراضها الحقيقية، إلى أغراض أخرى قوامها الوعظ والإرشاد.
- قدّمت الوصيّة نموذجًا للممارسة الحجاجية الإقناعية، التي نقلت الموصى من موضع الشكّ والتردد إلى موضع القبول والعمل بمضمون الوصيّة.

- رغم اللغة المباشرة الصريحة التي استعملها "ابن الخطيب" في خطابه الإيصائي، إلا أنه في أحيان كثيرة ترك مضمرة قولية وأقيسة منطقية، أراد بواسطتها دفع أبنائه إلى أعمال عقولهم وأذهانهم، لاكتشاف المعاني المقصودة.

- استطاعت المحسنات البديعية في الوصية أن تترك إيقاعاً تأثيرياً استهوى نفوس الموصى لهم، وجذب انتباههم.

ختاماً، لا أجزم بأنّ النتائج المتوصل إليها قد أحاطت بجميع حيثيات الموضوع، بل هي في حاجة إلى التوسّع. وأرجو أن تكون الدراسة فاتحةً بحوثٍ جديدة تُعنى ببلاغة خطاب الوصايا، من حيث الاشتغال المحجّاجي على وجه الخصوص، لما له من مقدرة في الكشف عن المقصديات الإقناعية والآليات البلاغية التي يُوظّفها الموصون في وصاياهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ كون الوصايا جنساً أدبياً لم ينل حظّه من الدراسات البلاغية والحجاجية المعاصرة، مقارنة بالفنون الأدبية الأخرى.

والله ولي التوفيق.



ملاحق

نصّ الوصيّة¹:

«الحمد لله الذي لا يُروّعه الحمام المرقوب، إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبعّته الأجل المكتوب، ولا يفجّؤه الفراق المعتوب، ملهم الهدى الذي تطمئن به القلوب، وموضّح السبيل المطلوب، وجاعل النصيحة من قسم الوجوب، لا سيما للوليّ المحبوب، والولد المنسوب، القائل في الكتاب المعجز الأسلوب، ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾.

والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد رسولہ، أكرم من زرت على نوره جيوب الغيوب، وأشرف من خلعت عليه حُللُ المهابة والعصمة، فلا تفتحهمه العيون، ولا تصممه الغيوب، والرّضا على آله وأصحابه الثابرين على لسان الاستقامة بالهوى المغلوب، والأمل المسلوب، والافتداء المؤصل [إلى] المرغوب، والعزّ والأمن من اللُّغوب.

وبعد، فإنّي لما علاني المشيب بقمّته، وقادني الكبر برّمته، وادكرت بعد أمّته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت، وتأكدّ وجوب نصحي لمن لزمني رعيه، وتعلّق بعيني سعيه، وأملت أن تتعدّى إليّ ثمرة استقامته، وأنا رهين فوات، وفي برزخ أموات، ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري، إن سلك وعسى أن لا يكون ذلك على آثاري، فقلت لأخاطب الثلاثة الولد، وثمرات الخلد، بعد الضّراعة إلى الله تعالى في توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجمع تفريقهم، وأن يمتنّ عليّ منهم بحسن الخلف، والتلافي من قبل التّلف، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السّلف، فهو وليّ ذلك، والهادي إلى خير المسالك.

اعلموا هداكم الله تعالى بأنواره تُتهدى الضّلال، وبرضاه تُرفع الأغلال، وبالتماس فُربه يحصل الكمال، إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرأت من يمينها الشّمال، أيّ مؤدّعكم وإن سألني الرّدى، ومفارقكم وإن طال المدى، وما عدّا ممّا بدّا، فكيف وأدوات السّفَر تُجمع، ومُنَادَى الرّحيل يُسمع، ولا أقلّ للحبيب المودّع، من وصيّة مُحْتَضِر، وعُجالة مُقْتَصِر، ورّيمة تُعقّد في خنصر، ونصيحة

¹ المقرّي، نفخ الطّيب من عُصن الأندلس الرّطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب-، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

تكون نشيدة وإعٍ مُبَصِّر، تتكفَّل لكم بحسن العواقب مِن بعدي، وتُوضِّح لكم من الشفقة والخَوِّ قصدي، حسبما تضمَّن وعدُ الله من قبل وَعْدِي، فهي أَرْبُكُمْ الذي لا يتغيَّر وَقْفُهُ، ولا ينالكم المكروه ما رَفَّ عليكم سَقْفُهُ، وكأنيَّ بشبابكم قد شاخ، وبراحِلُكم قد أناخ، وبناشطكم قد كَسِل، واستبدل الصَّاب من العسل، ونُصُولُ الشَّيْب تُرْوَع بأسل، لا بل السَّام من كلِّ حَدَبٍ قد نسل، والمعاد اللَّحد ولا تَسَل، فبالأمس كنتم فراخ حِجر، واليوم أبناء عسكر بحر، وغداً شيوخ مَضِيعةٍ وهجر، والقبور فاغرة، والنَّفوس عن المألوفات صاغرة، والدُّنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها الآخرة، والحازم مَنْ لم يُتَعَطَّ به في أمر، وقال: بيدي لا بيدِ عَمْرُو، فاقتنوها من وصية، ومزامٍ في النصيح قَصِيَّة، وخُصُّوا بها أولادكم إذا عَقَلُوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا.

وحسبي وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق هملاً، ولكنَّ لِيَبْلُوهم أيَّهم أحسن عملاً، ولا رَضِي الدُّنيا منزلاً، ولا لَطَفَ بَمَن أصبح عن فئة الخير منعزلاً، ولتَلَقُّنَا تلقيناً، وتَعَلَّمُوا علماً يقيناً، أنكم لن تجدوا بعد أن أنفردَ بذنبي، ويفترش الترابَ جَنبي، ويسُحَّ انسكابي، وتهول عن المصلَّى ركابي، أحرص مَنِّي على سعادة إليكم تُجَلِّب، أو غاية كمال بسبيكم تُرتاد وتُطلب، حتَّى لا يكون في الدين والدُّنيا أَوْزَفَ منكم ظلاً، ولا أشرف محلاً، ولا أغبطَ نهلاً وعلاً، وأقلَّ ما يُوجب ذلك عليكم أن تُصيخوا إلى قولي الآذان، وتستلمحوا صُبْحَ نُصحي فقد بان، وسأعيد عليكم وصية لقمان، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ، يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ، وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْصِصْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، وأعيد وصية خليل الله وإسرائيل، حُكْم ما تضمنه حُكْم تنزيله ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

والدين الذي ارتضاه واصطفاه، وأكملة ووقاه، وقرَّره مُصْطَفَاه، من قبل أن يتوفاه، إذا أعمل فيه انتقاد، فهو عمل واعتقاد، وكلاهما مُقَرَّر، ومُستمد من عقل أو نقل مُحَرَّر، والعقل مُتَقَدِّم، وبنائه مع رفض أخيه مُتَهَدِّم، فالله واحد أحد، فردُّ صَمَد، ليس له والد ولا ولد، تنزَّه عن الزمان والمكان، وسبق

وجوده وجود الأكوان، خالق الخلق وما يعملون، الذي لا يُسأل عن شيءٍ وهم يُسألون، الحيّ العليم المدبّر القدير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أرسل الرّسل رحمةً لتدعو النّاس إلى النّجاة من الشقاء، وتوجّه الحجة في مصيرهم إلى دار البقاء، مُؤَيَّدَةً بالمعجزات التي لا تُتصّف أنوارها بالاختفاء، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء، ثمّ ختم ديوانهم بنبيّ ملّتنا المرعية الهمل، الشاهدة على الملل، فتلخّصت الطّاعة، وتعيّنت الإمرة المطاعة، ولم يبقَ بعده إلّا ارتقاب السّاعة، ثمّ إنّ الله تعالى قبضه إذ كان بشراً، وترك دينه يضمّ من الأمة نشرًا، فمن تبعه لحق به، ومن تركه نُوط عنه في منسبه، وكانت نجاته على قدر سببه، روي عنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلّوا بعدي: كتاب الله، وسُنّي، فعضّوا عليها بالنواجذ».

فاعملوا يا بنيّ بوصيّة من ناصحٍ جاهد، ومُشفقٍ شفقة والد، واستشعروا حُبّه الذي توافرت دواعيه، وعُوّ مرّاشد هُديهِ فيا فوز واعيه، وصلّوا السبب بسببه، وآمنوا بكلّ ما جاء به مُجملاً أو مفصّلاً على حسبه، وأوجبوا التجلّة لصحبهِ الذين اختارهم الله تعالى لصُحبته، واجعلوا محبّتكم إيّاهم من توابع محبّته، واشملوهم بالتوقير، وفَضّلوا منهم أُولى الفضل الشهير، وتبرّؤا من العصبيّة التي لم يدعكم إليها داعٍ، ولا تَعِ التشاجر بينهم أذنٍ واعٍ، فهو عنوان السّداد، وعلامة سلامة الاعتقاد، ثمّ اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء المِلّة، وأتمّتها الجِلّة، فهُم صَقَلَة نُصُولهم، وفُرُوعُ ناشئة من أصولهم، وورثتهم وورثة رسولهم.

واعلموا أنّي قطعْتُ في البحث زماني، وجعلْتُ النظر شاني، منذ برّاني الله تعالى وأنشاني، مع نُبلٍ يعترف به الشاني، وإدراكٍ يُسلّمه العقل الإنساني، فلم أجد خابط وَرَق، ولا مُصيب عَرَق، ولا نازع خِطام، ولا متكلّف فِطام، ولا مُقتحِم بحرّ طام، إلّا وغايته التي يقصدها قد نضلتها الشريعة وسبقتها، وفرّعت ثيبتها وارزقتها، فعليكم بالتزام جادّتها السابِلة، ومُصاحبة رفقتها الكاملة، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وقد علّت شرائعه، ورّاع الشكوك رائعه، فلا تستنزلكم الدّنيا عن الدّين، وأبدلوا دُونه النفوس فِعل المهتدين، فلن ينفع متاعٌ بعد الخلود في النار أبد الآبدين، ولا يضرّ

مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين، ومتاع الحياة الدنيا أخس ما ورث الأولاد عن الوالدين، اللهم قد بلغت فانت خير الشاهدين.

فاحذروا المعاطب التي تُوجب في الشقاء الخلود، وتستدعي شؤه الوجوه وتُضج الجلود، واستعينوا برضا الله من سُخطه، وارزبوا بنفوسكم عن غمطه، وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم، ولا تحمدوا على جيفة العرض الزائل ائتلافكم، واقتنعوا منه بما تيسر، ولا تأسوا على ما فات وتعذر، فإتما هي دُجنة ينسخها الصبح، وصفقة يتعاقبها الخسار أو الرباح، ودونكم عقيدة الإيمان فشُدوا بالنواجذ عليها، وكفكفوا الشبه أن تذنوا إليها.

واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرفؤه عمل، وكل ما سوى ذلك الراعي همل، وما بعد الرأس في صلاح الجسم أمل، وتمسكوا بكتاب الله حفظاً وتلاوة، واجعلوا جملة على حمل التكليف علاوة، وتفكروا في آياته ومعانيه، وامثلوا أوامره ونواهيه، ولا تتألوده ولا تغلوا فيه، وأشربوا قلوبكم حب من أنزل على قلبه، وأكثروا من بواعث حبه، وضوونا شعائر الله صون المحترم، واحفظوا القواعد التي ينبي عليها الإسلام حتى لا ينخرم.

الله الله في الصلاة ذريعة التجلة، وخاصة الملة، وحاقنة الدم، وغنى المستأجر المستخدم، وأم العباد، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة، والنّاهية عن الفحشاء والمنكر وإن عرض الشيطان عرّضهما، ووطاً للنفس الأمارة سماءهما وأرضهما، والوسيلة إلى بلّ الجوانح ببرود الذكر، وإبصال تحفة الله إلى مريض الفكر، وضامنة حسن العشرة من الجار، وداعية للمسالمة من الفجار، والواسمة بسمة السلامة، والشاهدة للعبد برفع الملامة، وغاسول الطبع إذا شانه طبع، والخير الذي كل ما سواه له تبع، فأصبروا النفس على وظائفها بين بدء وإعادة، فالخير عادة، ولا تفضّلوا عليها الأشغال البدنية، وتؤثروا على العلية الدنية، فإن أوقاتها المعينة بالانفلات تيبس، والفلك بها من أهلكم لا يحبس، وإذا قورنت بالشواغل فلها الجاه الأصيل، والحكم الذي لا يغيره العُدو ولا الأصيل، والوظائف بعد أدائها لا تفوت، وأين حق من يموت من حق الحي الذي لا يموت، وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها، فبالإتقان تفاضلت الأعمال، وبالمراعاة استحقت

الكمال، ولا شُكْرَ مع الإهمال، ولا رِنَجَ مع إضاعة رأس المال، وذلك أخرى بإقامة الفرض، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض، والطهارة التي هي في تحصيلها سبب مُوصِّل، وشرط لمشروطه مُحصِّل، فاستوفوها، والأعضاء نَظَّفوها، ومياهها بغير أوصافها الحميدة فلا تصغوها، والحُجُولَ والعُرَ فأطيلوها، والنِّيات في كلِّ ذلك فلا تُهْمِلوها، فالبناء بأساسه، والسَّيف بمراسه.

واعلموا أنَّ هذه الوظيفة من صلاة وطهور، وذكر مجهور وغير مجهور، تستغرق الأوقات، وتنازع شتى الخواطر المفترقات، فلا يضبطها إلَّا مَنْ ضَبَطَ نَفْسَه بعقال، واستعاضَ صَدَاهُ بصقال، وإن تراخى فَهَقَرَ الباع، وسَرَقَتْهُ الطَّبَاع، وكان لما سواها أَضْيَع، فشمل الضياع.

والزَّكَاة أختها الحبيبة، وَلِدَتْهَا القرية، مفتاح السعادة بالعرض الزائل، وشكران المسئول على الصَّدِّ من درجة السائل، وحقَّ الله تعالى في مال مَنْ أغناه، لمن أجهده في المعاش وعَنَّاه، من غير استحقاق ملء يده وإخلاء يد أخيه، ولا عِلَّة إلَّا القدر الذي يُخْفِيهِ، وما لم ينله حظَّ الله تعالى فلا خَيْرَ فيه، فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها، في اختيار عَرْضِها وِنِجَاحِها، واستخِيُوا من الله تعالى أن تبخَلُوا عليه ببعض ما بَدَل، وخالفوا الشيطان كلَّما عَدَل، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون، ولا تدرون أين تسلكون، فوهَبْ وَأَقْدَر، وأورد بِفَضْلِهِ وَأَصْدَرَ، لِئُرْتَبَ بِكَرَمِهِ الوسائل، أو يُقِيمَ الْحَجَجَ والدلائل، فابتغوا إليه الوسيلة بماله، واغتنموا رضاه ببعض نَوَالِهِ.

وصيام رمضان عبادة السِّرِّ المقرَّبة إلى الله زُلْفَى، الممحوضة لِمَنْ يعلم السِّرَّ وأخفى، مؤكَّدة بصيام الجوارح عن الآثام، والقيام ببرِّ القيام، والاجتهاد، وإيثار الشُّهاد على المهاد، وإن وَسِعَ الاعتكاف فهو من سُنَنِهِ المُرْعِيَّة، ولواحقه الشرعيَّة، فبذلك تَحْسُنُ الوجوه، ونحصل من الرِّقَّة على ما ترجوه، وتذهب قسوة الطباع، ويمتدَّ في ميدان الوسائل الباع.

والحجَّ مع الاستطاعة الرِّكن الواجب، والفرض على العين لا يحجُّبه الحاجب، وقد بيَّن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم قدره فيما فرض عن ربِّه وسنَّه، وقال «ليس له جزاء عند الله إلَّا الجنة»، ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله إن كانت لكم قوَّة عليه، وغنى لديه، فكونوا مِمَّن يسمع نفيهِ ويُطيعه، وإن عجزتم فأعِينُوا مَنْ يستطيعه.

هذه عُمد الإسلام وفُروضه، ونقود مَهْره وعُروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مَبْرُورين، وعلى مَنْ يُناويكُم ظاهرين، وتَلَقَّوا الله لا مُبَدِّلِينَ ولا مُغَيِّرِينَ، ولا تُضَيِّعُوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين.

واعلموا أَنَّ بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب، وتَحَلَّى محاسنها من بعد الانتقاب، فعليكم بالعلم النافع، دليلا بين يدي السامع، فالعلم مفتاح هذا الباب، والموصِل إلى اللِّباب، والله عزَّ وجلَّ يقول ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، والعلم وسيلة النفوس الشريفة، إلى المطالب المنيعة، وشرطه الخشية لله تعالى والخيفة، وخاصَّة الملاء الأعلى، وصفة الله في كُتبه التي تتلى، والسَّييل في الآخرة إلى السعادة، وفي الدُّنيا إلى النِّحلة عادة، والذِّخر الذي قليله يشفع، وكثيره ينفع، لا يغلبه الغاصب، ولا يسلبه العدو المُنَاصِب، ولا يبتزّه الدَّهر إذا نال، ولا يستأثر به البحر إذا هال، مَنْ لم يَنَلْهُ فهو ذليل وإن كثرت آماله، وقليل وإن جمَّ ماله، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم، وتَحَطَّى حسابكم، فالتمسوه لِنَيْكُم، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم، واحملوهم على جَمْعِهِ ودَرْسِهِ، واجعلوا طباعهم تُرَى لِعَرْسِهِ، واستسهلوا ما ينالهم من تَعَبٍ مِنْ جَزَاه، وسَهِّرْ يهجر له الجفن كَرَاه، تعقِدوا لهم ولاية عِزٍّ لا تُعْزَل، وتُحْلُوهم مثابة رِفْعَةٍ لا يُحْطُ فَارِعُهَا ولا يُسْتَنْزَل، واختاروا العلوم التي يَتَعَقَّبُهَا الوقت، فلا يناله في غِيَرِهِ المقت.

وخيرُ العلوم علوم الشريعة، وما نُجِمَ بمنابِتها المريعة، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها، فإنَّما هي آلات لغير، وأسباب إلى خَيْرٍ منها وخير، فَمَنْ كان قابلا للازدياد، وألفى فهمه ذا انقياد، فليخصَّ تجويد القرآن بتقديمه، ثمَّ حِفْظ الحديث ومعرفة صحيحه من سَقِيمه، ثمَّ الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المِنَّة، المَهدي كنوز الكتاب والسُّنة، ثمَّ المسائل المنقولة عن العلماء الجِلَّة، والتدْرُب في طُرُق النظر وتصحيح الأدلَّة، وهذه هي الغاية القصوى في المِلَّة، ومن قَصُر إدراكه عن هذا المرمى، وتقاعَد عن التي هي أسمى، فليرَوِّ الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه.

وإِيَّاكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة، فأكثرها لا يُفيد إلَّا تشكيكًا، ورأيًا ركيكًا، ولا يُثمر في العاجلة إلَّا اقتحام العيون، وتَطْرِيق الظنون، وتَطْوِيق الاحتقار، وِسْمَة الصَّعَّار، وحُمُول

الأقدار، والحسَف من بَعْد الإبدار، وجادّة الشريعة أعزَق في الاعتدال، وأوفق من قطع العمر في الجِدال، هذا ابن رشد قاضي المِصْر ومُفتيه، ومُلتَمِس الرُّشد ومُؤَلِّيه، عادت عليه بالسَّخطة الشنيعة، وهو إمام الشريعة، فلا سبيل إلى اقتحامها، والثورُط في ازدحامها، ولا تخلطوا جامكم بِجامها، إلّا ما كان من حساب ومساحة، وما يعود بِجدوى فلاحه، وعلاج يرجع على النفس والجسم بِراحة، وما سوى ذلك فَمَحْجُور، وضَرَم مَسْجُور، ومَمَقُوت مَهْجُور.

وأمرُوا بالمعروف أمرًا رَفيقًا، وانْهَوْا عن المنكر نهيًا حرّيًا بالاعتدال حَقِيقًا، واغْبِطُوا مَنْ كان مِن سِنَةِ الغفلة مُفِيقًا، واجتنبوا ما تُنْهَوْنَ عنه حتّى لا تسلكوا منه طريقًا، وأطيعوا أَمْرَ مَنْ وَلَّاهُ اللهُ تعالى من أموركم أمرًا، ولا تقربوا من الفتنة جَمْرًا، ولا تُدَاخِلُوا في الخلاف زيّدًا ولا عَمْرًا.

وعليكم بالصدّق فهو شعار المؤمنين، وأهمّ ما أضرى عليه الآباء ألسنة البنين، وأكرم منسوب إلى مذهبه، ومَنْ أَكْثَرَ من شيءٍ عُرِفَ به. وإيّاكم والكذب فهو العَوْرَة التي لا تُوارى، والسَّوْءَة التي لا يُرتاب في عارّها ولا يُتَمارى، وأقلّ عقوبات الكذاب بين يَدَي ما أعدَّ اللهُ له من العذاب، أن لا يُقبل صدّقه إذا صدّق، ولا يُعوّل عليه إن كان بالحقّ نَطَقَ.

وعليكم بالأمانة فالخيانة لُوم، وفي وجه الديانة كُلوْم، ومن الشريعة التي لا يعذر بِجهلها، أداء الأمانات إلى أهلها، وحافظوا على الحشمة والصّيانة، ولا تجزوا مَنْ أقرضكم دينَ الخيانة، ولا توجدوا لِلْعَدْرِ قَبُولًا، ولا تُقرّوا عليه طَبْعًا مجبولًا، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾، ولا تستأثروا بِكَنْزٍ ولا خَزَنٍ، ولا تذهبوا لِغَيْرِ مناصحة المسلمين في سَهْلٍ ولا حَزَنٍ، ولا تبخسوا النَّاسَ أشياءهم في كَيْلٍ أو وَزَنٍ.

والله الله أن تُعينوا في سَفَكِ الدماء، ولو بالإشارة أو بالكلام، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام، واعلموا أنّ الإنسان في فُسْحَةٍ ممتدّة، وسُبُلُ الله غير مُنْسَدّة، ما لم ينبذ إلى الله تعالى بأمانه، ويمسّ الدم الحرام بيده أو لسانه، قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به سننًا قويمًا، وجلّى من الجهل والضلال لَيْلًا بَهِيمًا ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

واجتناب الزنى وما تعلق به من أخلاق من كُرِّمت طُبَّاعُه، وامتدَّ في سبيل السعادة باعُه، لو لم تتلقَّ نور الله الذي لم يَهْدِ شعاعه، فالحلال لم تَضِقْ عن الشهوات أنواعه، ولا عُذِمَ إقناعه، ومَن غَلَبَتْ غرائزُ جهله، فَلْيَنْظُرْ هل يَجِبُ أن يُزْنِيَ بأهله، والله قد أعدَّ للزَّاني عذابًا وبيلاً، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

والخمرُ أمَّ الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر، واللَّهو لم يجعله الله في الحياة شرطاً، والمحرَّم قد أَعْنَى عنه بالحلال الذي سَوَّغَ وأعطى، وقد تركها في الجاهلية أقوام لم يَرْضُوا لِعَقُولِهِم بالفساد، ولا لِنَفْسِهِم بالمضرة في مرضاة الأجساد، والله تعالى قد جعلها رَجَسًا مُحَرَّمًا على العباد، وَقَرَّهَا بالأنصاب والأزلام في مُبَايَنَةِ السَّدَاد.

ولا تقربوا الرِّبا فإنَّه من مَناهي الدِّين، والله تعالى يقول: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في الكتاب الممين، ولا تأكلوا مال أحدٍ بغير حقٍّ حتَّى يُبَيِّحه، وانزعوا الطَّعْمَ عن ذلك حتَّى تَذْهَبَ ريحُه، والتَمِسُوا الحلال يَسْعَى فيه أحدكم على قَدَمِهِ، ولا يَكِلْ خياره إلَّا للثقة من خَدَمِهِ، ولا تلجؤوا إلى المتشابهِ إلَّا عند عَدَمِهِ، فهو في السُّلُوكِ إلى الله تعالى أَصْلُ مشروع، والمحافظ عليه مَغْبُوط.

وإِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فالظَّالِمُ مَمْقُوتٌ بكلِّ لسان، مُجَاهِرُ اللَّهِ تعالى بِصِرَاحِ الْعَصِيَانِ، و«الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يوم القيامة» كما ورد في الصحاح الحسان، والنَّمِيمَةُ فسادٌ وشتات، لا يبقى عليها مُمَاتٌ، وفي الحديث «لا يدخل الجنة قَتَاتٌ»، واطرحوا الحسد فما ساد حسود، وإِيَّاكُمْ وَالْغِيبة فباب الخير معها مسدود، والبخل فما رُؤِيَ البخيل وهو مودود، وإِيَّاكُمْ وَمَا يَعْتَذِرُ مِنْهُ فمواقع الخزي لا تُسْتَقَالُ عَثَرَاتُهَا، وَمَظَنَّنَاتُ الْفَضَائِحِ لا تُؤْمَنُ عَمَرَاتُهَا، وَتَفَقَّدُوا أَنْفُسَكُمْ مع السَّاعَاتِ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ في الطُّرُقَاتِ والجماعات، وَرُقُّوا على دَوِي الزَّمَانَاتِ والعاهات، وتاجروا مع الله بالصدقة يُرَبِّحُكُمْ في البضاعات، وَعَوَّلُوا عليه وحده في الشدائد، واذكروا المساكين إذا نَصَبْتُمُ الْمَوَائِدَ، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْيَسِيرِ من ماله، واعلموا أنَّ الخلق عيال الله وأَحَبُّ الخلق إليه المحتاط لِعِيَالِهِ، وارعوا حقوق الجار، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار، وتعاهدوا أولي الأرحام، والوشائج البادية الالتحام.

واحذروا شهادة الزور فإنّها تقطع الظهر، وتُفسد السرّ والجهر، والرّشأ فإنّها تحطّ الأقدار، وتستدعي المذلة والصّعار، ولا تسامحوا في لعبة قمر، ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر، وصُونُوا المواعيد من الإخلاف، والأيمان من حنث الأوغاد والأجلاف، وحقوق الله تعالى من الازدراء والاعتساف، ولا تلهجوا بالآمال العجاف، ولا تكلفوا بالكهانة والإرجاف، واجعلوا العمر بين معاش ومعاد، وخصوصية وابتعاد، واعلموا أنّ الله سبحانه بالمرصاد، وأنّ الخلق بين زرع وحصاد، وأقلُّوا بغير الحالة الباقية المموم، واحذروا القواطع عن السعادة كما تُحذر السُموم، واعلموا أنّ الخير أو الشرّ في الدّنيا مُحال أن يدوم، وقابلوا بالصبر أذى المؤذنين، ولا تعارضوا مقالات الظالمين، فالله لمن بُغِيَ عليه خير الناصرين.

ولا تستعظموا حوادث الأيام كلّما نزلت، ولا تضجّوا للأمراض إذا أعضلت، فكلُّ مُنقِرِضٍ حقير، وكلُّ مُنقَضٍ وإن طال قصير، وانتظروا الفرج، وانتشئوا من جناب الله تعالى الأرج، وأوسّعوا بالرجاء الجوانح، واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى لعبدٍ إليه جانح، وتضرّعوا إلى الله تعالى بالدعاء، والجوء إليه في البأساء والضّراء، وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يُقيّد به الشارد، ويعذب الوارد، وأسهموا منها للمساكين وأفضلوا عليهم، وعينوا الحظوظ منها لديهم، فمن الآثار «يا عائشة، أحسني حوار نعم الله، فإنّها قلّما زالت عن قوم فعادت إليهم»، ولا تطغوا في النعم فتقصّروا عن شكرها، وتلقيكم الجهالة بشكرها، وتتهموا أنّ سعيكم جلبها، وجدكم حلبها، فالله خير الرازقين، والعاقبة للمتقين، ولا فعل إلّا لله إذا نظر بعين اليقين.

والله لا تنسوا الفضل بينكم، ولا تذهبوا بذهابه أحد زينكم، وليلتزم كلّ منكم لأخيه، ما يشتدّ به تواخيه، بما أمكنه من إخلاص وبرّ، ومراعاة في علانية وسرّ، وللإنسان مزية لا تُجْهَل، وحقّ لا يُهْمَل، وأظهروا التعاضد والتناصر، وصلّوا التعاهد والتزاور، تُرغموا بذلك الأعداء، وتستكثروا الأوداء، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة، ولا تتهاوشوا تهاوش السّباع على الجيفة، واعلموا أنّ المعروف يكدّر بالامتنان، وطاعة النساء شرّ ما أفسد بين الإخوان، فإذا أسديتم معروفًا فلا تذكروه، وإذا برز قبيح فاستروه، وإذا أعظم النساء أمرًا فاحقروه.

والله الله لا تنسوا مُقارضة سَجَلِي، وبرُّوا أهل مودّتي من أجلي، ومن رُزق منكم مالا بهذا الوطن القَلِق المهاد، الذي لا يصلح لِغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العَقَّار، فيُصبح عُرضة للمدَّة والاحتقار، وساعياً لِنفسه إن تَغَلَّب العدو على بلدِه في الافتضاح والافتقار، ومُعَوِّقاً عن الانتقال، أمام النُّوب الثقال، وإذا كان رزق العَبْد على المولى، فالإجمال في الطلب أُولى، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدُّنيا فخيرها لا يقوم بشرّها، ونفعُها لا يقوم بضرّها، وأعقاب مَنْ تقدّم شاهدة، والتواريخ لهذه الدَّعوى عاضدة، ومن بُلِّي بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال، والتقلُّل من المال، ومُداخلة العيال، وإفشاء السِّرِّ، وسُكْر الاغترار فإنّه دأب الغرِّ، وليصُن الديانة، ويؤثر الصمت ويُلَازم الأمانة، ويسرّ من رضا الله على أوضح الطُّرق، ومهما اشتبه عليه أمران قصّد أقربهما إلى الحقِّ، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان، والزعازُع تُسالم اللّذن اللطيف من الأغصان.

وإيّاكم وطلب الولايات رغبةً واستجلاباً، واستظهاراً على الخطوب وغِلاباً، فذلك ضرر بالمروآت والأقدار، داعٍ إلى الفضيحة والعار، ومن امْتُحِنَ بها منكم اختياراً، أو جُبر عليها إكراهاً وإيثاراً، فليتلّق وظائفها بسعة صدره، ويبدل من الخير فيها ما يشهد أنّ قدرها دون قدره، فالولايات فتنة ومحنة، وأسر وإحنة، وهي بين إخطاء سعادة، وإخلال بعبادة، وتوقُّع عَزَلٍ، وإدالة بإزاء بيع جدِّ بهزَلٍ، ومزلة قَدَم، واستتباع نَدَم، ومآل العمر كلّ مَوْت ومَعَاد، واقتراب من الله وابتعاد، جعلكم الله مَنْ نَفَعَه بالتبصير والتنبيه، ومَنْ لا ينقطع بسببه عَمَل أبيه.

هذه أسعدكم الله وصيّتي التي أصدرتها، وتجاري التي لربحكم أدّرتها، فتلقّوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء صُبْحها، وبقدَرٍ ما أمضيت من فروعها، واستغشيت من دروعها، اقتنيت من المناقب الفاخرة، وحصلتم على سعادة الدُّنيا والآخرة، وبقدَرٍ ما أضعتم لآلئها النفيسة القيّم، استكثرتم من بواعث النَّدَم.

ومهما سئمتم إطالتها، واستغزرتُم مقالتها، فاعلموا أنّ تقوى الله فذلِكهُ الحساب، وضابط هذا الباب، كان الله خليفتي عليكم في كلّ حال، فالدُّنيا مناخ ارتحال، وتأميل الإقامة فَرَض مُحال، فالموعد

لالتقاء، دار البقاء، جعل الله من وراء خطّته النّجاة، ونَقَّ بضائعها المزجاة، بلطائفه المرتجاة،
والسلام عليكم من حبيبيكم المودّع، والله سبحانه يُلئمه حيث شاء من شَمَلٍ مُتصدّع، والدكم محمد
ابن عبد الله بن الخطيب، ورحمة الله وبركاته».



مكتبة البحث

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

■ المعاجم:

1. أحمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 1989م، ج: 02.
2. الأزهرى، تهذيب اللغة، تح: أحمد عبد العليم البردوني، مرا: علي محمد البيجاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ج: 12.
3. ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1399هـ-1979م، ج: 02، 06.
4. محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية، مصر، دط، 1998م.
5. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ-1994م، ج: 02، 15.
6. أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم، دار العلم والثقافة، مصر، دط، دت.

■ المصادر:

1. أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، تح: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد الله المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، مصر، دط، 1415هـ-1995م، ج: 04.
2. أسامة بن منقذ، لباب الآداب، تح: أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، مصر، دط، دت.
3. الإمام ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تح: الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 1998م، مج: 03، 04.
4. الإمام البخاري، صحيح البخاري وهو الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تح: عبد القادر شيبه الحمد، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 2008م، ج: 01.

5. الإمام الترمذي، سنن الترمذي وهو الجامع الكبير، تح: الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 2000م، مج: 03.
6. الإمام مسلم، صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ج: 01، 03.
7. الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، لبنان، دط، دت، ج: 01.
8. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986م.
9. ابن حجر العسقلاني، إطفاف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، دار الكلم الطيب، بيروت، لبنان، دط، دت، ج: 02، 07.
10. ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، تح: الشيخ أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1983م.
11. ابن حيان القرطبي، المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تح: محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1973م.
12. الخطيب التبريزي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، دت، ج: 01.
13. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، مصر، دط، دت، ج: 01.
14. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، دط، دت.
15. ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تح: صلاح جرار، دار البشير، عمان، الأردن، دط، 1989م، مج: 01.

16. ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1404هـ - 1983م، ج: 02.
17. قدامة بن جعفر، نقد النثر، تح: طه حسين، عبد الحميد العبادي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1351هـ - 1933م.
18. لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1397هـ - 1977م، مج: 01، 04.
19. مالك بن أنس، الموطأ، تح: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، ط1، 1425هـ - 2004م، ج: 05.
20. المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب -، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1369هـ - 1949م، ج: 01، 06، 10.
21. الميداني، مجمع الأمثال، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، دت، ج: 01.
22. ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، دط، 1969م.

■ المراجع:

• أبو بكر العزاوي:

1. الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط1، 2010م.
2. اللغة والحجاج، منتديات سور الأوزبكية، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1426هـ - 2006م.
3. اللغة والمنطق -مدخل نظري-، مكتبة الأدب المغربي، مطبعة طوب بريس، الرباط، المغرب، 2014م.
4. حوار حول الحجاج، دار الأحمديّة للنشر والتوزيع، المغرب، ط1، 1431هـ - 2010م.

5. أحمد أمين مصطفى، أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، مكتبة الأنجلو المصرية، دط، 1990م.
6. أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر، ط1، دت.
7. أحمد حسن بسبح، لسان الدين بن الخطيب عَصْرُهُ، بيئته، حياته وآثاره، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994م.
8. أحمد زكي صفوت، جمهرة خُطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1352هـ - 1933م، ج: 01 (العصر الجاهلي - عصر صدر الإسلام)، ج: 02 (العصر الأموي)، ج: 03 (العصر العباسي الأول).
9. الأزهر الزناد، نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1993م.
10. بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1431هـ - 2010م.
11. بوعافية عبد الرزاق، البلاغة العربية والبلاغات الجديدة - قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة - ، الناشر: مؤسسة حسين راس الجبل للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2018م.
12. توبي لحسن، الحجاج والمواطنة - من المعرفة الأكاديمية إلى ترسيخ القيم الديمقراطية -، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2014م.
13. جميل حمداوي، بلال داوود، كيف تقارب النص الأدبي في ضوء المقاربة الحجاجية؟، سلسلة دراسات أكاديمية، المركز المتوسطي للدراسات والأبحاث، طنجة، المغرب، ط1، 2023م.
14. جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2014م.
15. جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، مصر، دط، 2000م.

16. جواد ختام، التداولية أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 1437هـ-2016م.

• حسن المودن:

17. بلاغة الحجاج الحجاج بالإيطوس والباطوس -بحوث وترجمات-، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1443هـ-2022م.

18. بلاغة الخطاب الإقناعي -نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب-، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014م.

19. حسين الحاج حسين، أدب العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 1417هـ-1997م.

20. الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج في الأصول اليونانية، تقديم: محمد العمري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2014م.

21. حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، السلسلة السادسة، الفلسفة والآداب، مج: 21، منشورات الجامعة التونسية، 1981م.

22. حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي -الأدب القديم-، دار الجليل، بيروت، لبنان، ط1، 1986م.

23. حتى عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا، وفنون، ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2001م.

24. خالد عبد العزيز التجكاني، بلاغة الوصيّة مقارنة بلاغيّة حجاجيّة، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2021م.

25. خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولات تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009م.

26. رشيد الراضي، المظاهر اللغوية للحجاج -مدخل إلى الحجاجيات اللسانية-، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2014م.
27. روناك توفيق علي النورسي، وصايا الأدباء والحكماء في العصر العباسي -دراسة فنية-، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.
28. زهير الحموي، من أدب الوصايا، الناشر: سلسلة روافد، الإصدار (60)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط1، 2012م.
29. سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2011م.
30. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن - السرد - التبيين)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1997 م .
31. سهام الفريخ، الوصايا ومدى تطورها في العصر العباسي الأول، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الكويت، الحولية السادسة، الرسالة الثانية والثلاثون، 1985م.
32. السيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، دت.
33. سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، ط2، 1423هـ - 2003م، مج: 05.
34. صابر الحباشة، التداولية والحجاج -مداخل ونصوص-، الناشر: صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2008م.
35. صلاح إسماعيل، النظرية القصصية في المعنى عند جرائس، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، الحولية 25، 2005م.
- طه عبد الرحمن:

36. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998م.
37. في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000م.

38. عادل المجداوي، البلاغة العامة والبلاغات الخاصة - بلاغة الجمهور نموذجاً-، تقديم: عماد عبد اللطيف، دار العين للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1442هـ - 2021م.

39. عادل جاسم البياتي، دراسات في الأدب الجاهلي منطلقاته العربية وآفاقه الإنسانية، مكتبة الأدب المغربي، المغرب، دط، 1986، ج: 01.

40. عبد الجليل العشراوي، الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012م.

41. عبد الحليم الهروط، النشر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006م.

42. عبد السلام عشير، عندما نتواصل نُغيّر - مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج-، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2006م.

43. عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان، الرباط، المغرب، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1434هـ - 2013م.

• عبد الله البهلول:

44. الحجاج الجدلي - خصائصه الفنيّة وتشكّلاته الأجناسيّة في نماذج من التراث اليوناني العربي-، الناشر: قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، مطبعة دار نهى للطباعة والنشر، صفاقس، تونس، ط1، 2013م.

45. الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً - مقارنة أسلوبية حجاجية-، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، دار محمد علي الحامي، تونس، ط1، 2011م.

• عبد الله صولة:

46. الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007م.

47. في نظرية الحجاج -دراسات وتطبيقات-، مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011م.

48. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب -مقاربة لغوية تداولية-، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
49. عبد الواسع الحميري، ما الخطاب وكيف نُحلّله، الناشر: مجّد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ- 2009م.
50. عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، الناشر: مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ط1، 2011م.
51. علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، سوريا، ط1، 1991م.
52. عماد عبد اللطيف، البلاغة والتواصل عبر الثقافات، الناشر: الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2012م.
53. فاضل صالح السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ط3، 1423هـ- 2003م.
54. فريال عبد الله هديب، الخطاب الأخلاقي في وصايا العصر الإسلامي -مضامين وأساليب-، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الحولية السابعة والعشرون، الرسالة الخامسة والخمسون بعد المئتين، ديسمبر، 1427هـ- 2006م.
55. لطيف محمد العكام، أساليب النشر الفني، مطبعة الآداب، النجف، العراق، ط1، 1974م.
56. مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي -تنظير وتطبيق على السور المكية-، دار كلمة للنشر والتوزيع، تونس، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 1436هـ- 2015م.

• محمد العمري:

57. أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة -دراسات وحوارات-، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2013م.
58. البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2012م.

59. البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2010م.
60. في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري تطبيقي لدراسة الخطابة العربية - الخطابة في القرن الأول نموذجاً-، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2002م.

• محمد الولي:

61. الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، منشورات دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 1426هـ - 2005م.
62. الخطابة والحجاج بين أفلاطون وأرسطو وبيلمان، تقديم: محمد العمري، الناشر: فالية للطباعة والنشر والتوزيع، المغرب، ط1، 1441هـ - 2020م.
63. محمد بن أبي بكر التطواني، ابن الخطيب من خلال كُتبه، دار الطباعة المغربية، محمد مولاي الحسن، تطوان، المغرب، دط، 1954م.
64. محمد رجب النجار، النشر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابة - فنونه، مدارسه، أعلامه-، دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 2002م.
65. محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة - بحث في بلاغة النقد المعاصر-، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.
66. محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005م.
67. محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، مصر، دط، دت.

• محمد مشبال:

68. البلاغة والأصول دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي - نموذج ابن جني-، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2007م.
69. في بلاغة الحجاج - نحو مقارنة حجاجية لتحليل الخطابات-، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2017م.

70. محاضرات في البلاغة الجديدة، دار الرافدين، بيروت، لبنان، ط1، 2021م.
71. محمد مصطفى شلبي، أحكام الوصايا والأوقاف، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط4، 1982م.
72. محمد مفتاح، دينامية النص -تنظير وإنجاز-، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1990م.
73. محمد مندور، الأدب وفنونه، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، مصر، دط، 1980.
74. محمد نايف الدليمي، جمهرة وصايا العرب -وصايا العصر الجاهلي-، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ج: 01.
75. محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة، مصر، دط، 2002م.
76. مختار نويوات، البلاغة العربية في ضوء البلاغات المعاصرة (بين البلاغتين: الفرنسية والعربية)، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2013م.
77. مسعود بودوخة، البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2018م.
78. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب -دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي-، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.
79. مصطفى أمين، علي الجارم، البلاغة الواضحة -البيان، المعاني، البديع- للمدارس الثانوية، دار المعارف، مصر، دط، دت.
80. هاشم صالح مناع، النشر في العصر الجاهلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.
- هشام إبراهيم عبد الله الخليفة:
81. الافتراض المسبق بين اللسانيات الحديثة والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2021م.
82. نظرية التلويح الحوارية بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، مصر، ط1، 2013م.

■ الكتب المترجمة بالعربية:

1. أرسطو طاليس، الخطابة، تر: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، 1979م.
2. أزالديكرو، السّلميات الحجاجية، تر: أبو بكر العزاوي، الناشر: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2020م.
3. آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، مرا: لطفي زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2003م.
4. أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، معج: (A- G)01، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، باريس، فرنسا، ط2، 2001م.
5. أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة - كيف ننجز الأشياء بالكلام-، تر: عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، 1991م.
6. باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، تر: أحمد الوديني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2009م.
7. باتريك شارودو، دومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، مرا: صلاح الدين الشريف، المركز الوطني للترجمة، تونس، منشورات دار سيناترا، تونس، 2008م.
8. جورج يول، التداولية، تر: قصي العتاي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1431هـ - 2010م.
9. جيوفري ليتش، مبادئ التداولية، تر: عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2013م.
10. رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1994م.

11. شايم بيرلمان، الإمبراطورية الخطابية - صناعة الخطابة والحجاج-، تر: الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2022م.
12. شايم بيرلمان، لوسي أولبرخت تيتيكا، المصنّف في الحجاج - الخطابة الجديدة-، تر: محمد الولي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2023م.
13. فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، دط، 1986.
14. فيليب بروطون، جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناحي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدّة، السعودية، ط1، 1432هـ - 2011م.
15. فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007م.
16. كريستيان بلانتان، الحجاج، تر: عبد القادر المهيري، مرا: عبد الله صولة، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، دط، 2008م.
17. ميشال مايير، البلاغة، تر: محمد أسيداه، مرا: محمد الولي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2021م.
18. هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية - نحو نموذج سيميائي لتحليل النص-، تر: محمد العمري، منشورات دراسات سال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1989م.

■ الكتب الجماعية:

1. الحجاج مفهومه ومجالاته - دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة-، إش: حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1431هـ - 2010م، ج: 01.
2. التداوليات علم استعمال اللغة، إش: حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2014م.

3. الحجاج والاستدلال الحجاجي -دراسات في البلاغة الجديدة-، إيش: حافظ إسماعيل علوي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2011م.
4. التداوليات وتحليل الخطاب، إيش: حافظ إسماعيل علوي، منتصر أمين عبد الرحيم، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 1435هـ- 2014م.
5. أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إيش: حمادي صمود، كلية الآداب، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، منوبة، تونس، 1998م.
6. التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تن: حمو النقاري، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم: 134، منشورات كلفة الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط1، 1427هـ- 2006م.
7. من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرحبة -قراءات في أعمال الدكتور محمد مشبال-، تن: عبد الواحد المرابط وآخرون، عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن، ط1، 2017م.
8. بلاغة النص التراثي -مقاربة بلاغية حجاجية-، إيش: محمد مشبال، دار العين للنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2013م.
9. البلاغة وأنواع الخطاب، إيش: محمد مشبال، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2017م.

المقالات:

1. أبو بكر العزاوي، حوار من المنطق إلى الحجاج، مجلة فكر ونقد، المغرب، ع: 61، سبتمبر، 2004م.
2. حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي -عناصر استقصاء نظري-، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع: 01، جويلية 2001م.

3. حمادي صمود، مقدّمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن كتاب: أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إش: حمادي صمود، كلية الآداب، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، منوبة، تونس، 1998م.
4. رشيد الراضي، الحجاج والبرهان، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته -دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة-، إش: حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1431هـ - 2010م، ج: 01.
5. سهام الفريح، أدب الوصايا في العصر الجاهلي، مجلة البيان، الكويت، ع: 208، جويلية 1983م.
6. شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن كتاب: أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إش: حمادي صمود، كلية الآداب، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، منوبة، تونس، 1998م.
7. عادل فاحوري، الاقتضاء في التداول اللساني، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج: 20، ع: 03، 1989م.
8. عباس حشاني، مصطلح الحجاج بواعثه وتقنياته، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ع: 09، 2013م.
9. عبد الفضيل أدرابي، بلاغة الدعاء -دراسة في بعض سمات الدعاء الإسلامي-، ضمن كتاب: البلاغة وأنواع الخطاب، إش: محمد مشبال، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2017م.
10. عبد الفضيل أدرابي، بلاغة الوصية (وصية علي بن أبي طالب إلى ولده الحسن نموذجاً)، ضمن كتاب: بلاغة النص التراثي -مقاربة بلاغية حجاجية-، إش: محمد مشبال، دار العين للنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2013م.
11. عبد الكريم ابزاري، في مؤسسات الخطاب الإقناعي -من تخوم البلاغة إلى رحابة الحجاج-، ضمن كتاب: من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرحبة -قراءات في أعمال الدكتور محمد مشبال-، تن: عبد الواحد المرابط وآخرون، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2017م.

12. عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مُصنّف في الحجاج -الخطابة الجديدة- لبييرمان وتيتيكا، ضمن كتاب: أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إيش: حمادي صمود، كلية الآداب، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، منوبة، تونس، 1998م.
13. عز الدين الناجح، العامل الحجاجي والموضع، ضمن كتاب: الحجاج والاستدلال الحجاجي - دراسات في البلاغة الجديدة-، إيش: حافظ إسماعيل علوي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2011م.
14. علاء الدين أحمد الغرايبة، أمل شفيق العمري، آليات الحجاج البلاغي لوصايا الحكماء في العصر الجاهلي -مقاربة تداولية-، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، غزة، فلسطين، مج: 27، ع: 03، 2019م.
15. علي حسن محمد التمري، الوصايا في عصر صدر الإسلام، مجلة جامعة تكريت للعلوم، العراق، مج: 02، ع: 01، جانفي 2012م.
16. محمد العمري، الحجاج: مبحث بلاغي، فما البلاغة؟، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته -دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة-، إيش: حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1431هـ - 2010م، ج: 01.
17. محمد الولي، مدخل إلى الحجاج -أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان-، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج: 40، ع: 02، أكتوبر- ديسمبر 2011م.
18. محمد آيت همو، ابن حزم فارس الحجاج في الغرب الإسلامي، ضمن كتاب: التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تن: همو النقاري، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم: 134، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط1، 1427هـ - 2006م.

19. محمد سالم الأمين الطلبة، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع: 03، جانفي، 2000م.
20. محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إش: حمادي صمود، كلية الآداب، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، منوبة، تونس، 1998.
21. مصطفى الغرافي، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال منهج البلغاء وسراج الأدباء (مشروع قراءة)، ضمن كتاب: التداوليات وتحليل الخطاب، إش: حافظ إسماعيل علوي، منتصر أمين عبد الرحيم، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 1435هـ - 2014م.
22. هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إش: حمادي صمود، كلية الآداب، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، منوبة، تونس، 1998م.
23. هيثم محمد سرحان، شعرية الوصية في نماذج من السرد العربي الكلاسيكي، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، الأردن، مج: 13، ع: 03، 2017م.
24. يوسف السيساوي، الإشارات -مقاربة تداولية-، ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة، تن: حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2014م.

■ الرسائل الجامعية:

1. بغدادي بشرى، الوصية في الأدب الأندلسي وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده -دراسة حضارية فنية-، رسالة ماجستير في الأدب الأندلسي والحضارة المتوسطية، إش: كروم بومدين، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2010م - 2011م.
2. حذيفة عبد الله عزام، الوصايا في الأدب الأندلسي، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، إش: صلاح جرار، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، الأردن، جوان 2007م.

3. خالد بن صالح مدّ الله السعري، أدب الوصايا في النثر الأندلسي، رسالة ماجستير في الأدب العربي، إشراف: عبد العزيز بن عبد الله العواد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، 2008م - 2009م.

المراجع باللغة الأجنبية:

1. Cambridge, Dictionnaire Cambridge, University Press, England, 2ed, 2004.
 2. Catherine Kerbrat- Orecchéoni, L'implicite, Armand Colin, Paris, France, 1986.
 3. Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca, Traite de L'argumentation -La Nouvelle Rhétorique, Editions de L'université de Bruxelles, 2000.
 4. J.C. Anscombe et O. Ducrot, L'argumentation dans la Langue, Mardage, 2éd, Liège Bruxelles, 1983.
 5. Michel Meyer, Que èst- Ce que L'argumentation?, Vrin, Paris, France, 2005.
 6. O. Ducrot, Dire et Ne Pas Dire, Principes de Sémantique Linguistique, Editions Hermann, Paris, 1972.
 7. O. Ducrot, Les Echelles Argumentatives, Editions de Munuit, Paris, 1980.
 8. Robert, Dictionnaire de la Langue Française, T1, Paris, France, 1989.
- Stephen Toulmin, The Uses of Argument, Cambridge, University Press, England, 3ed, 2003



مسرد المصطلحات



المصطلح بالعربية	المقابل الأجنبي (فرنسي - إنجليزي)
البلاغة/ الخطابة	Rhétorique
الشعرية	Poiesis
الحجاج	Argumentation
الحجة	Argument
بلاغة الحجاج	Rhétorique Argumentation
البلاغة الجديدة	La Nouvelle Rhétorique
إمبراطورية	Empire
الأسلوب	Style
الأسلوبية	Stylistique
البلاغة العامة	Rhétorique Générale
البلاغة المعممة	Rhétorique Généralisée
الخطاب	Discours
أنواع الخطاب	Types Discours
المظهر الحجاجي	L'aspect Argumentative
المقاربة الحجاجية للخطابات	L'approche Argumentatives des Discours
التداولية	Pragmatique
الفلسفة التحليلية	Analytic Philosophy
السيمائية	Sémiotique
اللسانيات	Linguistique

Cognitive	معرفية
Social	اجتماعية
Cultural	ثقافية
Contexte Enonciation	سياق التلفظ
Deixis	الإشارات
Personal Deixis	الإشارات الشخصية
Person	شخص
Temporal Deixis	الإشارات الزمانية
Spatial Deixis	الإشارات المكانية
Discours Deixis	إشارات الخطاب
Social Deixis	الإشارات الاجتماعية
Les Implicites	متضمنات القول
Presupposition	الافتراض المسبق
Les Sous –Entendus	الأقوال المضمرة
Implicature	الاستلزام
ConversationalImplicature	الاستلزام الحوارية
Explicite Meaning	المعنى الصريح
InexplicitMeaning	المعنى الضمني
CooperativePrinciple	مبدأ التعاون
Maxims	قواعد
Quantity	الكمّ

Quality	الكيف
Relevance	المناسبة
Manner	الطريقة
Flouting	خرق
Defeasible	قابل للإلغاء
Non- Detachable	غير قابل للفصل
Speech Acts	أفعال الكلام
Intentionality	القصدية
Constative	الأفعال الإخبارية
Performative	الأفعال الأدائية
LocutionaryAct	الفعل التلفظي
IllocutionaryAct	الفعل الإنجازي
PerlocutionaryAct	الفعل التأثيري
Force Illocutoire	القوة الإنجازية
Verdictives	أفعال الأحكام
Exercitive	أفعال القرارات
Commissives	أفعال التعهد
Expositives	أفعال الإيضاح
Behabitives	أفعال السلوك
PropositionalAct	الفعل القضوي
Propositional Content	شروط المحتوى القضوي

Preparatory	الشرط التمهيدي
Sincerity	شرط الإخلاص
Essential	الشرط الأساسي
Declarations	الإعلانات
Representatives	الممثّلات
Expressive	المعبرّات
Directives	الموجّهات
Commissives	الملزّات
Analyse Discours	تحليل الخطاب
Argumentation Linguistique	الحجاج اللساني
Théorie du Questionnement	نظرية المساءلة
Déduction Logique	الاستنتاج المنطقي
Démonstration	البرهان
Séquence	التسلسل
Raisonnement	الاستدلال
Persuasion	الإقناع
Dialectique	الجدل
Argumentation Dialectique	الحجاج الجدلي
Argumentation Rhétorique	الحجاج الخطابي
Les Passions	الانفعالات
Sophistes	السفسطائيين

Compétence	الكفاءة
Opinion	الظن
Convenance	التناسب
Les Lieux	المواضع
Les Réfutations Sophistiques	التبكيّات السوفسطائية
Organon	الأورغانون
Genre Judiciaire	الجنس المشاجري
Genre Délibératif	الجنس المشاوري
Genre Épictique	الجنس التّشبيقي
Ethos	الإيتوس
Pathos	الباتوس
Logos	اللّوغوس
Preuves	تصديقات
Théories de L'argumentation	نظريات الحجاج
Argumentation Logique	الحجاج المنطقي
Schématisation	الخطاطة
Donnée	المعطى
Qualification Modal	محدّد كيفية
Garantie	الضامن
Fondement	أساس
Restriction	تقييد

Conclusion	نتيجة
Argumentation Rhétorique	الحجاج البلاغي
Auditoire	المستمع
Auditoire Particulier	المستمع الخاص
Auditoire Universel	المستمع الكوني
L'argumentation Persuasive	الحجاج الإقناعي
L'argumentation Convaincante	الحجاج الاقتناعي
Prémises	مقدمات
Le Reel	الواقع
Le Préférable	المفضل
Les Faits	الوقائع
Réalités	الحقائق
Les Présomptions	الافتراضات
Les Valeurs	القيم
Les Hiérachies	الهرميات
Lieux Quantité	مواضع الكم
Lieux de Qualité	مواضع الكيف
Lieux de L'ordre	مواضع الترتيب
Lieux de L'existant	مواضع الوجود
Lieux de L'essence	مواضع الجوهر
Lieux de la Personne	مواضع الشخص

Lieux Communs	مواضع مشتركة
Lieux Spécifiques	مواضع خاصة
Modalités D'expression	الموجهات التعبيرية
Modalité Assertive	الموجه الإثباتي
Modalité Injonctive	الموجه الإلزامي
Modalité Interrogative	الموجه الاستفهامي
Modalité Optative	الموجه بالتمني
Les Techniques Argumentatives	التقنيات الحجاجية
Procedes de Liaison	طرائق الوصل
Arguments quasi-Logique	الحجج شبه المنطقية
Arguments quasi-Logique Bases Sur Relations Logique	الحجج شبه المنطقية القائمة على علاقات منطقية
Contradiction	التناقض
Incompatibilité	التعارض
Identité Totale	التماثل التام
Définition	التعريف
La Règle de Justice	قاعدة العدل
Arguments de Transtivité	حجج التعدية
Arguments Bases Sur de Relation Mathématique	الحجج شبه المنطقية القائمة على علاقات رياضية
Intégration	الإدماج

Division	التقسيم
Partition	التوزيع
Comparaison	المقارنة
L'argument du Sacrifice	حجة التضحية
Arguments Basés Sur la Structure du Réel	الحجج المؤسسة على بنية الواقع
Liaison de Succession	الاتصال التتابعي
L'argument de Graspillage	حجة التبذير
L'argument de Directions	حجة الاتجاه
Sauter	التخطي
Liaison de Coexistence	الاتصال التوايدي
Argument D'autorité	حجة السلطة
Liaison Symbolique	الاتصال الرمزي
Les Arguments qui Fondent la Structure du Réel	الحجج المؤسسة لبنية الواقع
L'exemple	المثل
Illustration	الاستشهاد
Le Modèle	النموذج
Analogie	التمثيل
Procédé de Dissociation	طرائق الفصل
La Pragmatique Intégrée	التداولية المدمجة
Intrinsèque	جوهرية

Logique Naturelle	المنطق الطبيعي
Mécanismes D'argumentation Linguistique	آليات الحجاج اللساني
Marqueurs Argumentatives	القرائن الحجاجية
Les Connecteurs Argumentatives	الروابط الحجاجية
Orientation Argumentative	التوجيه الحجاجي
Les Operateurs Argumentatives	العوامل الحجاجية
Potentialités	الإمكانات
Relations Argumentatives	العلاقات الحجاجية
La Classe Argumentative	القسم الحجاجي
La Force Argumentative	القوة الحجاجية
Orientation Argumentative	الاتجاه الحجاجي
Les Echelles Argumentatives	السلالم الحجاجية
Lois L'echelle Argumentative	قوانين السلم الحجاجي
Idée Générale	أفكار عامة
Forme Vide	أشكال فارغة
Polémique	السجال
Question	السؤال
Formes Rhétoriques	الصور البلاغية
Relations Rhétoriques	العلاقات الخطابية
Commandment	الوصية
Recommandation	التوصية

Sermon	الخطبة
Prédication	الوعظ
Conseil	النصيحة
Interaction Discours	تفاعل الخطابات
Stratégies de Discours	استراتيجيات الخطاب
Stratégie de Solidarité	الاستراتيجية التضامنية
Stratégie de Derectives	الاستراتيجية التوجيهية
Stratégie D'allusion	الاستراتيجية التلميحية
Stratégie de Persuasion	استراتيجية الإقناع



فهارس البحث

فهرس الخطاطات

الصفحة	عنوان الخطاطة
13	تيارات البلاغة في الثقافة الغربية
14	تيارات البلاغة في الثقافة العربية
22	موضوعات التداولية
24	أنواع الإشارات
32	تصنيفات أوستين للفعل الكلامي
34	تصنيفات سيرل للفعل الكلامي
55	الأجناس الخطابية الأرسطية
56	أركان الخطابة عند أرسطو
58	أنواع البيان عند ابن وهب
61	أنواع البلاغة عند القرطاجني
63	نظريات الحجاج
70	أنواع الحجج في الطرائق الاتصالية
99	أنواع الحجاج عند طه عبد الرحمن
117	مفاهيم الوصية في الاصطلاح
123	أركان خطاب الإيضاء
158	معايير اختيار استراتيجيات الخطاب
163	أنواع استراتيجيات الخطاب
179	أركان الخطاب الإيصائي في وصية ابن الخطيب
194	الأفعال الكلامية في وصية ابن الخطيب

فهرس الجداول

الصفحة	عنوان الجدول
14	التقاطعات المعرفية بين تيارات البلاغتين العربية والغربية
47	الفروقات بين الحجاج والمصطلحات المشابهة له
79	الحجاج البلاغي عند بيرلمان
95	أهم مرتكزات نظريات الحجاج
112	مواضع لفظ الوصيّة في القرآن
120	الفروقات بين الوصيّة والمصطلحات المشابهة لها
197	أنواع القيم في وصيّة ابن الخطيب
217	الاقتباس الإشاري في وصيّة ابن الخطيب

فهرس الموضوعات	
الموضوع	الصفحة
البسمة	-
شكر وتقدير	-
إهداء	
كشاف الرموز	-
مقدمة	أ
مدخل: مباحث تمهيدية	
أولا - بلاغة أم بلاغات؟	10
ثانيا - البلاغة الجديدة	15
ثالثا - البلاغة والحجاج.	16
رابعا - المقاربة الحجاجية للخطابات	17
خامسا - التداولية	19
5-1- رؤيا في المفهوم	19
5-2- موضوعات التداولية	21
الفصل الأول: الحجاج (المنطلقات والنظريات)	
أولا - الحجاج مقارنة في ماهية المصطلح	36
1-1 - الدلالة اللغوية	36
1-2 - الدلالة الاصطلاحية	38
1-3 - المصطلحات المشابهة للحجاج	43
ثانيا - الحجاج في الفكر اليوناني	49
1-2 - السفسطائيين	49
2-2 - سقراط	51

51	2-3 - أفلاطون
53	2-4 - أرسطو
57	ثالثا- الحجاج في الفكر العربي
57	3-1 - ابن وهب
59	3-2 - الجاحظ
60	3-3 - حازم القرطاجني
62	3-4 - ابن حزم
63	رابعاً- نظريات الحجاج
63	4-1 - الحجاج المنطقي
65	4-2 - الحجاج البلاغي
79	4-3 - الحجاج اللساني
91	4-4 - نظرية المساءلة
96	خامساً- الدراسات الحجاجية الحديثة
96	5-1 - عبد الله صولة
97	5-2 - طه عبد الرحمن
99	5-3 - محمد العمري
103	5-4 - أبو بكر العزاوي
107	خلاصة الفصل
الفصل الثاني: خطاب الوصية في الأدب العربي	
110	أولاً- ماهية المصطلح
110	1-1 - مفهوم الوصية
117	1-2 - المصطلحات المشابهة
120	1-3 - أركان الوصية

124	ثانيا- الوصية عبر العصور
124	1-2 - الوصايا في العصر الجاهلي
129	2-2 - الوصايا في عصر صدر الإسلام
133	3-2 - الوصايا في العصر الأموي
136	4-2 - الوصايا في العصر العباسي
145	5-2 - الوصايا في العصر الأندلسي
150	ثالثا- الوصية: الخصائص والأهمية
150	أ- خصائص الوصية
152	ب- الغاية والأهمية
154	رابعا- الوصية بين تفاعل الخطابات وإستراتيجيات الخطاب
154	1-4 - الوصية وتفاعل الخطابات
155	2-4 - الوصية وإستراتيجيات الخطاب
156	1-2-4 - مفهوم إستراتيجيات الخطاب
157	2-2-4 - معايير اختيار الإستراتيجية المناسبة
158	3-2-4 - أنواع إستراتيجيات الخطاب
163	4-2-4 - اشتغال إستراتيجيات الخطاب في الوصايا
164	خامسا- الوصية خطاب إقناعي حجاجي
165	أ- ضوابط التداول الحجاجي
167	خلاصة الفصل
الفصل الثالث: وصية لسان الدين بن الخطيب مقارنة حجاجية	
169	أولا- التعريف بالوصية وصاحبها
169	1-1 - لسان الدين بن الخطيب سيرة ومسيرة:

173	1-2- التعريف بالوصية
179	ثانيا - الإستراتيجيات الخطائية في الوصية
179	أ- أركان العملية التخاطبية
179	ب- بين المستمع الخاص والمستمع الكوني
180	ج- أنواع الاستراتيجيات
181	د- معايير اختيار الاستراتيجية
182	هـ- تفاعل الخطابات
183	ثالثا - المقاربة التداولية
183	3-1- الإشارات
184	3-2- متضمنات القول
187	3-3- مبدأ التعاون وقواعده
188	3-4- أفعال الكلام
195	رابعا - المقاربة الحجاجية
195	4-1- مقدّمات الحجاج
197	4-2- الموجّهات التعبيرية
199	4-3- المقاربة الحجاجية المنطقية
199	أ- الخطاطة الحجاجية
203	ب- القياس المضمر
204	4-4- التقنيات الحجاجية
204	أ- الحجج شبه المنطقية
211	ب- الحجج المؤسسة على بنية الواقع
214	ج- الحجج المؤسسة لبنية الواقع
222	د- فصل المفاهيم

223	4-5- المقاربة الحجاجية اللسانية
223	أ- الحجج اللغوية
224	ب- الروابط الحجاجية
226	ج- العلاقات الحجاجية
228	د- العوامل الحجاجية
231	هـ- السلام الحجاجية
233	ز- المواضع الحجاجية
235	خامسا - المقاربة البلاغية
235	5-1- بلاغة الصيغ
236	5-2- بلاغة الوصف
237	5-3- بلاغة الدعاء
238	5-4- بلاغة السرد
240	5-5- بلاغة العاطفة
241	5-6- بلاغة الأساليب البلاغية
248	5-7- بلاغة الصور البيانية
250	5-8- بلاغة المحسنات البديعية
253	خلاصة الفصل
255	خاتمة
261	ملاحق
273	مكتبة البحث
291	مسرد المصطلحات
301	فهارس البحث
302	فهرس الخطاطات

303	فهرس الجداول
304	فهرس الموضوعات
310	ملخص الدراسة

ملخص الدراسة:

تسعى الدراسة إلى تقديم مقارنة بلاغية حجاجية لفنّ من الفنون الأدبية؛ هو فنّ الوصية، باعتباره جنسًا أدبيًا له مقوماته وخصائصه التي تُميّزه عن غيره من الخطابات. وقد وقع اختيارنا على وصية "لسان الدين بن الخطيب" لأولاده، لما تشتمل عليه من إمكانات بلاغية، أتاحت لنا الكشف عن الاستراتيجيات الخطابية، والأبعاد التداولية التواصلية، والتقنيات الحجاجية، والأساليب البلاغية، التي وظّفها "ابن الخطيب" من أجل إقناع أولاده للعمل بمضمون الوصية.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، خطاب الوصية، الحجاج، المقارنة الحجاجية، وصية لسان الدين بن الخطيب.

Abstract

This study seeks to offer a rhetorical and argumentative approach to a literary genre the commandment as a distinct form of discourse with its own characteristics and features. We have selected the commandment of Lisān al-Dīn Ibn al-Khaṭīb to his sons for its rich rhetorical potential, which allowed us to explore the persuasive strategies, communicative and pragmatic dimensions, argumentative techniques, and rhetorical devices employed by Ibn al-Khaṭīb to convince his sons to act upon the content of his commandment.

Keywords: Rhetoric, commandment discourse, argumentation, argumentative approach, Lisān al-Dīn Ibn al-Khaṭīb